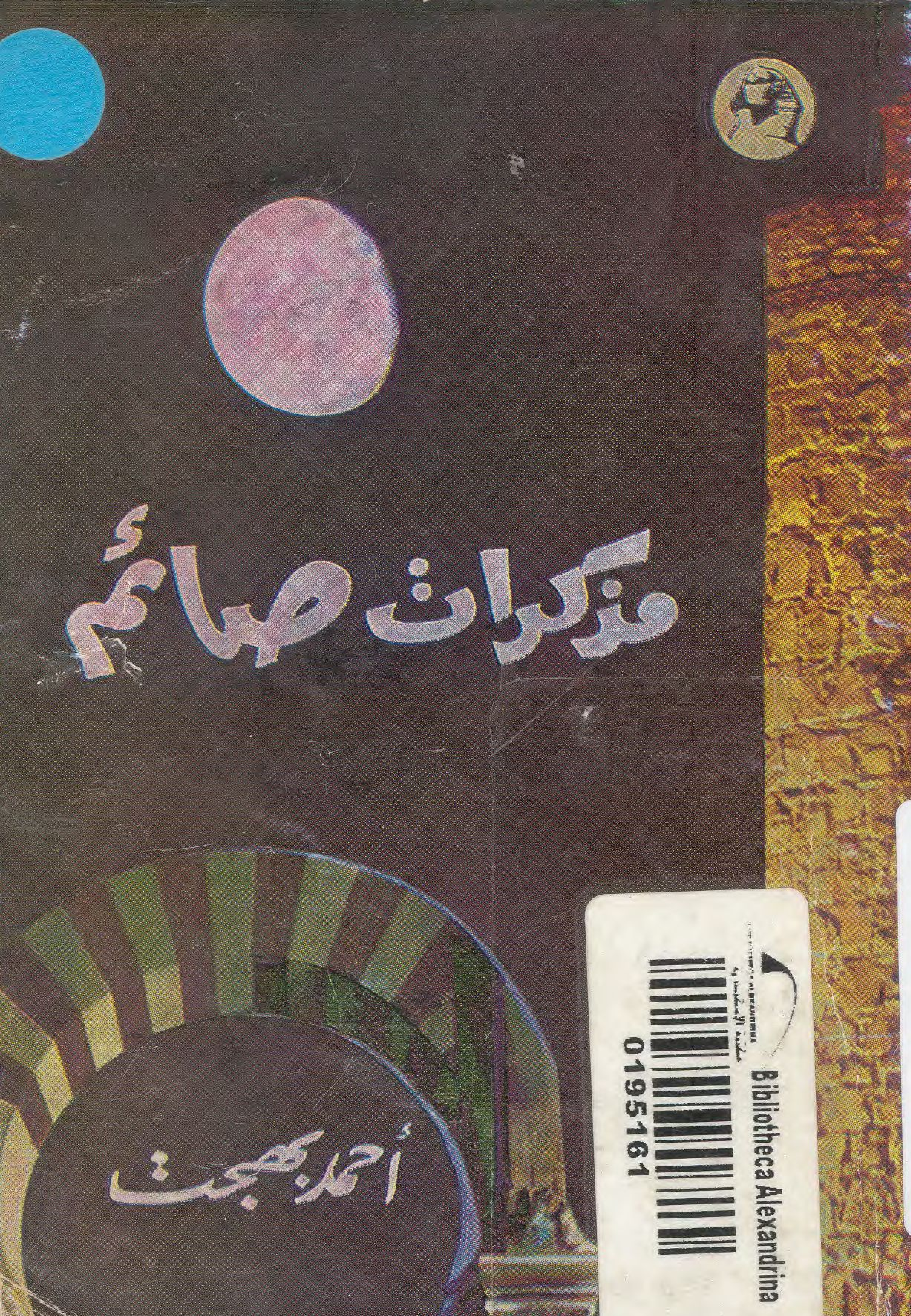

مذكرات صائم
أحمد بهجت

مذكرات صائم

بقلم : أحمد بهجت


بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء

الى ذى النون المصرى ..

الى حرف النون فى اسمه .. الى النقطة الوحيدة فى حرف النون ، الى النقطة اليتيمة التى تبدأ عندها حسرات المحبين وتنتهى اليها آمال العاشقين .

ان دمعة وجد صوفى تحدرت على وجهك ، وقطرة عطر سقطت من ردائك ، وبعض نور انسكب من كلماتك .. قد صنعت معا روح سيدى ومولاى الصوفى

شمس الدين

وهى روح أنا فيها وبها ومعها ولها ومنها واليها .. والكتاب هدية لهذه الروح ..

وفاء لحظة الصدق التى وضعنا فيها يدنا على الكتاب الكريم كى نأخذ العهد الا يخون أحدنا الله ، وان أغفلنا أن نقسم الا يخون أحدنا الآخر ، لم نغفل ذلك وانما نسيناه ، لم ننسه وانما لم يعد لنا بعد ضمان الوفاء لله أن نطلب أى ضمان آخر ..

أحمد بهجت

تقـــديم

بقلم الدكتور حسين فوزى

لا أعرف ما يريد المؤلف من كتابة هذه المقدمة ، وهو فى غنى عن التعريف . ولكنى أعلم أنى استخفيت دم احمد بهجت منذ رأيته أول مرة .

سمعت قبل لقائه أن صحيفته أرسلته هائما على وجهه فى أوربا ، ولم تطلب منه شيئا بعينه .. فتصورته فيلسوفا وقورا ، ولم يكذب ظنى فى الاوله .. آه ، فهو فيلسوف ، وطاش تصورى فى الثانية ..

حسبته مستهترا ... ثائرا ... كافرا .... يقول مع سميه ابن محمد الافريقى المشهور بالمتيم :

فوالله لا صليت لله مفلسـا
يصلى له الشيخ الجليل وفائق
[من أثرياء عصره] .
لماذا أصلى ؟ أين مالى ومنزلى
وأين خيولى والحلى والمناطق
أصلى ولافتر م الارض يحتوى
عليـه يمينى ، اننى لمنـافق

ما حاجته الى مقدمتى ، وهو خير من يقدم عمـله ويفسره .

اختـــار الكاتب شخصية صـــائم ينطبق عليه قول رسول الله (صلعم) : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » .

وأشـهد أن الكاتب فى هذا هو الفولكلور المصرى الحى، المنحدر من أصلاب « الفلاح الفصيح » ، وأبو نضارة ، وحسن الآلاتى ، وشفيق المصرى ، وبيرم التونسى ..

ثم هو يختار لبطولة المذكرات رجلا **يقـــوم الصراع داخله بين حنين روحه الى الله ، وثقل الحواس التى تشده الى الأرض ، وبين واقعه الراكد وتوهج أحلامه ... ويسخر من ضعفنا البشرى وينتقده ، ويستحثه كى يستكمل رحلته ، ويتقـــدم فى طريق الله .. .**

وهنا معضلة الكتاب ، أو « صينية المناورات » فيما أحسبه اصطلاح رجال السكة الحديد . اذ يتحول من « نزهة النفوس ، ومضحك العبوس » الى مغـــاور الصوفية ، دون أن يتخلى عن مناكفة شيوخه ، وبينه وبين « النقورة » عليهم فركة كعب .. **« لولا أن رأى برهان ربه »** .. رآه فى الحب .. **واذا المؤلف يختار من قصص الحب التى يعيشـــها الصائم قصـــة حب بشرى أوصله الى الحب الالهى ، وأدخله جحيم الندم فى حدائق التوبة ..**

وكمثل كل متطور بالجلالة ، قبيل الوصول .. تطل عليه من مكان غير منظور عين الشيطان الساخرة .. **فيلتقى مع ابليس وقد جاءه مربوطا بســـلاسل شهر رمضان .. ويتطفل على تخاريفه ، ويعيش مع ابليس واقعه فى بيته وعمله ..**

قال ، لعنة الله عليه — اقصد ابليس ، لا المؤلف ! !

« — ... هذا ما أفكر فيه طيلة الوقت ... كان الله يعلم أنني سأرفض السجود ، سأتحول الى الشر المحض ... لو علمت أن الله يعلم بما سيكون ، فربما كان لى تصرف آخر ... المأساة أن الله يعلم ما بنفسى ، وأنا لا اعرف ما بنفسه .

الصائم : كنت تحلم بأن تخدع الخالق ؟

ابليس : لقد تصورت أننى خدعته بعبادته آلاف السنين حتى وصلت الى مرتبة الوقوف مع الملائكة .. كنت واهما ... كان يعرف أن فى نفسى خيطا من الرياء وأنا أعبده ... كان يعرف أننى أعبده لاترقى ... لم أكن أعبده لذاته ... » .

ويكاد المؤلف ينعى على الناس حتى جهدهم ، وحسن بلائهم ... فى سبيل الحصول على الدرجة الرابعة .. سواء فى الدنيا ، أو فى جنة الخلد .

وصف الصائم زميلا له من زملاء المدرسة ، مات أبوه فى الريف فورث عنه مشيخة طريقة ، ثم زار هذا الزميل فى « الحضرة » مع أتباعه الكثيرين :

أحس الضيف بالجوع ، وشكا لصاحبه شيخ الطريقة الذى قال :

« من صبر ظفر . لم يات أخطر ما فى الحفل بعد .. لم تأت الفتة ..

صرخ بصوت ممطوط ... وحدووووووه !

سكت المنشــــدون والذاكرون الراقصون وقالوا : لا اله الا هوووووووه !

قال صديقى شيخ الطريقة : من قالها دخل الجنة ..

وكأنما كانت كلمته اشارة الى الطباخين أن يدخلوا ، فانفتح الباب ، ودخل أربعة يحملون طشتا من طشوت الغسيل النحاسية اللامعة ، وقد امتلأ بالفتة وهراديم اللحم ، والبخار يتصاعد منه ... وبدأ الهجوم . تأكدت أن هناك علاقة وثيقة بين طريقتهم فى الأكل وأسلوبهم فى الذكر . ان رنين الملاعق المكتوم فى الصينية يصنع ايقاعا سريعا يشبه الايقاع الذى ختموا به الذكر ، فأبطأ الايقاع هنا مثلما أبطأ هناك .. ثم سال العرق هنا مثلما سال هناك ... ثم انثنى الرجال الى الخلف ، ومسحوا أيديهم فى لحاهم وقالوا : اللهم أطعمنا من نعيم الجنة ..

قال شيخ الطريقة : القطايف مذكر ، والكنافة مؤنث ثم أنشد :

قـال القطـايف للـكنافة ما
بالى أراك رفيعـــة الجســد

أنا بالقلوب حــلاوتى حشيت
فتقطـعى من كثرة الحســد

... فارتج على الكنافة وخرست ، قيل انها طقت من الحسد وماتت .

لم يكد الشيخ ينهى كلماته حتى حضرت ثلاث صوان تسبح فى السمن والعسل وهى تمتلىء بالقطايف . قال الشيخ وكأنه يجاهد فى سبيل الله :

ـ بسم الله توكلنا عليه .

قالها وزام كمثل أسد عظيم جائع ، ومد يده لأحدى القطايف السمينة الحبلى بالفستق واللوز وعين الجمل ... الخ » .

□ ■ □

كنت بين نارين : أحلل أدب هذا الكتاب فى العمق ، أم أن أختار منه بعض ... القطايف ...

كتاب يقرأ من آخره ، أو من أوله ، أو من وسطه ، فهو فصول تجمعها وحدة الفكر والاحساس .. والتأويز، يتلون بأسلوب الكاليدوسكوب . وسواء قرات فصوله بالنظام الذى اختاره لها أحمد بهجت ، أو حسب مزاجك أنت .. فثق بأن الكتاب يأخذك « جر كسوة » .. فلا تعرف ان كنت تستلقى على قفاك ضحكا .. أو هائما فى الملكوت الأعلى ..

فى أسلوبه وميض المستقبلية ، وفيه ركيزة الماضى يشده اليها العشق الصوفى . راقبوا هذا الكاتب الشاب الناضج ، فهو منبئكم ذات يوم بالخبر اليقين ، يوم يتمكن من عزل « المهنة » عن ... الالهام ، مع ربط الصواميل! أشهد أن قد فرحت بميلاد كاتب ..

حسين فوزى

رؤية الهلال



كان أحد أجدادى الذين يعيشون فى عصر المماليك رجلا قد أدركته حرفة الأدب ، وكان يكتب خواطره فى الحياة بأسلوب المقامات القديم .. وقد ترك هذا الجد أوراقا متفرقة وقليلة .. من بينها ورقة صفراء تحكى عن رؤية هلال شهر رمضان فى ذلك الزمان ..

قال جدى :

« فلما جاء اليوم التاسع والعشرون من شهر شعبان ، استعد المصريون فى ذلك الزمان ، لاستقبال افضل الشهور وهو شهر رمضان ، ففيه على الاقل تسجن الشياطين ، ويقل ما يلقون من ظلم المماليك الحاكمين ، وفى وقت الإصيل ، بعد صلاة العصر بقليل ، خرج موكب الرؤية كالمعتاد ، وخرج لرؤيته كل الرجال والنساء والاولاد . وكان يتقدم الموكب فى طريقه الى جبل المقطم ، شيخ مهدم محطم ، يؤمن الجميع بأنه شيخ مطمطم ، وكيف لا وهو المصدر المسئول عن رؤية الهلال ، وهى وظيفة شريفة لطيفة وعال ، يتوارثها شيوخ أسرته من أجيال وأجيال .

والعجب العجاب ، أن هذا الشيخ المهاب ، كان لا يبصر ما تحت قدميه ، بسبب رمد مزمن أصاب عينيه ، واستفحل نتيجة لجهل والديه ، لكنه رغم ذلك العمى الأكيد ، كان قديرا على رؤية الهلال من بعيد ، وطالما انفرد برؤيته ، من دون كل أفراد فرقته ، فلم يسع الحكام الا الأخذ بشهادته ، واعلان بدء شهر الصيام ، بدون سلام ولا كلام ..

ويزول العجب ، اذا عرف السبب ، فقد كان الشيخ يستعيض عن نظره الضعيف المضعضع ، بعينى مساعد شاب له يتبع ويخضع ، فاذا رأى الشاب الهلال ، عرف هو منه ذلك فى الحال ، ثم ادعى منه لله ، أنه هو الذى رآه ، وصدق الكل دعواه ..

ويشاء السميع العليم ، أن يتغيب الشاب عن الموكب فى ذلك اليوم العظيم ، وكانت لذلك حكاية ولا كل الحكايات ، ليس كمثلها فى الماضيات ، ولا يظن تكرارها فى الآتيات ، فقد حدث قبل ذلك بأيام معدودات ، أن كان الشاب يسير فى احدى الحارات ، فوقعت عينه على احدى الفتيات البلديات ، ذوات الملايات . ولم تكن كأترابها من السمراوات الكثيرات، الممتلئة بهن الطرقات، بل كانت بيضاء كالفضة النقية ، أو طبق المهلبية ، وبدا له وجهها تحت ملايتها السوداء ، كأنه البدر فى الليلة الظلماء . وما كادت تبادله النظرات ، وترد على دهشته بالابتسامات ، حتى شعر بقلبه يحاول الهبوط الى رجليه ، وبعقله يطير فى الهواء مرفرفا بجناحيه، فلا عجب أن كاد يقع من طوله ، لفرط انجذابه وذهوله . وهل هو الا مصرى ككل المصريين ، اذ يقفون أمام النساء البيض خاشعين مبهورين ، فاللون الابيض عندهم هو لون الغزاة الفاتحين الحاكمين ، وان يظفر أحدهم بامرأة بيضاء فذلك هو الفوز المبين ، وبلوغ القصد والمراد من رب العالمين ..

ومن تبادل النظر والابتسام ، الى تبادل التحيــة والسلام والكلام ، الى التواعد على اللقاء بعد أيام ، وقع الاثنان فى حب نصفه وجد ونصفه هيام ..

ولسوء حظ المصريين التعساء ، كان التاسع والعشرين من شعبان هو اليوم المحدد للقاء ، فتغيب الشاب عن موكب الرؤية فى ذلك العام ، ولم يجد الشيخ بدا من الاعتراف بأنه عجز عن رؤية الهلال ، فتأخر الصيام يوما بلا نقاش ولا جدال . وقال المماليك للمملوكين : أنتم الكسبانون ، وقال المحكومون البائسون : بل نحن منحوسون ، أما الفتى العاشق المجنون ، وأما الفتــاة واسمها يبدأ بحرف النون ، فكانا فى شغل عما كان ويكون ، بالجلوس بين يدى الحب المكنون ، فى انتظار الجلوس بين يدى المأذون .. ولله فى خلقه شئون » .

... ...

... ...

... ...

انتهيت من قراءة الورقة القديمة وابتسمت ..

فى الازمنة السحيقة البائدة ، وفى الاعوام القديمة السالفة الماضــية كانت الاختلافات تثور بين فقهــاء المسلمين على رؤية الهلال ، هل يرونه بعين الشيخ أم يرونه بعين علم الفلك .. وهل تعتبر عين علم الفلك وهى بلا حاجب كعين الانسان رغم كونها بحاجب ، وهل لعين علم الفلك شرعية عين الانسان أم ماذا .. وتدور حول هــذه الــ « ماذا » آلاف التســاؤلات المنطقيــة المتمنطقة ، ويحتدم الجدل ويثور النقاش ويحمى وطيس الكلمات ، ويخيل الك أنك داخل مسرحيــة كوميــدية مضحكة ، ويزيد من فداحة الضحك أن يجرى ذلك بين

المسلمين ، وقد نزل دينهم بكلمة (اقرأ) ، وصرح رسولهم بأن مداد العلماء مثل دم الشهداء يوم القيامة ، ولا تكاد سورة تمضي من القرآن بغير أن توجه النظر الى آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ..

أدخن سيجارتى متأملا أفكر ..

جاء شهر رمضان أخيرا فمرحبا بأفضل الشهور .. اى ذكريات تعبر ذهن المرء وهو يجلس فى بيته فى انتظار الصيام .. أحس ان القاهرة كلها تدخل قلبى بمآذنها الألف وقبابها المزخرفة وأحيائها القديمة وحواريها العريقة . أحب هذا الشهر بمثل الوهج الذى أحببت به أول فتاة عرفتها فى حياتى . كانت رقيقة ونحيلة وترتعش حين تجهد نفسها فى الحديث . تكتسى بيوت المدينة فى شهر رمضان شيئا من الجلال والرقة . فوانيس رمضان تضىء أركان الدكاكين . والاطفال فى الطريق يضربون البمب . وقد استيقظت الحارة الكبيرة التى أسكن فيها تماما .. وأستيقظ معها فى قلبى شىء ..

مع كل وقفة لشهر رمضان ..

مع كل بعث جديد لهذا الشهر يستيقظ فى قلبى شىء.. شىء لست أدرك كنهه أو أعرف حقيقته . .شىء يشبه عذوبة الحب الاول ، أو يشبه غموض الايام القلقة التى لا نعرف فيها هل وقعنا فى الحب أو نتوهم ..

أحس فى الليلة الاولى من شهر رمضان أننى أرى من خلال النفس كل نفوس الآخرين فى الوجود .. وينمو داخلى الحنين فأود أن أعثر على النملة التى كلمت سيدنا سليمان لأقبلها ، وأتمنى أن ألقى الحوت

الذى ابتلع يونس لأربت على رأسه ، وأحلم أن أجد الحمار الذى بعث أمام عزير لأحمله على ظهرى ، وأفكر عبثا فى قبر الهدهد الذى حمل الرسالة لبلقيس وعاد ليحكى لسيدنا سليمان عن عبادتها للشمس .. أين يقع قبر هذا الهدهد .. أى روعة أن يبعث الهدهد لنتحدث قليلا عن عبادة الشمس ..

فى بدايات شهر رمضان أحس نحو الكائنات ، كل الكائنــات ، بالحب .. وأحس بالرفق والضعف ازاء قصص الحب الانسانية والحيوانية والنباتية والجمادية .. ويملؤنى ادراك للعلاقة بين تنهد القمر ومد البحر وجزره ، كما أفهم سر الهوى المتبادل بين زهرة عبــاد الشمس التى تحول وجهها نحو أمها ، حتى يجىء الليل فتنكس عنقها وتنام ..

فى شهر رمضان .. أشعر بأن كل شىء فى الدنيــا يقوم على الحب ، هو الناموس المسيطر الحاكم فى الدنيا .. وان أفسده الناس بالكراهية والرحيل .. ويكبر الاحساس بالحب فى نفسى .

ثم تعيذنى الى الواقع أصوات زوجتى وهى تمارس قيادتها فى المطبخ استعدادا للسحور ..

مدفع السحور



بعد ساعتين ينطلق مدفع السحور .

اصاب زوجتى نشاط مفاجىء حين اعلنت اشارات ضبط الوقت منتصف الليل . أطفئت أنوار الصالة واضيئت أنوار المطبخ . اشتعلت عيــون البوتاجاز الاربع ، وراحت أشياء تطقطق فى الحلل .. عما قليل ينتهى اعداد السحور . البيت كله مستيقظ وفى حالة استعداد قصوى للطعام ..

ــ رمضان كريم ..

قالتها زوجتى وهى تمرق من الغرفة فى طريقها الى المطبخ .. أحدث مرورها تفريغا للهواء فى الغرفة فكدت أنقلب من مقعدى على الارض .. حمدا لله فقد كانت الشبابيك مفتوحة . فى تصورها أن رمضان هو شهر الطعام الوفير والحلوى الزائدة والغرائم والعزائم ..

يجب أن انظم حياتى فى شهر رمضان . ان الفرصة المتاحة للذنوب العظيمة التى يرتكبها المرء كل يوم يمكن أن تتبخر فى هذا الشهر الجميل الذى يفترض فيه أن نحس بالحرمان .

ــ والنبى لانت واكل طبق الرز ده .. حلفتك بالنبى .

قلت فى سرى .. عليك الصلاة والسلام يا رسول الله . ومددت يدى الى طبق الارز المخلوط . بعدها توالت توسلات الاسرة أن آكل هذا النوع من اللحم ، ثم أذوق هذه القطعة من الدجاج . ثم أنتنى لهــذه الصينية من الكنافة .. وفى كل مرة كان ذكر الرسول

يتردد فى الحديث فأمد يدى بغير تردد .. وتذكرت وأنا أملأ معدتى كيف كانت زوجة النبى عليه الصلاة والسلام تعيش بالاشهر وهى لا توقد النار فى بيتها .. وكيف كان طعامه الخبز الجاف المغموس فى الزيت . وكيف عرف أحب خلق الله وأكرمهم هذا الجوع النبيل الذى يدفع المرء مباشرة فى قلب الوجود ويجعله يرق للعباد ، ويحنو عليهم ، ويشعر بأقسى آلامهم .

انتهى السحور بغير اصابات .. عدت الى مقعدى محطما تماما وان زعمت بالبلاغات غير ذلك . عدت بعد السحور غير قادر على أن أحسّ بالحب أو الهوى ، وانطفأ داخلى هذا الوهج الذى انبعث للحظات ، ولم يعد هناك شىء يشغلنى غير هذا الثقل الكائن فى المعدة .

سألت نفسى كمصرى ، لماذا آكل اذا جلست للطعام كمن يأكل فى آخر زاده ؟ هل هو جوع القرون الاولى من حيـاة المصريين . هل هو اعتيادنا ظلم الحاكم الذى يمد يده لطعامنا عادة قبل أن نمد أيدينا اليه . ان مصر أعظم بلاد الدنيا خصوبة وعطاء ، بل لعل مأساتها الاولى أنها تقدم عطاءها بغير جهد ، لكن خيرها يذهب لغيرها كما تقول الامثال الشعبية ..لماذا اذن لم نزل نأكل ان جلسنا للطعام كمن يأكل فى زاده الاخير ..

خرجت الى الشريط الضيق الذى نطلق عليه اسم الشرفة ورفعت رأسى للسماء . لم أر شيئا غير النجوم والسحب ..

النجوم تومض بأبعادها السحيقة فى الكون .. وثمة

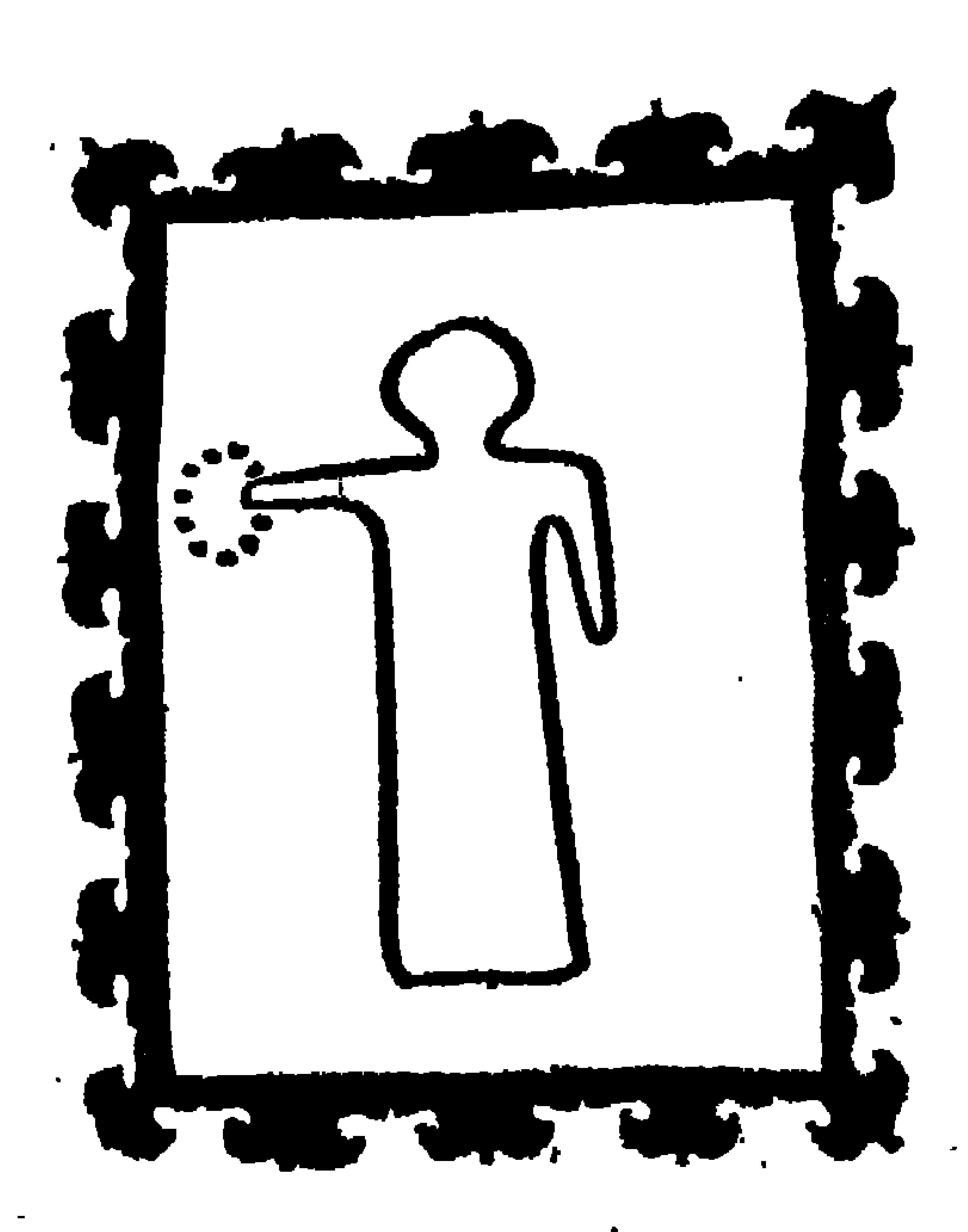
سرب من السحب التى تشبه النذر الغامضة ينــدفع أمام رياح شهر نوفمبر الباردة .

أحسسـت بالبرد فغادرت الشرفة ..

جلست أقرأ قليلا قبل ان أنام .. ثم غلبنى النوم ..

نمت قبل أن أشرب ..

رمضان کریم



استيقظت فى الثامنة على عطش شديد ملح ، نظرت فى ساعتى وأدركت أن صلاة الفجر قد فاتتنى . سأصلى الفجر غدا حاضرا لو كان لنا عمر . لماذا أذكر الآخرة هذه الايام . أخرجت « المسبحة » من الدولاب ونفضت عنها التراب وامسكتها فى يدى . تأملت نفسى فى المرآة قبل أن اهبط . اطمأننت على مظهرى الرمضانى وهبطت السلالم .. التراب يملأ السلم ، وعم عبد العزيز البواب يقف أمام البيت وفى يده (المسبحة) ، قلت له أن التراب يملأ السلم وعما قليل سيتراكم ويدفننا تحته ، فابتسم ابتسامة عريضة وحرك المسبحة فى يده وتمتم :

ـــ رمضان كريم .

قلت له (الله أكرم) وانسحبت .. هزمنى الرجل ، طوال العام وهو يجلس على دكته الخشبية أمام العمارة ، ولا يكاد أحد السكان يستدعيه حتى ينهض من مكانه ويرفع يديه بالتكبير وينخرط فى صلاة عميقة . ولا يجرؤ أحد السكان على ازعاجه أو مساءلته أو توجيه العتاب اليه فهو يصلى ، ثم جاء شهر رمضان ، وثبتت حقوقه فى الصلاة بشكل نهائى وقاطع . وزاد على حقوقه حق جديد .. هو ترك السلم بغير كنس أو مسح . اسير فى الحارة منذ دقائق . الحارة كما هى لم تتغير ، برزت على صورتها عدة اشياء جديدة . منضدة خشبية قذرة عليها ستة براميل للطرشى ، وفوانيس رمضان تتدلى من دكان الخردواتى ، وثمة لافتة من القماش تضم تهنئة لسكان الحارة الكرام بحلول الشهر الفضيل ، وتحت هذا السطر توقيع لرجل ، تذكرت صاحب اللافتة ، انه مرشح الحى الذى سقط فى الانتخابات

أكثر من ست مرات ، لم ييأس الرجل بعد ، وهو ينتهز فرصة دخول الشهر العربى او راس السنة أو شهر رمضان أو العيدين ليهنىء الحارة ويذكرها باسمه. سرت فى الحارة . بقع الاتربة تصنع تلالا صغيرة . يبدو أن الكناس صائم كبواب بيتنا ، سألت نفسى : هل يصوم الكناس طيلة العام ، منذ سنوات لم تكتحل عينى بمشهد كناس ، هل تحولت البلدية الى مجمع للزاهدين والصائمين الذين الهتهم الآخرة عن الدنيا بكل ما تضمه الدنيا من شوارع واتربة ومطبات ومسئوليات .. أخيرا ظهر الكناسون .. انهم يكنسون أشد شوارع القاهرة نظافة ..

ركبت الترام ، كان مزدحما كعادته ، الركاب صائمون والكمسارى صائم ولا أحد يدخن . لا أعرف علاقة الصوم بسمع الانسان وثقله . سأل الكمسارى احد الركاب عن تذكرته ثلاث مرات . ثم صرخ فيه أخيرا فقال الراكب : أنت حتقطعهالى مرتين .. ما أنا واخد تذكرة من دقيقة . قال الكمسارى : طيب وريها لى . دهشت في نفسى لانعدام الثقة بين الناس ، لاحظت أن الكمسارى لا يقطع التذاكر بطريقته التقليدية ، عن طريق بل اصبعه بريقه ، كان ريقه ناشفا من الصيام ، وقطع تذكرتين معا ثم أعطاهما لأحد الركاب ثم اكتشف خطأه فانتهر الراكب وشخط فيه .. سيدة عجوز معها قفة ضخمة مغطاة تحاول الركوب . سألها الكمسارى بصلف وكبرياء غريبين : انتى رايحة فين بالقفة دى ؟ ثم رفض تماما أن يسمح لها بالصعود .. تأمل الركاب هذا المشهد ، ولم يتحرك أحدهم لنجدة العجوز ، بعد أن سار الترام همست للكمسارى أن تصرفه خاطىء ..

قال لى بدهاء وخبث انه يراعى أمثالى من البكوات كى لا تتلف القفة ملابسنا ..

لم اعرف كيف أرد على المنافق .

وصلت الى المصلحة . تأملت فى طريقى الى المكتب بوفيه المصلحة ، أحسست بحقد شديد وراحة . السرقات المستمرة التى كانت ترتكب فى وضح النهار سوف تختفى اليوم . أجلس فى حجرة تضم ستة مكاتب . أنا الرئيس على راس الحجرة ولى رئيس فى حجرة ثانية . ولنا معا رئيس فى حجرة ثالثة . معنا شاب فى الثلاثين لا يصوم ابدا ، ومعنا زميل مسيحى جاملنا ورفض أن يدخن أو يشرب الشاى ، وحين أراد أن يدخن استأذننا فسمحنا له وكان تعليق زميلى الشاب ان قال : أيوه دخن يا اسحق افندى خلى البهوات تشم الدخان وتسلى صيامها . آذتنى الملحوظة فقطبت . ما أغرب شباب هذه الايام . ان الأدب الذى تعلمه جيلنا الذى شارف الأربعين لم يعد له وجود . أحسست بالعطش وكوب الشاى يدخل للمفطرين بالحجرة ، تحركت كل أشجار البطاطس والارز فى معدتى وتحرك الفول يطلب الارتواء . عكفت على الملفات أمامى وحاولت أن أركز ، كنت أقرأ السطر مرتين من بدايته الى نهايته .. ثم أعود لقراءته من نهايته الى بدايته .. وكان ذهنى يسبح فى آفاق بعيدة لست أعرف مكانها على وجه التحديد .. وكثرت أكثر وأنا اقرأ .. اكتشفت أين يسبح ذهنى . انها السجاير اللعينة .. ان حبا عظيما دونه حب قيس لليلى يسبح حول أشجار الدخان . اريد أن أدخن . دخان السجاير يتصاعد الى الغرفة من

وملائنا المنظرين ، واكواب الشاى الساخن الجميل تصنع ديكورا شديد الجمال وسط حرماننا الموحش .

احسست أننى سأموت من العطش ، وقلت فى نفسى لو مت اليوم فسوف يضيع على الشهر كله ، ولو أفطرت ضاع اليوم وبقى الشهر .. ثم تراءت لى الجنة بأنهار الخمر واللبن والعسل . فقررت أن أصبر . وقطبت وجهى وصبرت ..

... ...

... ...

قال العمدة الريفى الشيخ وهو يمسح لحيته بعد أن أنهى طبق العسل أمامه :

ـ متعكم الله بالجنة ونعيمها ..

وراح يتصور أنهار الخمر والعسل واللبن .. لن يهتم بأنهار اللبن أو الخمر .. اختصاصه أنهار العسل فحسب .. سيغطس فيها الشيخ بجبته وقفطانه ويشرب منها حتى ينتفخ بطنه ويطفو على السطح ، لكن الجبة والقفطان سيتلوثان بالعسل وليس لديه غير هذه الجبة ، ويقول له صاحبه هل نسيت انك فى الجنة وان عندك ما تشاء من الجبب والقفاطين .. ويضحك الشيخ ويعيد نفسه بالخيال الى نهر العسل .. ما اغرب أصنافا ممن ينتمون الى الاسلام بالاسم ..

كان لى صديق سكير ، وكان يقول لى :

ـ تعرف أى شىء يحزننى لاننى لن أدخل الجنة .. أنهار الخمر .. تصور أن الزجاجة التى نأتى بها كل يوم

تنفد قبل أن نعمر الطاسة أو نبدأ المتعة أو نسكر .. تصور نفسك أمام نهر من الخمر ..

واحاول أن أقول له أن أنهار الخمر والعسل واللبن ليست انهارا للخمر او العسل او اللبن الذى نعرفه فى الارض . الجنة غيب لا نعرف عنه شيئا ، وهى تحمل أسماء أشياء فى الارض .. لكنها لا تشبه أى شىء نعرفه فى الارض .. أراد الله تعالى أن يقرب صورتها للحواس البشرية ، وأن يلفت اليها أمثالك من الدواب ، فأطلق عليها أسماء لاشياء نحبها فى الارض أو نعرفها فى الارض .. ثم أوضح الرسول الكريم ذلك فقال :

« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

واذن ، ضاعت أحلام صديقى السكير والشيخ النهم وكلاهما وجه لعملة واحدة هى انسان هذا الزمان .. أو مسلم هذه الفترة ..

وما أبرىء نفسى ..

مثلهم تماما أنا ، عقلى يضيق أحيانا فلا أفهم الا لغة الحواس وتخرس الروح داخلى تماما ..

الفقه المکتبی



اشتغلت مثلما أشتغل كل يوم فى المصلحة ..

أعمل فى الحكومة موظفا فى الدرجة الثالثة .. أنطوى على احساس بأننى جعران فرعونى .. يزداد سعرى كلما تقادم العهد على .. ينحصر عملى فى امضاء أوراق كثيرة .. وكل عملنا لا يزيد على امضاء الاوراق وترحيلها لتسير فى طريق طويل تحفه الامضاءات من جانبيه ، ثم تعود الى لأوقع بالاستلام والعلم ، ما أغرب العمل فى دواوين الحكومة ، يدخل المرء المدرسة ثم يشقى ويسهر ويتخرج ، بعدها يدخل الجامعة ثم يشقى ويسهر ، بعدها يخرج الى الحياة كى يوقع بامضائه .

اذكر أيام كنت طالبا بالثانوى انى كنت أجرب هوايتى فى الامضاء ، وكانت هوايتنا المشتركة كشباب أن نحضر ورقة وقلما ونوقع بامضائنا .. مرة ومرة ثانية وثالثة وعاشرة .. مينا نارمر هو المسئول عن ذلك .. هو أول ملك وحد الوجهين القبلى والبحرى .. بعدها بدأ عصر الامضاءات .. اكتشف قدماء المصريون نبات البردى قبل غيرهم ، واكتشفوا الحروف الهجائية فى تاريخ مبكر ، وتعلموا الكتابة قبل غيرهم من الشعوب ، من يومها استخفهم الفرح بما اكتشفوه فأصروا على استخدام الاوراق فى كل شىء ، وانتقل ذلك الينا فيما انتقل من ميراث .. فصار التوقيع بالامضاء تقليدا حكوميا وهواية مصرية ..

كل شىء فى الحكومة يمضى بالاوراق .. أوراق تذهب وأوراق تجىء .. امضاءات تضاف وامضاءات للتصديق على الامضاءات ..

سلسلة طويلة تلخصها أغنية الشاعر المصرى العظيم

فؤاد حداد .. كتب الاغنية لنـــا كى نغنيها فى أوقات الفراغ من الامضاءات ..

لا الدم ولا العرق
ولا فلاح عـــزق
ولا حـــداد طرق
يا سيدى المواطن
الرك على الورق

... ...

يا كراسى يا مراسى لمراكب التاريخ
والقعده المطمئنه فى دنيا ترخ الصواريخ
والزلزال المزلزل
ييجى لعندك يكسل
عسل يا عقلى عسل
أنا وانت فى النـــدى
سهينى وعينى نايمـــه
غلطنى فى جمع قايمـــه
واكتب لى ماعـــدا
السهو أو الخطـــأ

... ...

عن نوحى عن سنوحى وفلاسفة الزمان
لا قامت انسانية ولا تم الهيلمان
ولا اتبنت حضاره
الا على الادارة
واللايحه المستشـــاره
والفقـــه المكتبى
بمنتهى الجـــداره
آخـــد مرتبى

وبنظره واحده أعرفة
ابنك طالع موظف
ولا طالع غبى
من أول ما اتخلق

... ...

انتهى عمل اليوم فى المصلحة . فتحت الملفات ، واغلقت الدوسيهات ، واعطيت المرؤوسين احساسا بالتقصير ، ومنحت الرؤساء احساسا بالكمال ، وخرجت أعبث بحبات المسبحة . أسير فى شوارع القاهرة مع أحد رفاقى فى المكتب ، نسلى صيامنا كما يقولون فى الامثال ، نتفرج على الناس بسهوم الصائمين ونحدق فى الاشياء بغير ثبات . تغير المنظر أمامنا فجأة . خرجت من أحد الشوارع الجانبية فتاة ترتدى المينى جوب ، الجونلة الصغيرة سوداء والفتاة الطويلة بيضاء . والتناقض بين الاسود والابيض ينبه الحواس . انتبهت حواسى رغم ارادتى . كنا نتسكع بغير اهتمام ونسير على مهل ، فلما شاهدنا الفتاة تسرع فى سيرها ، زدنا من سرعتنا بغير أن نشعر ، أشحت بوجهى عن الفتاة وأنا أستغفر الله ، ثم عادت عينى تنسرق نحوها وأنا أستغفر الله أيضا . ما أغرب هذا الشعب .. يخرج اللص على ضحيته وهو يسأل الله الستر والنجاح ، تعطى الشريعة لك حق النظرة الاولى .. ربما يكون الشىء الذى خرج من الشارع الجانبى أسدا سيأكلك ، من حقك أن تنظر لتطمئن . النظرة الاولى لك والثانية عليك كما يقول الفقهاء . النظرة الثانية هى التى تخضع لقانون العقوبات الالهى .. هـذه النظرة الفاحصة المتأملة المتأنية الدارسة التى تتسكع هنا وهناك وتجمع المعلومات وترتب المقدمات وتستخلص النتائج ثم تشيع

بعدها فى الوجه ابتسامة خبيثة . كان صديقى الصائم مثلى قد ركز عينيه الحمراوين من أثر الصيام على المنظر أمامه واستغرق فى التأمل . لاحظت أننا نغذ السير ونحرك أيدينا ونحرك السبح بشكل أسرع . قطعا يبدو منظرنا مضحكا .

قال لى : طار صيامنا .

قلت له : ليس لصيامنا أجنحة .

وعدنا نتأمل جسد الفتاة الشاحب الابيض الذى يشبه المرمر ، ولاحظت خلال سيرنا أن عدد الذين يتتبعون المينى جوب يزيد مع الوقت . كل واحد من السائرين فى الطريق كان يتلفت حوله ، ويتأمل يمينه ويساره ، ويتظاهر بأنه ينظر هناك ، ويطمئن على أن أحدا لا يراه ، بعدها تتسرق عيناه وتموت نظرته عليها . كنا جميعا نمشى بنفس سرعة الفتاة .. نحتفظ بالمسافة بيننا وبينها ثابتة . منظر طبيعى من الشارع ، لكن من سطح أى منزل يختلف منظرنا تماما ، ومن السماء يختلف المنظر أكثر ، سيقول الملائكة بامتعاض أن سربا من الصائمين يسير وراء فتاة ترتدى المينى جوب ، توقفت المينى جوب فجأة أمام فترينة . حدث خلل مفاجىء فى السرب الذى يتبعها . اضطربت خطوات البعض وأبطأت خطوات الآخرين . أما صديقى وأنا فقد ظللنا على سرعتنا فسبقتنا الفتاة . وحمل الهواء الينا رائحة عطرها الغريب .

قال صديقى وهو رجل أعزب فاته قطار الزواج :

ـــ سوف أتزوج ذات يوم فتاة من هذا النوع .

قلت له :

ـــ هذا النوع مثل قمز الدين يحتاج الى العملة الصعبة .

وعدنا نتسكع .. عادت نظراتنا تزيغ منا وتتشتت فى الفضاء .. عدنا نحدق فى الاشياء بسهوم الصائمين .. بعد دقائق شممت بأنفى رائحة طعام أشبه ما يكون بمحشى ورق العنب الجيد .. قلت لصديقى :

ــ الا تشم شيئا ؟

قال : أشم رائحة لحم مشوى ..

قلت : غريبة .

قال : تشم نفس الرائحة .

قلت : ليست نفس الرائحة . قل لى . هل هناك محل قريب للطعام فى هذا الشارع ؟؟

قال : أبدا .

الشارع كله يمتلىء بالمحال التجارية على الجانبين وليس فيه مطعم واحد ، لم تكن هناك بيوت يسكنهـا ناس فوق هذه المحلات . هناك مكاتب . ما معنى هذا ؟ بدأت أشك فى حاسة الشم عندى . أيمكن أن تصنع رغبتنا فى الطعام وهما يصل الى حاسة الشم فيقنعها بوجود شىء لا وجود له . لا أعرف ..

لم نزل نسير ، نظرت فى ساعتى ، **قال صديقى :**

ــ نمر على الجامع ونخطف ركعتين لله .

ترددت الكلمة فى وعيى بغرابة .

نخطف ركعتين لله . يرتكب الناس ذنوبهم باتقان وتأن ورسم سابق وخطط محكمة واعداد قديم ، فاذا تعلق الامر بالخالق خطفنا له ركعتين .

كان المسجد شبه خال حين دخلنا . الساعة تقترب من الرابعة . وحارس المسجد يجلس جوار دولاب الاحذية المكشوفة الخالى . امسك كل واحد منا حذاءه كى لا نعطى الرجل قرشا ودلفنا الى الداخل . ماء

الوضوء منعش والهواء جاف فى صحن المسجد وهناك عدد لا بأس به من النائمين جوار الجدران .

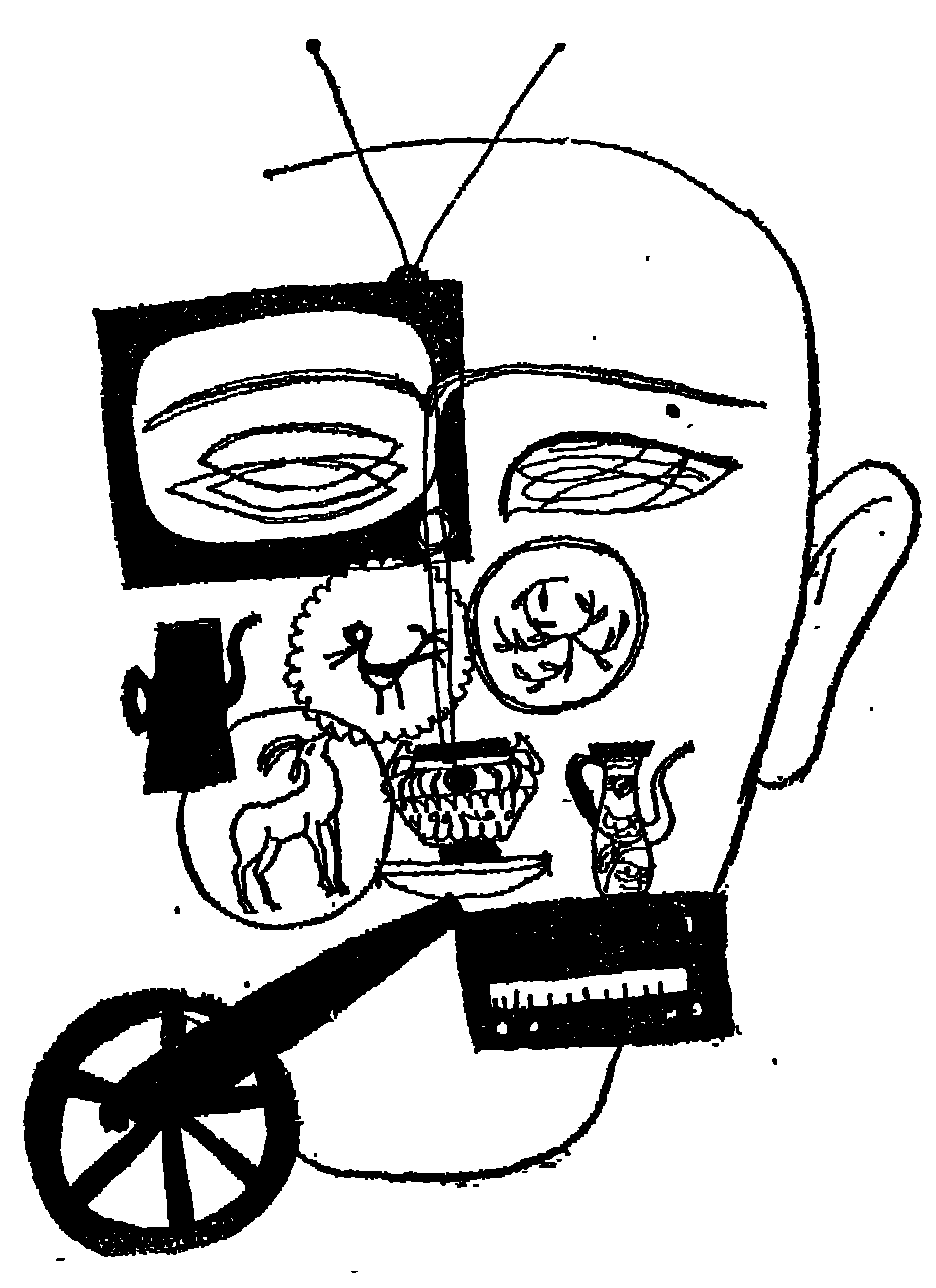
الهواء طيب حقا ويدفع الى النوم . الله أكبر . بسم الله الرحمن الرحيم . قرأت الفاتحة وسورة صغيرة ثم ركعت . استقمت وحمدت الله وسجدت . كنت أتمتم بكلمات الصلاة وذهنى نصف مشتت . سبحان ربى العظيم .. سطعت فى ذهنى الدرجة الثانية التى أسعى لها منذ ثلاث سنوات .. سبحان ربى الاعلى . فكرت فى زميلنا البليد الذى نالها قبلى وتعداها وصار وكيلا للوزارة . سمع الله لمن حمده . سمعت صوت كلاكس سيارة عابرة ، وتحسرت أننى لم أشتر سيارة الى اليوم . التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . نسيت أين وضعت علبة السجائر ، على الكومودينو أو فى درج المكتب . سبحان ربى الاعلى نسيت أن أحضر لزوجتى لفة قمر الدين .

حدث لى شىء غريب وأنا ساجد . لم أعرف هل هذه هى السجدة الاولى أم الثانية . لو كانت السجدة الاولى فعلى أن أسجد مرة ثانية . ولو كانت الثانية فهل أسجد ثلاث مرات . فكرت قليلا ثم قررت أن آخذ بالأحوط وأسجد .. كنت ابذل مجهودا حقيقيا للتركيز وعدم السهو والسرحان ، ولكن ذهنى كان يمتلىء بتيار جار وسريع من المشاكل والافكار والمشاغل .. انتهيت من الصلاة فسلمت ثم أمسكت السبحة ورحت أسبح .

سبحان الله . الحمد لله .. تذكرت أين وضعت علبة السجاير . وجهزت فى ذهنى ما سأقوله لزوجتى عندما تسألنى عن قمر الدين .

صعد الانسان الى القمر .. ونزلنا نحن لقمر الدين.

مدفع الإفطار



لم أكد أفتح باب منزلى حتى استقبلتنى سحابة ضبابية من روائح الشواء والمسلوق والمحمر والحلوى .. مسحت شفتى الصائمتين وابتسمت . زوجتى فى غرفة القيادة فى المطبخ ، شمت زوجتى رائحتى رغم روائح التقلية فأسرعت ترحب بى . نظرت فى وجهها الطيب ونظراتها المنكسرة ، ونقلت بصرى لمائدة الافطار وقارنت بينهما معا وبين صاحبة المينى جوب ، وجدت زوجتى أثقل فى الميزان وأفضل . قطعا لا تعرف صاحبة المينى جوب كيف تسلق بيضتين . جاءت زوجتى مباشرة من الريف الى بيت الزوجية .

تعتبرنى زوجتى أهم موظف فى الحكومة المصرية .

تعتبرنى الحكومة ذاتها . وتؤمن أننى أشجع الناس وأعظم الناس وأحكم الناس ، وهى تشبه زوجة خرجت من القرن الماضى بكل فضائله .

نحن فى انتظار مدفع الافطار .. أكبر أبنائى ينظر فى ساعة الحائط ويكاد يدفع بنظراته عقارب الساعة .. تأملت مائدة الطعام . على المائدة أهداف استراتيجية كاللحم والبطاطس ، وأهداف تكتيكية كالفول والسلطة ، وثمة أهداف تكميلية كالكنافة والقطايف . كمية الطعام هائلة وتؤكد ان رمضان كريم . لا نطهو بغير السمن البلدى فنحن قوم محافظون ، استخدمت زوجتى السمن

الصناعى يوما فكدت أطلقها . انطلق مدفع الافطاروبدات العمليات العسكرية .

رحت أرقب أبنائى وهم يأكلون بحب . أصغرهم وأقربهم من قلبى يجلس مشموما لا يأكل ولا يشرب . أمرته أمه أن يأكل ثلاث مرات فلم يستمع ، فلما أمرته أنا مد يده الى الطعام فقالت أمه :



ــ لا يخاف الا منك ربنا يخليك ..

سررت من دعائها ومددت يدى الى ثلاث بلحات جافة تضعها زوجتى على المائدة .. هذه البلحات الثلاث تذكرنى بطعام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعودت أن أفطر على البلح عملا بالسنة ..

وسط مائدتنا العامرة تبدو البلحات الثلاث غريبة ولا تكاد تظهر ، هذا ما بقى من الاسلام فى بيتنا ، ذكرى صغيرة على موائد الطعام . تذكرت أفضل خلق الله

وكيف كان يصوم وكيف كان يفطر . شهر رمضان عند المسلمين الاولين كان شهرا نزل فيه القرآن ، وكان شهرا يتخفف فيه البدن من البدن . وتلتقى فيه الرحمة بالاخلاص بالجوع بالحب ، وكان شهرا تعاود فيه الروح اتصالها بخالق الروح .

انتهيت من الطعام .

كادت روحى تزهق .. أحسست بوخم شديد ورغبة فى النوم .. لم أكد أدخل غرفة النوم حتى دخلت زوجتى الغرفة .. ومعها طبق القطايف والكنافة . عبثا تبحث عن الكنافة والقطايف فى صدر الاسلام ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا شبع يوما استغفر الله لأن فى المسلمين جائعا لم يشبع ، وكان عمر يقول :

ـ والله لو عثرت شاه بأرض مصر لخشيت أن يسأل عنها عمر يوم القيامة .

كان عمر يعتبر نفسه مسئولا عن أى مطب فى أى شارع من شوارع المدن التى تنتمى لدار الاسلام ، وهو يعتبر نفسه مسئولا لو انكفأت بسبب هذا المطب « عنزة » نظرها ضعيف .

دخلت الكنافة والقطايف تاريخ المسلمين حين خرج الحب من القلوب ، وصار الاسلام سبحة معطلة وفانوسا أثريا وكلمات تتمتم بها الشفاه وتنقطع صلتها بالارادة .

تعبت من الأكل فاتكأت فى الفراش ورحت أدخن .. ثمة دوار يشبه دوار الحب الأول . أبنائى يجلسون جوار جهاز الراديو ، وعما قليل يفتحون التليفزيون .. وكمية الضجيج الغريب الذى يبعثه هذان الجهازان لا تدانيها كمية فى العالم .

وعدت أحاول النوم عبثا . ثم دخل الغرفة أصغر أبنائى .. كان يمسك بيده كتاب الدين .. وكان يبدو عليه الوقوع فى مشكلة من نوع ما ..

ادنيته منى وقبلته وسألته :

ــ عاوز ايــــه ؟

قال فجأة : احنا بنصوم ليه ؟

فاجانى السؤال فقلت : عشان الاغنيــا تحس بجوع الفقرا ..

قال : طيب الفقرا يصوموا ليه ؟

فاجانى السؤال .. هذا هو السبب التقليدى للصوم كما علموه لنا . وهو سبب غير صحيح .. لماذا نصوم . ان الصوم فى حقيقته نوع من الحب . هو العبـــادة الوحيدة التى لا تظهر على صاحبها فى شكل طقوس أو حركات ، ولهذا كان العارفون بالله يبللون شفاههم حين يخرجون على الناس صائمين ، فالصيام صلة بين العبد والرب ، وهو صلة داخلية كسر من أسرار الحب يموتلو أعلنا عنه ، كانوا يصومون عن الدنيا رغم قدرتهم عليها وتحكمهم فيها ، وكانوا يصومون عما سوى الله حياء منه وشوقا اليه ، وكانو يمتثلون لامر الله فى الصوم رغم عدم فهمهم لحكمته ، مثلما يمتثل المحب لامر حبيبه ولا يسأل . كانوا يا ولدى الصغير يتصورون أن كمال الحب أن تطيع ولا تسأل عن حكمة الاجراء وموجباته .. ذهب هذا الزمن الطيب وجاء زمن الصيام الذى نصوم فيه لنسهل عملية ابتلاع الكنافة والقطايف ..

درس العصر



سألت شيخ المسجد اليوم :

ــ هل يفطر ركوب الاتوبيس فى رمضان يا مولاى ؟

أزاح الشيخ عمامته الى الخلف ، وحك رأسه بيده ، وظهرت على وجهه علائم التفكير والحيرة ثم أجاب :

ــ الافضل الا تركب .. لقد أباح الله لحم الخنزير عند الاضطرار فهذه رخصة ، وليس فى الاتوبيس نص صريح ولا عرفى ، واغلب الظن أن هذا كذلك والله أعلم، ولعله مثل لحم الخنزير رخصة ، فمن شاء ركب ومن أراد اكتمال دينه ترك .

بارك الله فى الشيخ . أسندت ظهرى للعمود الرخامى فى المسجد ورحت أتأمل الجو حولى . تنام الناس اليوم فى المسجد وتقرأ فيه الصحف . وفى صدر الاسلام كان المسجد مدرسة عليا وغرفة قيادة لأفراد الأمة . خادم المسجد يطوف على النائمين بمقرعته وهو ينادى .. اصحى يا حاج . قوم يا أسطى . انهض يا سيد . قزا يا ولد . لكل واحد نداؤه الخاص به . لكل واحد نداؤه حسب وجاهته وهيئته ومنظره . لكل واحد نداؤه الخاص الذى يليق بمقامه السنى أو الزرى .

ميعاد الصلاة يقترب والصحف فى يدى ولم أقرأها بعد . رحت أقلب صفحات الدين فى الجرائد . لم يكد هلال شهر رمضان يظهر حتى ظهرت فى ركابه صفحات الدين مثل فوانيس رمضان . جاملتنا الصحف فى شهر رمضان وقدمت كل جريدة منها صفحة للدين . موسم

من مواسم الدين فاذا انتهى الشهر الفضيل عدنا وعادوا الى حوادث الرجل الذى ذبح زوجته ، والمرأة التى خنقت عمها وأكلت زوره .

أساء الينا الذين علمونا الدين بهذه الطريقة ، أذكر حصص الدين أيام المدرسة الثانوية ، كانت حصة الدين أجمل الحصص وأحلاها ، كانت هى الحصة السادسة ، والحصة السادسة حصة وهمية مثل الساعة الخامسة والعشرين . آخر حصة بعد أن نأكل ويدركنا الوخم . وكان أستاذ الدين يدخل ويكتب على السبورة « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم يكتب تحتها « حصة الدين » ثم يأمر بفتح كتاب الدين ثم يقول :

— اللى حيرفع حسه حقطم رقبته .. كل واحد يقرا فى سره .

بعدها يضع رأسه على المائدة وينام ، وكانت حصة الدين هى حصة النوم واللعب والحواديت والضحك والانشغال بآلاف الاشياء التى لا علاقة لها بالدين . وكان مدرس الدين يظل نائما ، فاذا زاد الفصل فى الهيصة فتح عينيه ورفع رأسه ولعن آباءنا فنصمت .. فاذا عدنا الى الصمت عاد هو الى النوم .

وفى آخر السنة كان كل واحد منا يأخذ فى الدين عشرة على عشرة ، بالنسبة لعقولنا الصغيرة . كنا نفهم أن الحكومة قد قررت تدريس الدين . ولكن الحكومة لا تأخذ الدين مأخذا جديا . بل لعلها تخاف ان بعثت روحه أن تقضى عليها هذه الروح . ومر الوقت وتطورت نظرتنا الي الدين ، صار علما أساسيا فى المدارس فيه امتحان وسقوط ولكن نظرتنا اليه ظلت كما هى ، ظللنا بعيدين تماما عن حقيقته ، لا نلجأ الى الله الا فى

الازمات . لم أكن أصلى إلا قبل الامتحان، وكلما واجهتنى مشكلة هرعت الى الله ، فى وقت الرخاء والنعيم لا أسأل ، فاذا وقعت فى مطب صرخت يا رب . كم نتعامل بأسلوب البقالين اليهود مع الله . ندفع القرش للشحاذ ونقول نريد القصر فى الجنة يا رب وكل غرفة تطل على الواجهة البحرية ناحية أنهار اللبن والعسل . سطعت فى ذهنى صورة لبيرم التونسى . كان له رأيه اللطيف فى أحوال العبيد وعلاقاتهم بالتعبد والصلاح ، بينما تحجب مظاهرهم كثيرا من الغايات والاغراض :

يا رب سلطان حمالك يتعبد للذات
خالص لوجهك لا للنيران ولا لجنات
لكن عبيدك وخلقك يعبدوك لغايات
صبحوا وانا عبد منهم كلهم ترسات
التاجر اما افتقر صلى وصام الفرض
والعمده لما اترفد جالك وقع فى العرض
والقطن لما انحرق صاحبه سجد عالأرض
وكلهم عالعباده يطلبوا حسنات

عما قليل ننهض الى الصلاة ..

سأظل مربوطا فى الجامع فقد حدثنى يوسف أنه سيحضر لفة قمر الدين الى المسجد ، يا ترى أى شىء أصابه ، هل سيجىء بها أم يظهرنى كاذبا أمام زوجتى ورعيتى .. استعذت بالله ورحت أعد عدد حبات الكريستال فى النجفة الكبيرة فى المسجد ، قررت أن اسلى صيامى بهذه الطريقة ، انزلقت مع الاغفاء . لا أعرف كم من الوقت نمت . .متى يهبط الانسان الى قاع النوم، وما هو سر الاحلام التى يراها المرء فى نومه . لا أدرى هذا . كل ما أدريه أننى رأيت حلما غريبا . رأيت نفسى

اركب مركبا بمجدافين صنعا من السكر . وأعبر مياها زرقاء داكنة . ذاب المجدافان بعد دقائق فى البحر الملح . بدأت المياه تنخفض فى البحر .. هبط القارب الى القاع . قفزت احدى الاسماك من القاع الى القارب ، كدت اصرخ من الرعب . قالت السمكة : أنت آثم فى حقها ، وأشارت بذيلها الى الشاطىء الآخر . ألفيت زوجتى تقف على الشاطىء الآخر وهى تبكى وتطلب احضار لفة قمر الدين . انخرطت أسماك البحر فى البكاء . ظهر تمساح كبير فى البحر وكان يبكى . لماذا لم تحضر لهـا قمر الدين .. لماذا ؟؟ .. أليست زوجتك المخلصة الصابرة . قال التمساح كلماته وانخرط فى البكاء . ما الذى جاء بالتمساح الى البحر الملح . بكت الاسماك فارتفعت المياه فى البحر وعدت أطفو على السطح ، هبت موجة هائلة من البندق واللوز . صفعتنى آلاف اللوزات والبندقات ، هبت موجه من الزبيب والمشمش ، تورم رأسى من الزبيب والمشمش ، امتلأ البحر بالقراصيا السوداء المخيفة .. صرخت من الرعب وأحسست أننى أختنق . انتزعتنى يد عظيمة وألقت بى فى فضاء موحش .

قال الصوت : امتحنوه .. من أى شىء تصنع القطايف .. ؟

ارتعشت وأنا اقول : تصنع القطايف من القطايف .

قال الصوت : غلط ، بل تصنع من الدقيق المعجون بماء الورد . لماذا سميت بالقطايف ؟

قلت : لا أعرف ..

قال : سميت بالقطايف لانها تشبه القطيفة .. ناعمة ولذيذة كالقطيفة ..

قال الصوت الممتحن : لقد ضعت وانتهى امرك ..

اضربوه بسبعين ألف صينية من صوانى الكنافة .

وانهالت على رأسى صوانى الكنافة .. بدأت أختنق ثم استيقظت فجأة . لم أنم غير ربع ساعة فكيف رأيت هذا كله .. استعذت بالله من الشيطان الرجيم ونهضت أحضر درس العصر .

صنعنا حول الشيخ فى المسجد حلقة . عددنا ضئيل لو قورن بمن يلتفون حول المينى جوب أو حول تذكرة سينما . أجال الشيخ بصره فينا وتأملنا بنظرة متعبة وآسفة .. كان يبدو عليه الاعياء والخشوع وشيء من اليأس .. حمد الله واثنى عليه وبدأ درسه فى التيمم ، راح يتحدث عن موجبات التيمم وأسبابه وحالاته . أفاض فى الشرح وتوسع ، استمعت لكلامه وسرحت .. هل جفت مياه النيل يا شيخنا الطيب . لماذا لا تكلم الناس على مقتضى الحال ... يشبه هذا الشيخ شيخا قديما فى قريتنا كان يخطب فى الفلاحين فيحدثهم عن قوله صلى الله عليه وسلم أن من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وأن من أكل فى صحاف من ذهب فى الدنيـــا لم يأكل فيها فى الاخرة . وكان الفلاحون يتأملون كلامه ويمصمصون بشفاههم ويصلون على الرسول كلما جاء ذكره ، ثم ينصرفون بعد الدرس وهم يلمون جلاليبهم الممزقة على أجسادهم ..

حرير وذهب !؟

يحدثون الناس عن الحرير والذهب وليس مع الناس قميص شتوى ، وهذا الآخر يتحدث عن التيمم وسط ناس لا يعيشون فى صحراء ولا يسافرون فى صحراء .. ناس يتركون حنفيات المسجد مفتوحة من كثرة المياه ..

ويستخسر أحدهم أن يقوم بتركيب جلدة لحنفية بيتـه اذا تلفت .

أذكر فى صباى أننى كنت مغرما بدروس العصر فى مسجد قريتنا ، وكان شيخ المسجد رجلا غريبا يشتهر فى القرية كلها بمشاكساته ومشاكله ، وكان أيسر شىء عنده أن يطس من أغضبه شكوى بغير توقيع .. كان يذهب الى السوق فيبيع ويشترى ويعود بعد أن يمر على البوسطة ويشترى ثلاث ورقات دمغة ..

ويسأله أبى : لمـاذا الدمغة يا مولانا ؟

فيقول : تصلح للشكاوى .. لا يلتفت الى شكوى بغير دمغة ..

وكان يضع الدمغة على الشكوى ولا يضع توقيعه. وكم بعث بشكاويه فى العمدة وشيخ البـلد ومفتش الزراعة والمأمور .. وكان دائما يسأل حين يعين موظف جديد فى قريتنا عن رئيسه ، ويكتب أسم رئيسه فى نوتة متهرئة فى جيبه ليعرف لمن سيوجه شكواه الغفل من التوقيع . .وكان هذا الشيخ يحدث الفلاحين عن أطباق الذهب وحرمة الأكل فيها .. ويحدثهم عن لبس الحرير وكراهية ارتدائه الا لعلة فى البدن مثلما فعل السلف .. أو يحدثهم عن رذيلة الكبرياء وهم مطحونون تماما تحت اقدام السراى والحكومة والبوليس والعمدة وشيخ البلد .. يشبه هذا الشيخ الذى يتحدث شيخ قريتنا . ويذكرنى الاثنان بشيخ آخر كنت أستمع اليه فى الأزهر. اسمه الشيخ عبد ربه .. لست أعرف اسمه الكامل غير أننى كنت بعد دروس العصر أندفع نحوه واقبل يده وأحس براحة عميقة . **لا وجود لحصن أمنع من الأزهر فى حماية الاسلام . هو أقدم جامعة اسـلامية**

وهو الذى يقدم أفضل العلماء والشهداء على طـــول تاريخـــه .

كنت أحس تجاه الشيخ عبد ربه باكبار حقيقى واحترام. كان متطوعا لايستأجره أحد على دروسه ، وكان تلاميذه كثيرين . وكان يفهم جوهر الاسلام وحقيقته ، كان يحدثنا دائما فى الأمر الذى يشغل بالنا كل يوم ، وكان كلامه يصل الى القلوب بغير عناء لأن صاحبه مقتنع به ويخرجه من قلبه . كان الشيخ عبد ربه يؤمن أن المسجد هو مدرسة الآلاف الذين لم يذهبوا لمدرسة ، وكان يؤمن أن القرآن هو الامر اليومى للمسلم ، وكان المهم عنده أن يعرف المسلم آية من كتاب الله ويفهم معناها ويعمل بها قبل أن يعرف آية أخرى . وكان ينهى حديثه دائما بكلمة عن الرسول لم ازل اذكرها ..

« روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلف البعير ، ويكنس البيت ويصلح النعل ، ويرقع الثوب ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه اذا تعب ، وكان لايمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق الى أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا ولا يحقر ما دعى إليه ، ولو الى أردأ تمر ، وكان هين المؤونة يرضى بما تيسر منها ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة، طلق الوجه ، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوسة ، متواضعا من غير مذلة ، جوادا من غـــير سرف ، رقيق القلب ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده الا الى الحلال » .

وكان الشيخ عبد ربه ينتهى من كلماته فيمسح عينيه ويهمس .. وما تعليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة

عند يهودى فى طعام اشتراه لأهل بيته .

كان الرجل يضع أمامنا هذه الصورة لأكرم خلق الله ثم يسألنا أين نحن منها ؟ . رحمه الله ان كان حيا أو ميتا ، لم يزل شيخ المسجد يتحدث عن التيمم، واحدى حنفيات المسجد تسيل وتصنع المياه خطا طويلا ، تمنيت أن يصنع طوفانا صغيرا ويغرق الشيخ وهو يتكلم عن التيمم . وصل صديقى وبحث بعينيه عنى ثم وجدنى أخيرا فجأة .. جاء كما ذهب وهو لا يحمل قمر الدين . جلس بجوارى فسألته هامسا :

ـــ لماذا لم تحضر قمر الدين ؟

قال وهو يتنهد : لم أستطع أبدا .. وقفت ثلاث ساعات فى السوق الحرة .. زحام كيوم الحشر ، وبهدلة ما بعدها بهدلة .

قلت له : وبعدين يا يوسف ؟

قال : ولا قبلين .. فشلت تماما فى العثور على ثقب أنفذ منه للبائعة ، تخيل ثلاث ساعات ولم أر قط لفة قمر الدين ..

نكست رأسى وحرت ماذا أقول ، سكت صديقى وسكت أنا الآخر ، لم تزل مشكلتنا بغير حل . ماذا أقول لزوجتى عندما تسألنى عن قمر الدين ؛ اننى أستطيع أن أمارس سلطانى كرجل وآمرها باغلاق المباحثات فى هذا الموضوع نهائيا . أستطيع أن أقول لها أن قمر الدين حرام .. أو أنه مكروه ، أستطيع أن أقول لها أنه مغشوش أو أنه أو أنه .. ستصدق أى شىء أقوله لها . غير أننى بعد ذلك أحار فى موقفى بينى وبين نفسى . لقد وعدتها باحضار قمر الدين .. ووعد الحر دين عليه .

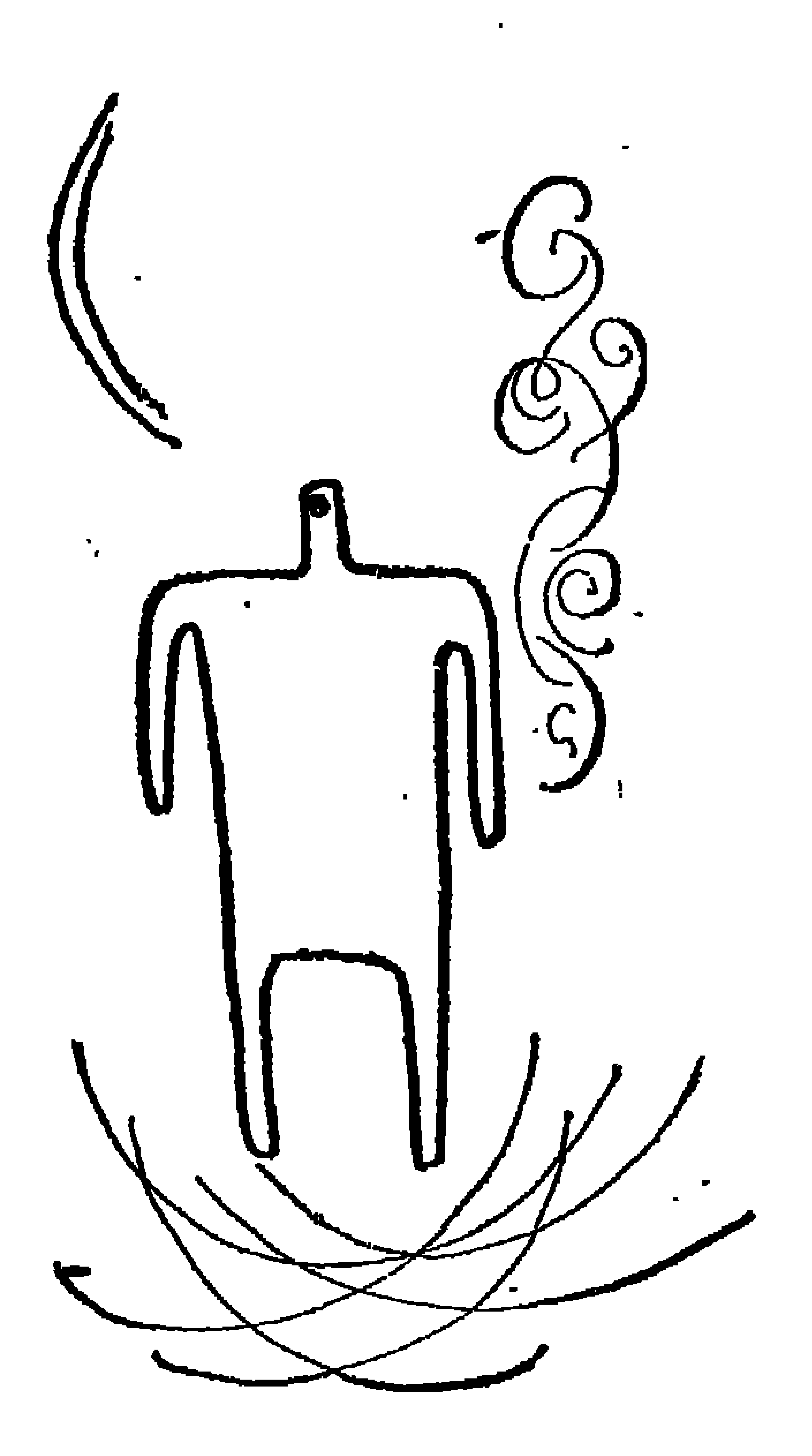
قال صديقى : اقول لك طريقــة لطيفة لصنع شىء له لون قمر الدين وله بعض طعمه ، تحضر عصـــير برتقال وتخلطه بقليل من عصير الجزر والنشا ثم يطبخ مثل قمر الدين ويوضع فى أطباق ويوضع عليه ما تيسر من الزبيب ، زبيب الجمعيات ذى الوجه الاسود ، ويصبح عندك بعد ذلك طبق طعمه قريب من طعم قمر الدين تأكله وتحمد الله ..

قلت لصديقى : الحمد لله أولا وأخيرا غير أن هـــذا تزوير لقمر الدين ..

وعجبت فى نفسى من هذا المخلوق الذى يسمونه قمر الدين ..

منذ عشر سنوات كان بلا قيمة .. كان لا شىء .. ثم استطاع فى عشر سنوات أن يرفع من مستواه ويصبح شيئا يقوم الناس بتزويره .. رغم أنه لم يقم بأى عمل ايجابى ... أى حظ ؟! .

الرجل المفظ



وقع حادث صغير فى طريقى من المسجد الى البيت . مشاجرة صغيرة سببها أن رجلا ضخما طويلا عريض الكتفين متورد الوجه ضخم القفا اشعل سيجارته فى الترام جوارناس صائمين . فى البداية حاصرته نظرات التأفف والغضب ثم قال أحد الركاب :

ــ خســـارة .

وكأنما كانت كلمته أول حبة تنفرط فى مسبحة الكلام . بدات التعليقـــات فى بدايـــة الأمر خجلة تمشى على استحياء ، تحدث أحد الركاب عن مراعـــاة مشاعر الناس ، تحدث رجل آخر عن الذوق الذى لا يتعلمه الناس من الكتب . ومصمصت احدى السيدات بشفتيها ، ثم تخلت التعليقات عن خجلها وراحت تتحدث صراحة عن التصرف السخيف .

وجلس الرجل المفطر المدخن يتأمل جمهور الركاب بسرور بارد . ابتسمت بينى وبين نفسى ، احترمته لصراحته . رحت اتأمل عدد المعترضين عليه ، كان عددهم يزداد ، قلت لنفسى من المستحيل أن يكون كل هؤلاء الركاب صائمين .. نقول أن فيهم نسبة ٤٠ ٪ من الصائمين ، قطعا تجلس هذه النسبة صامتة ولا تتحدث ، يحس الصائمون دائما باستعلاء تجاه المفطرين وقلما يكلمونهم فى الصيام ، من الذى يعترض على افطاره اذن ، قطعا قلة المفطرين فى الترام ، ان واحدا منهم قد كشف سريرتهم فقاموا عليه . ونظرت الى رجل

غاضب كان الكلام يقتتل على فمه . وأيقنت أنه مفطر وأقسمت لروحى أنه دخن سيجارته قبل أن يصعد الى الترام . ربما فى دورة مياه ، وربما فى حجرة مغلقة .. لم تستمر المشاجرة لأنها كانت من جانب واحد . جانب الركاب . أما الرجل المفطر فظل يدخن سيجارته بهدوء ثم أطفأها من نصفها حين تزايد الهجوم عليه .

جربت أن أقول شيئا يكسر الرهبة التى ركبت معنا بغير أن تقطع تذكرة .. قلت للمفطر :

ـــ حضرتك بتدخن من غير فلتر .. ده يضر صحتك .. متجرب الفيلتر .

وانفجر نصف الترام يضحك .. وبدأت التعليقات الساخرة .. وخيل الى رغم هموم الناس العامة ، أنهم كانوا ينتظرون هذه الحكة على الأنف ليضحكوا لاننى اكتشفت نفاقهم . لست أعرف . على أى حال التفت الناس الى وتركوا فريستهم ..

قال أحدهم للمفطر :

ـــ وجدت لك زميلا فلا تحزن ..

لم أقل للرجل اننى صائم . كنت سعيدا فى قرارة نفسى لأن الرجل اشعل سيجارته وراح يعطر لنا جو الترام بالدخان . كنت خرمان بعمق . واستمتعت بشم رائحة السيجارة الى النهاية . أعتبر نفسى مدخنا ثقيلا . ولا يهمنى الامساك عن الطعام أو الشراب . انمـــا يزعجنى الكف عن التدخين . تدخين السجاير . ومنذ أن جاء شهر رمضان . أحس ساعة الظهر أننى نصف تائه . امسك قلمى الحبر فى يدى واقول : القلم راح فين ؟. وابحث عنه نصف ساعة . أضع الدوسيه على مكتب زميلى ثم أبحث عنه فوق مكتبى ساعة . وفى العصر

يشيط شيء فى روحى وانظر أمامى ولا أرى جيدا ، فاذا تقدم العصر أحسست أننى تائه تماما . وأى مشكلة تعرض لى بين الظهر والعصر وأنا صائمٌ تبدو مشكلة مستحيلة الحل . اذا طلبت من سويتش المصلحة نمرة تليفونية ، وتأخرت قليلا أو قال انها مشغولة ، ساعتها أشعر بنفس الحقد الذى شعر به قابيل نحو أخيه هابيل فقام عليه ذات ليلة وضربه بفك حمار ميت وقتله . والويل لأى واحد من الجمهور لو جاء يطلب قضـــاء مصلحته العاجلة ، وصادف مجيئه بين الظهر والعصر . اننى أصرفه بإشارة متكبرة من يدى أن يعود غدا فى العاشرة .. فاذا قال أننى طلبت منه ذلك بالأمس أنكرت عليه ضيق أفقه وأفهمته أن عليه الا يتجسس على ما أقول . وهكذا تسوء أخلاقى فى شهر رمضان وأصبح عصبيا ضيق الصدر .

اى جريمة هناك لو استمتعنا بشم سيجارة يدخنها رجل مفطر فى الترام . أى جريمة هناك . لاحظت ان ركاب الترام تركوا المفطر وراحوا يسلون صيامهم علىّ تابعتنى عشرات التعليقات الساخرة ، لا أنكر أننى ضحكت معهم على نفسى ، فنحن من أخف شعوب العالم دما ولنا نكت كالرصاص ، وهكذا استمتعت بسخريتهم على ورحت أفكر فى نفاقنا العظيم ، مثلما نملك طاقة هائلة من المرح نملك قدرة على النفاق الاجتماعى لا مثيل لها فى العالم . وأثق أنا ان معظم الذين يسخرون منى ومن المفطر ليسوا صائمين . وهكذا نحن دائما .. نفكر فى شىء ونقول شيئا آخر .. نؤمن بشىء ونتصرف عكس ما نؤمن ، و[illegible] لا علاقة له بهذا أو ذاك .

اذا تعلق الامر بذنوبنا أقسمنا أن الله غفور رحيم .

واذا تعلق الأمر بذنوب الآخرين تجاهنا ، أكدنا أن الله شديد العقاب .

منافقون نحن ، أو معظمنا حتى النخاع ، ومهرة فى الكذب على الآخرين ، وأشد مهارة فى الكذب على أنفسنا . نرتكب ذنوبنا بفن عظيم . فاذا ورد ذكر الفضيلة فى الحديث ألفيت الجالسين جميعا أئمة فى الحديث ومشايخ ، وتسأل نفسك ؟ ان كانوا جميعا بهذا الفضل فمن أين جاء اللصوص .

جاءت محطتى فغادرت الترام ، نزل معى الرجل المفطر . بعد أن سار الترام قال وهو يخرج علبة السجائر :

ـــ اتفضل سيجاره يابيك ، ولا تغضب منهم فهم غجر . .

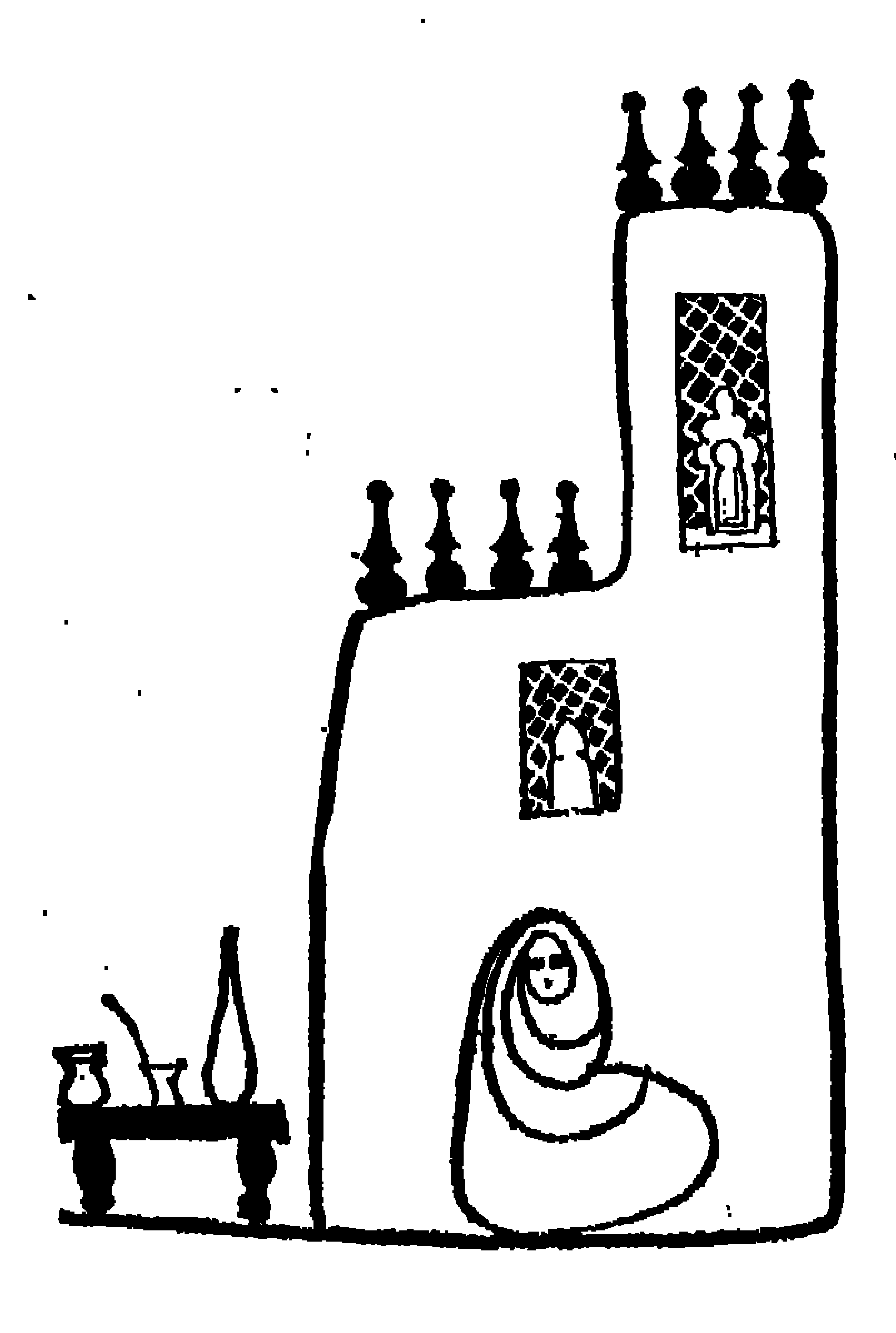
قلت له : صائم ، فتفضل افطر معنا .

قال : السجاير نعمه ، يتبطرون عليها والبطر يزيل النعم . .

قال كلمته ثم سار . . تأملت جسده الضخم وهو يسير . .

خيل الى أن أسفلت الطريق يهتز من ضخامته . وتصاعدت سحب الدخان من راسه وبدا الرجل مثل حائط آدمى يسير بلا حياء . .

البيت الكبير



اليوم أتناول طعام الافطار عند أمى ..

في أيام السنة العادية تستضيفنى أمى مرة كل أسبوع . وفى شهر رمضان أفطر عندها مرتين فى الاسبوع . وأمى سيدة تسير فى العقد السابع . وهى من هذا الطراز القديم العظيم الذى انقرض من حياتنا . انها وكالة الانباء الحية لعائلتنا وللحى الذى تعيش فيه . وهى مستودع أسرار كل شباب العائلة . وهى أعظم طاهية فى الجزء اليابس من الكرة الارضية . وربما كانت أعظم طاهية وراء البحار السبعة . وهى تزعق على الشغالة أو تنادى البواب فترتج جدران البيت بالمهابة . وهى الشبح الذى يخيف المكوجى والجزار وبائع الطماطم وبائع الفراخ . بنات اليوم المتزوجات لا يبحثن عن بائع الفراخ ، ويذهبن الى الجمعية لشراء الفراخ الافرنكية ، بينما يذهب بائع الفراخ لأمى حتى باب البيت ولا ينزل الا بعد اتهامه بأنه حرامى ووغد ، فقد أطعم الفراخ على الصباح كمية من الطعام تكفيها سنة .. ويقسم الرجل انه مظلوم غير أن شخصية أمى الطاغية لا تدع له مجالا للاحتجاج أو الشعور بالظلم .

ولئن كان هذا حال أمى أثناء الشهور العادية ، فان حالها فى شهر رمضان وهى صائمة يمكن تخيله بسهولة . الويل لمن يعترض طريقها وهى [illegible] ئمة . يصيبه ما أصاب من اعترض طريق ملك [illegible] ات صحتها مضرب الامثال زمان ، ثم أصبحت اليوم مريضة

بالسكر والكبد وضعف فى العينين ، بعد أن تزوج أبناؤها وبناتها اهتمت بتربية القطط ثم سئمت منها وطردتها ذات يوم ... بعدها اهتمت بالحياة العامة ، أصبحت عضوا فى الاتحاد الاشتراكى ، أقنعت أهل الحى بانتخابها ولست أعرف كيف ، لا تخشى أن تتحدث عن الحـــال المايل اذا صادفها الحال المايل وكثيرا ما يصادفها هذه الايام . مشاكلها مع شهر رمضان انه جاء فى الشتاء وهى تعطش فى الشتاء أكثر مما تعطش فى الصيف ، مشاكلها مع أبى انه يغافلها كل يوم ويستحم ويصاب بالبرد . مشكلتها الثانية معه انه لا يأكل ، تشكو لكل أبنائها أن اباهم لم يعد يستسيغ طعامها الجيد . لا تفهم أن الرجل قد صار بعد عشرتها الزوجية من الزاهدين .. لا يأخذ الاكرام عندها غير صورة واحدة هى الاكل ..

وتفهم أمى كلمة رمضان كريم على نحو واحد .. رمضان كريم لأن الناس تأكل فيه أضعاف ما تأكله فى أى شهر آخر . وعندما تضع أمى أمام ضيفها طبق البورانى أو محشى ورق العنب ، فمعنى وضعها الطبق أمامه انه يجب أن يأكله كله . والويل له اذا ترك فى طبقه شيئا ، انها تلاحظ انصرافه عن الطعام فتزيد له الكمية فى الطبق . وترجوه أن يأكل ، فاذا رفض أمرته أن يأكل ، فاذا قاوم لعنت أجداده . وانخرطت فى شكوى عميقة لهذا الجحود الذى يقابل به الناس احسانهـــا اليهم ، ووقوفها الساعات أمام النار ، ولا يجد الضيف مناصا من التسليم والتهام طبق البورانى أو محشى ورق العنب عن آخره . وهم يقولون فى الامثال أن الطبيخ نفس ، بفتح النون وفتح الفاء وتسكين السين ، هناك شىء لا علاقة له بالمقادير أو النار أو المادة الخام .

شىء مجهول هو الأسلوب، شىء هو مزيج من الشخصية الفنية الخاصة والتجارب القديمة ، ويخرج الطعام من يدى أمى وله رائحة عطرة تدفع حواسك نحوه ، وقد لاحظت طوال عمرى اننى لا أشرب الماء بعد الطعام ، الا اذا أكلت فى بيت أمى . ان حريقة لطيفة تندلع فى جوفى ، وأبدأ فى احتساء المــاء ، ولما كان الله قد جعل من الماء كل شىء حى . ولمـــا كنت أشرب المـــاء وراء طعام أمى ، فهذا معناه أن طعامها حى . عمل فنى حى ، عمل فنى أعظم من مسرحيات الاذاعة والتليفزيون ومؤسسة المسرح .. وصلت الى بيت أمى . السيدة العجوز صائمة ونائمة . والصيام عند الكبار يختلف عن صوم الشباب . يحس الشباب فى الصوم بنوع من التحدى لرغبات الجسد ، ويشعرون بشىء من الرياضة اللطيفة التى يثبتون بها لأنفسهم قوة الارادة ، عنـــد الكبار يتغير مفهوم الصوم . انه تعامل مبـــاشر مع الخالق فقد اقتربنا منه وتشير كل الدلائل الى اننا نغذ السير نحوه . والصوم عبادة جماعية يجد المرء لذتهـــا فى اشتراكه مع الآخرين فى معاناتها ، والعجائز يقاسون من مرحلة تفرضها عليهم ظروف الحياة ومشاغل الابناء، واقسى شىء أن تصوم سيدة عجوز وحدها فى بيت عدد حجراته ست ، انها تحس على الفور بوحدة ثقيلة وخوف غامض . ولو كان الموت هو انقطاع الجسد عن الطعام والشراب والتنفس ، فان الصوم انقطاع عن الطعام والشراب .. وهكذا تولد فكرة الموت فى اذهان الكبار عندما يدخلون صراعهم مع الصوم ، والمفروض أن يحس المرء عند اقترابه من خالقه بالحنو وتمتد شفقته الى كل مخلوقاته ، غير أن العكس هو الذى يحدث دائما

ان الانسان يكبر فتكبر عصبيته وتزيد نرفزته وتصبح أقل حكة على أنفه كافية لاثارة ثائرته .

كم يختلف صوم العجائز عن صومنا . يستغرق الكبار فى صومهم ويفكرون بطريقتهم ويحسون كلما مضى نهار أنهم يقتربون من هدفهم . وتختلف أهداف الكبار فى الصوم ، هناك من يصوم لأن الصوم يريح معدته ، وهنـاك من يصوم لانه تعود الصوم منـذ شبابه ، وهناك من يصوم لانه لا يمكن أن يكون عجوزا ويفطر .. ورغم تعدد الاسباب الظاهرية واختلافها فان كل واحد منهم يصوم فى نهاية الأمر خوفا من خالقه ، يتسلل الخوف الى الانسان عندما يحس ذات يوم أنه كبر ولم يعد كما كان ، وعندما يصوم الكبار يشتد احساسهم ارهافا بالذنب والخطيئة . واما أن يفكر الصائم العجوز فى خطاياه هو ، واما أن يفكر فى خطايا الآخرين . ولـما كان هو نفسه عجوزا لم يعد يذكر خطاياه ، ولما كانت ذنوبه منطقة ألغام مضببة يخاف أن يسير فوقها ، فهو لذلك يفضل أن يفكر فى خطايا الآخرين ، وهكذا يجلس صاحب البيت العجوز تحت بيتنا ، ويبدأ فى التعليق على ملابس الفتيات وتصرفات الاولاد وتوجيه انتقادات اليها، ومن أصعب الاشياء أن يكون المرء محاميا يقف جوار الضعف البشرى ، يحتاج ذلك لمستوى عال من الفهم والحساسية والمشاعر والحب ، ومن أسهل الاشياء أن يختار دور الظالم ويصدر أحكامه بغير أن يدرك الظروف أو يسأل عن الوقائع .

يجلس صاحب البيت العجوز تحت بيتنا وهو يصرخ :

ــ القيامة حتقوم ..

● زعلان ليه يا حاج ؟

— العالم فسـد .. شوف البنات لابسين ايه .. أستغفر الله العظيم .

فى احدى المرات نهض الرجل العجوز الذى تعـدى التسعين من عمره وتقدم نحو فتاة ترتدى المينى جوب وأمسكها من أذنها وراح يشد أذنها .

فاجأت حركته الفتاة فى مبدأ الأمر .. التفتت اليه ورفعت يدها لتضربه متصورة أنه شاب يعاكسها .. ثم فوجئت أنه شيخ محطم جاوز التسعين ، والتف الناس حولهما . قال الشيخ العجوز وهو يترك أذنها وينصرف عنها :

— القيـامة حتقوم خلاص .. ماعدشى دين .. أستغفر الله العظيم .

هذا العجوز نفسه ضبطته يسأل شيخ المسجد عن عدد الحور العين فى الجنة ، سبعون ألفا .. وكيف يجد الانسان القوة يا مولانا . يعطيه الله القوة .. ما شاء الله .. أنعم وأكرم .. ما شاء الله .. وهل ترتدى الحور العين المينى جوب أم ماذا .. أعرف أنه لم يسأله السؤال الاخير . ولكنه تردد فى نفسه .

أجلس فى بيت أمى صامتا حتى تستيقظ ، هذا هو البيت الكبير كما تسميه . من الغريب أننى أسميه بيت أمى ولا أقول بيت أبى ، رغم أن أبى هو سـيد البيت ، غير أن سيادته تأخذ شكل الصمت والزهد .. أما أمى فتصدر كمية من الضجيج يصبح من اللازم بعدها أن ينسب البيت اليها .

وبيت أمى بيت مصرى من الطراز الاول . انك تجد فيه هذا الحزن الجميل والنكد القديم الذى عرفتـه ايزيس حين أصاب رب الخصب ما أصابه ، وهو بيت

تجد فيه هذه الضحكات العظيمة الساخرة التى يعقبها قول الضاحك « اللهم اجعله خيرا » ، اشارة الى بؤس هذا الشعب واحساسه أن الضحك ليس من حقه ، وهو بيت تجد فيه كنافة تذكرك بكنافة جارية عبد الملك ابن مروان ، وهو بيت تجد فيه قطايف تذكرك بقطايف ابن نباته الشاعر المصرى القديم المشهور بدناوته ، وهو بيت تجد فيه أرزا مخلوطا يذكرك بأمجاد الخديوى اسماعيل ومآدبه ، وهو بيت تجد فيه معاملة للشغالة تذكرك بمعاملة المماليك للشعب المصرى ، وهو بيت تجد فيه القهوة المحوجة ، والمـاء المعطر بالزهر ، الى جوار الشكوى المستمرة من اختفاء أصناف من السوق ورداءة أصناف أخرى ، وهو بيت مصرى قديم وتقليدى بكل متناقضاته وعظمته ونكده وأفراحه .

استيقظت أمى فعرفت أنها استيقظت من ضجيجها فى المطبخ .. اكتشفت أن صرصورا طفلا يصعد على حائط المطبخ . ولو أنها اكتشفت طائرة اسرائيلية على حائط المطبخ لمـا أحدثت ضجة كالتى أحدثتها ، وطرقعت طلقات الشبشب على الحائط وبدأت نرفزة الصيام ، وانهالت أمى تتحدث عن انعدام الرقابة وسوء المتابعة وضعف الاجهزة وانعدام الضمير ووفاة الذمة ورحيل الاخلاق والفساد المنتشرى العام . وجاءت سيرة أبى فى الحديث فهو المسئول باعتكافه عن كل الفوضى التى تقع ، ونهضت أهدىء أمى فقالت لى :

— روح يا شيخ . حمد الله عا السلامة ، بتجيلى لمـا أشحتك وأكلمك تلاتين مرة فى التليفون .. بكره أمك تموت وتبقى تندم على أنك ماكنتش بتزورنى .

هجوم ساحق يا أمي لكننى آخذك فى احضانى واقبلك واضحك على عقلك بكلمتين مثلما يفعل الرجل العاقل دائما ، أصدرت أمي سلسلة من التعليمات السريعة التى قصدت بها تهيئة كل شىء فى مكانه . وبدأ اعداد المائدة قبل الطعام بساعة . وضعت السلطات ووضع الخبز ووضع قمر الدين ليبرد على البوفيه ، تأملت أطباق قمر الدين وقد رصعتها حاجة رمضان الكريم .

يسير أبناء الفرنجة فوق القمر . وأمر بيدى على قمر الدين فما أعظم الفرق بين حضارتين .

قالت أمى :

— أريدك فى كلمة !!

جلست معها فى جلسة مباحثات مغلقة لم تحضرها زوجتى ولم يحضرها أبى . أعرف أنها ستشكو لى من آلاف الاشياء ، وستوجه الى مئات الأوامر والتعليمات ، سحبتنى وراءها مثل طفل وجلسنا فى غرفة المسافرين ، الغرفة لا تفتح فى العام الا مرة أو مرتين .. قالت لى أمى ، وهى فى جلسات المباحثات تتكلم وحدها وعلى الحاضرين الاستماع فقط ..

قالت : (**مقدمة**) رمضان كريم يا ابنى وكل سنة وانت طيب . (**طلب رئيسى**) أريد أن أحج هذا العام .. ابحث لك عن طريقة . لا تقل لى انهم يختارون بالقرعة فهذه نمرة قرعة . (**مجاملة**) انت موظف كبير ولك أصدقاء فلا تقدم حججا واهيــة وأعذارا سخيفة .. (**جملة اعتراضية**) لو كان أبوك هو الذى يريد أن يحج لقلبت الدنيا من أجله ونزلت على رغبته .. انت نذل وتحب أباك أكثر منى وتخاف منه أكثر منى (**طلب آخر**) القرفة موجوده والجنزبيل موجودوالمستكه نادره والفلفل

غال وجوزة الطيب أغلى .. لكن ما هى حكاية الجبهان والشطة . أين ذهب الجبهان من السوق . اسأل لى غدا فى الغورية اذا ذهبت . (**ملحوظة**) الولد ابنك الكبير يحب بنت خالته وهذا للعلم فلا تشتمه أمامها أو تقوم بتهزيئه ، لا تقل له اننى حدثتك . (**طلب صغير**) هل لك صديق فى السوق الحرة ، نريد لفة قمر الدين فقد كاد ينتهى ما اشتريناه منه . (**رجاء**) وبالمناسبة لا تكلم سنية بعد اليوم فقد دخلت عليها فى فرح سعاد فقامت لى كل النساء وسلمت هى على وهى تجلس بمنتهى الوقاحة . (**باب الشكاوى**) ابحث لك عن طريق لأسلوب أبيك الجديد فى مماكستى . زهد فى الاكل وأنا أقف الساعات أمام النار من أجل من ؟؟ .. لماذا لا تتصل بالصحف ليكتبوا عن القطايف التى صغر حجمها وعن الكنافة التى يغشونها ..

استمرت المباحثات مع أمى بينما كانت رائحة الطعام تتصاعد من المائدة ، وداخل رأسى كانت المؤامرة تختمر .. قطعا سنجد هنا قمر الدين . ويا حبذا لو سرقنا منه لفة أو نصف لفة .. لكن كيف ؟؟؟

زيـارة الحسين



قال الحاج الجناينى وهو أكبرنا سنا وأعظمنا حكمة وأدرانا بالتقاليد :

— **نسهر فى حى الحسين هذه الليلة .**

رمضان بغير الفيشاوى بحر بغير أسماك . هناك يشترى كل واحد منا مسبحة جديدة ، وعصا ، وقليلا من البخور ، وفلاية من خشب الليمون تذكارا لمن نحب . الميدان الفسيح الجميل الذى كان يحمل مذاق قاهرة الفاطميين تغير هذا العام وكل شيء فى الدنيا يتغير . أحيانا الى الافضل وفى معظم الاحيان الى الأسوأ . منذ عام ونصف كنت تذهب الى قلب الميدان مباشرة ويسقطك التاكسي أو تقودك قدماك الى مسجد الحسين . وهناك تقرأ الفاتحة لابن بنت رسول الله ، وتذكر استشهاده فى سبيل الله وتذكر أجدادك الذين قرأوا له الفاتحة مثلك ولم يمد اليه أحدهم يد المساعدة وهو يقتل . ندخل على أقدامنا فنحن ولله تعالى الحمد والمنة لسنا من أصحاب السيارات الذين يكدحون ويكدون من أجل شراء سيارة والاستغناء عن الأوتوبيس والترام ، بعد ما صار اليه أمر الاتوبيس والترام وبعد أن صار جزاء من يركب أحدهما هو جزاؤه ..

على يسار المسجد شريط ضيق هو الأثر الوحيد الباقى من الحى القديم . قال أكبرنا سنا وأعظمنا حكمة وأدرانا بالتقاليد :

— **نبحث عن مقهى الفيشاوى ..**

ومن قبل كنا نقول نذهب الى مقهى الفيشـــاوى فسبحان مغير الاحوال ولا يتغير . بدأنا بحثنا عن مقهى الفيشاوى بالسؤال عنه ، وفى اى مجتمع مصرى تسأل عن شىء أو طريق أو حاجة فلا يتقدم اليك من يعرف وانما يتقدم اليك من سمع السؤال من باب الشهامة وانقاذ الغريب . وكانت الاجابات الصادرة متضاربة ومختلفة فمن قائل : سيروا الى اليمين ، ومن ناصح أن اتجهوا الى اليسار ، ومن واثق أن علينا أن نعود الى الخلف . عندها قررنا البحث عن الفيشاوى بأنفسنا .. ثمة مزيج غريب من الباعة . يباع كل شىء هنـــا سواء خطر لك على بال أم لم يخطر . حب العزيز يسافر من طنطا الى الحسين احتفالا بشهر رمضان ، وباعة السبح يكونون جيشا هائلا لو اصطف حـــول القاهرة لصنع ثلاثة وثلاثين صفا . والسبحة ليست من الدين ولكنها تقليد ووجاهة ، انها تخلع عليك صفة الرجل المحترم المتدين الفاضل الذى يصلى الفرائض ، ويصوم لربه ، ويعرف دينه ، ويسلم الناس من أذاه . لا عليك لو اشتريت هنا مسبحة رغم انك تصوم تقليدا ولا تصلى ولست متدينا ولا فاضلا . لا عليك مثلنـــا ولنشتر هذه السبحة الحمراء التى سوف تنطق على البدلة الرمادى الغامقـــة . عثرنا أخـــيرا على الآثار التاريخية لمقهى الفيشاوى . ثمة رصيف له يهدم بعــد وقد غطته المقاعد والمناضد . فلول الباعة تمر وسط الجالسين فى المقهى . الرحمات تنزل على مقهى الفيشاوى القديم . لم أكن أحب المقهى القديم لكننى كنت اذهب اليه شبه مسحور . كان المقهى ذاته قديما ومتهرئا عمره مائة وخمسون عاما ويمتلىء بآلاف الاشياء الغريبة

مثل الصوانى الفاطمية والبراويز المملوكية والتماسيح المحنطة التى لا يعرف سوى الله وحده كيف جاءت من أدغال أفريقيا وعلقت نفسها فى سقف المقهى وراحت ترمق الجالسين بنظرات مرعبة من العالم الآخر .

كان الناس يحبون مقهى الفيشاوى وكانوا يزورونه دائما . هو المكان الوحيد الذى يمكنك أن تسهر فيه للصباح دون أن يسألك أحد لماذا تسهر ، وكان المقهى يضم نماذج غريبة من الخلق . تجد الوزير والفنان والهارب من العدالة جوار قطة الليل التى انهت نمرتها وجاءت للبركة : تجد الافاق والمتدين واللص والمجذوب والسائح جوار رجل جاء يتفرج على هذا كله . وكان زوار الفيشاوى وهو ولى من أولياء القهوة والشاى ، يزيدون عن زوار أى ولى من أولياء الله الاصليين ، وكان الفيشاوى صاحب سمعة عالمية ، ومثل الحى اللاتينى فى باريس ، وحى سوهو فى لندن ، وحى هارلم فى نيويورك ، كان حى الحسين فى القاهرة . وهم يحافظون فى كل دول العالم المختلفة التى ذكرناها على الاحياء القديمة ويمنعون فيها الهدم ويعاقبون عليه ويرممون الآثار لتنشيط السياحة ، أما هنا فقد قرر أحد العباقرة هدم الفيشاوى القديم وبناء فيشاوى جديد .. ومات صاحب المقهى من الحسرة حين جاءه النبأ وبدأ الهدم . هذا الجزء القديم من القاهرة ترتفع فيه اليوم أعمدة خرسانية مسلحة فى نظام يشبه نظام البواكى التى تذكرك بثكنات الجيش الانجليزى فى قصر النيل ، وكم كانت كئيبة ومقبضة . وتسأل ما هذا الذى يبنونه . ويجيبونك أنه فندق سياحى شرقى لطيف . يقف مؤذن مسجد الحسين ليؤذن أمام سائحة تقف فى

الشباك العربى وهى ترتدى المايوه البكينى ، اعطنى عقلك يا سيدى وقل لى اليس حل هذا الاشكال أصعب من اشكال الكلمات المتقاطعة . جلسنا فى الشيء الذى كان مقهى الفيشاوى .. وطلبنا الشاى والشيشة .. قال أكبرنا سنا وأعظمنا حكمة :

ـــ نريد أن نتسحر بالفول احياء لمجد قدماء المصريين فأين ذهب أبو حجر ؟؟

تطوع الخلق وأشارت الايدى الى مكان يمتلىء بآثار الهدد **وتضاربت التصريحات :**

ـــ انهد محله فأقسم الا يبيع الفول حتى يتم بنـــاء محله الجديد .

وقال رأى آخر : محله هناك فى الجهة المقابلة .

قال رأى ثالث : هاجر الى كندا وليس له محل هناك .

قال أكبرنا حكمة : ناكل اللحم ان استطعنا على حساب البيك ..

واشار الى ، فدافعت عن نفسى وقلت :

ـــ نأكل الارز باللبن أو نشرب قمر الدين ..

ضحك الجالسون حين ورد ذكر قمر الدين ضحكا مجلجلا . خدعك الباعة بهذا الشراب الاصفر المعروض ، ليس هذا قمر الدين كما كتب أحد الكتاب فى احـــدى الصحف ، هذا برتقال وجزر بالنشا ، ولو أخذنا النشا لقمر الدين لم يبق نشا لياقات القمصان فاختر لنفسك ما يحلو . تحب أن نأكل أم تحب أن نسير أولا قبل أن نأكل ..

قال أصغرنا سنا وأنشطنا سيرا وأبعدنا عن وجع المفاصل وآثار الشيخوخة :

ـــ بل نسير قبل أن نأكل ..

نسير فى حى الحسين قبل أن نأكل ، كم تغير الميدان وكم تغير مدخله ، تلتقى أول ما تدخله بحاجز حديدى متهاو وعجيب الشكل والخلقة فهو ينثنى جهة اليسار من يمينه ، ويميل جهة اليمين من يساره ، يمنع الحاجز السيارات من دخول الميدان. وجوار الحاجز كأكأة وزحام وكلام وسيارات وباعة ومسابح وبخور . يمتلىء حى الحسين بأغرب نماذج تفرزها مدينة عريقة كالقاهرة وتنبسط الغرابة على الناس والباعة والاشياء المباعة .

عجوز تبيع فوانيس رمضانية فى حجم علبة الكبريت. فوانيس من البلاستيك . من اى مصنع غريب رايق جاءت هذه الفوانيس . انها فكرة عبقرية وثمن الفانوس قرش صاغ واحد . وداخله براغيث الست . تأكل الحلوى وتلعب بالفانوس بقرش . هناك من يبيع بخورا من جاوه . وهناك من يبيع كلابا يتيمة قتلت أمها فى المذبحة الاخيرة للكلاب . وباعة السبح أكثر من السبح .

كم تغير ميدان الحسين . لا اقصد السنوات الاخيرة. اعنى الايام القديمة الطيبة . على اوائل هذا القرن كانت القاهرة تحتفل برمضان احتفالا مهيبا . كان عدد المشايخ يكاد يقترب من عدد البيوت ، وكل بيت فى رمضان يشرفه شيخ يقرأ القرآن . اما الذين لا يملكون القدرة على دعوة شيخ فكانوا يذهبون لحى الحسين ، وهناك كانوا يجدون بغيتهم من سماع القرآن والانشاد الدينى والتواشيح . وكان الفقهاء يتبارون فى التغنى بمحاسن الشهر وفضائله ، واشتهر من المنشدين والمقرئين والصييته : الشيخ أحمد ندا والشيخ اسماعيل سكر ، وكانت الاصوات قديما قوية مجلجلة ، كان الزمن قبل

اختراع الميكروفون أو دخوله مصر بمعنى أصح . وذات ليلة وقف الشيخ احمد ندا يغنى أحد الموشحات فى مديح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يغنى فى صيوان جوار بيت فيه فرح ... وكان صاحب الفرح قد أحضر المزيكة الميرى وهى موسيقى نحاسية توقظ الموتى لو دقت ، ودقت المزيكة وبدأ الشيخ أحمد ندا فى مديحه .

جل من طرز الياسمين فوق خديك كالجلنار

ويعلو صوته ويعلو صوت المزيكة ، ويبدأ كل واحد من الصوتين فى تحدى الآخر . ويهزم صوته صوت المزيكة ، حتى يرسل اليه صاحب الفرح من يقول له :

— والنبى يا شيخ ندا تاخد لك شوية راحة ما احناش سامعين المزيكة من صوتك ..

ويمر الوقت على حى الحسين فيصبح فى شهر رمضان مدرسة فنية لابد أن يجتازها الشيخ القارىء أو رجل الدين أو المنشد قبل أن يصل للشهرة . مدرسة تزدهر فيها المشايخ وتحتدم المنافسة بينهم من أجل انشاد افضل ، وكان أعظم منبع تستمد منه هذه المدرسة هو الطرق الصوفية ، فقد كان لكل طريقة منها انشادها واذكارها ومشايخها المغنون . وتتعاقب على حى الحسين أوقات الفرح . كما تتعاقب عليه أوقات الحزن ، واذا كان المنشدون والمغنون يصهللون فى أوقات الفرح فان الشعراء يزدهرون فى أوقات الحزن . لم تكد الحرب العالمية الثانية تبدأ حتى بدأ الغلاء وعم وطم ، وحرم المصريون من كثير من طيبات الطعام الأثيرة عندهم ، ووقف المرحوم الشاعر محمد الاسمر فى شهر رمضان ينشد وسط أصدقائه فى حى الحسين :

ضاقت الناس فى الكنانة ذرعـــا
فالام الغـــلاء فى الاثمـــان
كل شىء غـــلا فليس رخيصـــا
فى الورى كلـــه سوى الانسان
قيل شهر الصيام آت فقلنـــا
نحن شعب يصـــوم فى كل آن
نحن لسنا نصوم فى العام شهرا
واحدا ، بل نصوم طول الزمان

وتنتهى الحرب العالمية الثانية ويعود رخاء نسبى ، ويأخذ شهر رمضان فى الحسين شكل هذه الاطعمـــة التى تذهب وتجىء وتسمى بأطعمة رمضان أو حاجة رمضان ، ويكتب المرحوم حسين شفيق المصرى يصفة الحى بقوله :

ســــترى كل ما تحت وتـــرضى
من صنوف الطعـــام فى رمضـــان
من كبـــاب وكفتـــة وفطـــــير
وكنافا متقـــونة فى الصـــــوانى
وانكر المشمش البديع خشـــافا
بزبيب لـــــه أعض لســـــانى
واذا ما شربت من ((قمر الدين))
فخـــــذه فى صــفرة الــكهرمان

ويتقدم الوقت ، وندخل فى مياه النصف الثانى من القرن العشرين ، ويبدأ حى الحســـين فى الذوبان ، لا يبقى من المقاهى القديمة العامرة بالغناء والانشـــاد والشعراء وليالى الحظ غير مقهى الفيشاوى . لا يبقى من الدكاكين القديمة التى كانت تبيع الخشاف والحلوى غير دكاكين تبيع الانتيكات ودبل الفضة وكراسى الجمال ،

ثم يجيء أمر الهدم لما بقي من الحي القديم ، ويبحث شاعرنا الساخر عبد السلام شهاب عن شهر رمضان في حي الحسين بكلمات تقول :

لم ادر هل هو شهر الصوم حل بنا
أم شهر أشياء أخرى غيره ابتدعوا
شهر الكنافة أم شهر القطايف أم
شهر المعارض فيها تنفق السلع
دع ما ادعاه فريق من مشايخنا
عن فتة ولحوم قد حوت قصع
عين ابن آدم يا ولداه فارغة
والميل عن أبويه فيه منطبع
ألم يبع أبواه جنة عظمت
بأكلة ما بها ري ولا شبع

تتعاقب الذكريات علي المرء وهو يمضي متسكعا في حي الحسين ، منذ سنوات والناس تزور الحي في رمضان لتتفرج على الناس ، كانوا قديما يزورونه للفرجة والاستماع وأكل الفتة والخشاف واحتساء قمر الدين . ترى لماذا سموه قمر الدين ، لماذا لم يسموه قمر الدنيا ، ما علاقة هذا المخلوق الاصفر ذي الخد الوردي الكهرماني بالدين ، ما هو الحادث الذي وقع في حياة قمر وكانت له علاقة بالدين فالتصق الاثنان وصار اسمه قمر الدين ..

وجدنا رجلا يبيع الفول فتقدمنا نحوه بقلب جريء وصدر جامد ، أكلنا وحمدنا الله وسألنا عن الحساب فقال : سبعة وستون قرشا .

● لماذا يا سيدى الفاضل ؟

قال : طبق الفول بخمسة قروش ونصف .

● لأى سبب يا سيدى غير الفاضل ؟
قال : هذه أسعارنا ..
قلنـــا : هذه سرقة .
قال : هى أسعارنا السياحية ..
قلنـــا : ما شاء الله وهل ترانا خواجات . هــل رأيت فى يد أحدنا منشة أو على راسه طربوشا ..
نحن أبناء هذا البلد فادركنا برحمة أبناء البلد ..
قال : نحسبه لكم بأربعة قروش وهذا آخر كلام ، وعلى الطلاق من صيامى لو نزلت كلمتى الارض ..
دفعنا واتجهنا لمسجد الحسين . نصلى الفجــر ونستمع للقرآن ونحاول ان نسلب من أوقات الذنوب وقتا صغيرا للطاعة ..

... ...

فى مسجد الحسين شىء يشبه الروح والريحان . ثمة عطر خفى مجهول لا تعلم مصدره أو أصله . ليست هذه رائحة بخور . ليست رائحة المسك الذى يمسحون به ضريح الحسين ، هذه رائحة أغلب الظن أنها رائحة عنبر الحوت الذى ابتلع سيدنا يونس عليه الســلام فنادى من جوفه فى ظلمات بطن الحوت وظلمات الليل وظلمات البحر .. « فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين » . وربما كانت رائحة دم الحسين الشهيد . يحدثنا نبينا عن الشهداء الذين يجيئون يوم القيامة وجراحهم تسيل دما ، اللون لون الدم والريح ريح المسك .

صافحتنى رائحة المسجد أول ما دخلت . ودخــل صدرى اطمئنان افتقده . ان نوعا من أنواع السلام يغمرك . أنت فى بيت من بيوت الله . جئت ضيفا على

الله .. فهل يخزى الله ضيفه أو يرده بغير اجابته لما سأل .

ـ السلام عليك يا سيدنا الحسين . عسى ألا يؤذى مثلك سلام مثلى . رضى الله عنكم آل البيت . قرأت له الفاتحة . وصليت ركعتين تحية للمسجد ، ثم جلست .. لاحظت شيئا على زوار المسجد . ان معظم الزائرين طعنوا فى السن . نعم يارب .. نطعن فى الذنوب ونطعن فى السن فاذا انهدت قوانا وغربت حيويتنا واشتعل الرأس شيبا جئناك . استمتعنا بالدنيا وجئناك نبحث عن متعة الآخرة . نريد الاثنين معا ونطمع فيهما معا فما أعظم الحيوية .

بدأ قارىء المسجد يرتل القرآن . أعيش وسط صورة عمرها أربعة عشر قرنا . صورة محمد بن عبد الله فى غار حراء . وجبريل عليه السلام يحدثه .. اقرأ . اقرأ باسم ربك الذى خلق .

أليس مدهشا أن تكون أول كلمات الاسلام « اقرأ » أليس هذا موحيا بأن الله تعالى يفتتح عهد الرشد العقلى وعهد التقدم العلمى . هكذا فهم المسلمون فى صدر الاسلام دينهم . فهموا أنه يبدأ بدعوة الى القراءة . والدعوة الى القراءة دعوة الى المعرفة . سئل الصوفى الزاهد رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ، لقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » قال ابن عباس: الا ليعرفون .

هكذا فهموا القرآن فى صدر الاسلام . هو دعوة الى المعرفة . دعوة تعنى خضوع المادة للانسان وخضوع الإنسان لخالقه . وحين يؤذن المؤذن بقوله الله أكبر فذلك يعنى أن كل شىء عداه صفر . لا يستحق العبادة

ولا السؤال ولا القصد ولا الزلفى ولا الملق ولا النفاق.

راح القارىء يقرأ . ركزت ذهنى وأنصت اليه . أحسست أن الخشوع داخلى ينسحب تدريجا ويحل مكانه نوع من الطرب . خيل الى أن الشيخ يحاول توصيل الكلمات للناس بشكل غنائى جميل ، وكانت هذه الغنائية هى المسئولة عن احساسى بالطرب بدلا من الخشوع ، قلت لنفسى هذا قارىء لبق . انه يبدأ من مقام الرصد ويعطف على أقرب المقامات اليه . وكلما توقف الشيخ قال له الناس .. الله الله ياسيدنا .. وثمة رجل قال : والنبى تخللى بالك منا يا سيدنا . ولم أفهم ماذا يقصد .. نحن نستمع لكلمات الله ولا نستمع لطرب يغنى . وكلما توقف الشيخ عن القراءة ، كان الدرويش المبخراتى يهتف بصوت قوى .. اللهم صلى على النبى .. اللهم صلى على حضرة النبى ويمد نغمة الكلمة الاخيرة . حتى تصطك ذبذبات صوته بأبعد حيطان المسجد وترتد كالدبابيس الى صدور الناس . لماذا يقول النبى أولا ثم يقول حضرة النبى بعد ذلك . لماذا لا يقول حضرة النبى مرتين . يا مولانا يا صاحب المبخرة . نصلى على النبى بعد كلماتك ، لأن الله تعالى يقول بالامر « صلوا عليه وسلموا تسليما » غير أن لكل عبادة وقتها . وما تفعله أنت تشويش على معانى القرآن . عاد الشيخ يقرأ القرآن . وتذكرت الشيخ زكريا أحمد . كم قرأ لنا القرآن زمان . كان الشيخ زكريا أحمد رجلا تقيا يعرف الله . بدأ حياته بقراءة القرآن وانعقد له لواء التلحين بعد ذلك . وكان اذا صفت نفسه فى شهر رمضان ، جلس يقرأ لاصدقائه آيات من كتاب الله فأبكاهم من الخشوع . دخل يوما

أحد المساجد يستمع للقرآن وكان الشيخ يقرأ آية من آيات الوعيد الرهيبة ، كان يقرأ قوله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » وكان الحاضرون يقولون الله الله فى انسجام غريب يمتلىء بالرضا والفرح ، وفسر لنا الشيخ زكريا أحمد سر طرب الناس بآية من آيات التهـديد المهول ، قال : ان كثيرا من المشايخ لا يراعون أى مقام يرتلون به القرآن . هناك من يقرأ آيات النذير والوعيد بمقام السيكا . وهو مقام يوحى بالفرح ، أى أنه يؤديها بأسلوب يثير مشاعر الفرح ، ويخالف معنى الآية ، ثم يجىء نفس هذا الشيخ لآيات البشرى مثل حديثه تعالى عن الجنات التى تجرى من تحتها الانهار فيقرؤها بمقام الصبا وهو مقام يوحى بالحزن .

وهكذا لا يبلغ الشيخ من نفوس سامعيه الا حواس الطرب ، بينما يضيع عليهم المعانى فى الحالتين ، ولا يعطى الآيات حقها من الأداء الصحيح ، وهو أداء يزرع الخوف من آيات الوعيد ، ويملأ النفوس بالبشرى فى آيات التبشير .

استمعت للشيخ . لاحظت أن الناس تستمع الى ادائه ولا تستمع لمعنى ما يقول ، وكلما زاد احساسه بنفسه ، زاد من تلوين صوته وانساب به جميلا مستعرضا متنقلا بين المقامات . وراح الناس يهللون : الله الله يا سيدنا الشيخ ، والله يكرمك ، وخللى بالك مننا .

قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » فما بالنا نستمع الى القرآن فنهتز اهتزاز من يستمع لحفل غنائى قال تعالى: « واذا قرىء القرآن فاستمعو لـــه وأنصتوا لعلـــكم ترحمون » • نستمع ولا ننصت وانما نهيص تهييص ناس جمعهم حفل عرس •

قلت فى نفسى وأنا أتضاءل : اللهم اغفر لنا مجلسنا هـــذا ••

مدّعي التصوف



كنت خارجا من المسجد حين اصطدمت به .. لم أعرفه فى مبدأ الامر من لحيته التى أطلقها ، وملابس الشيخ التى يرتديها ، عهدى به أنه افندى . كان زميلا من زملاء الدراســـة . وكان زميلا من زملاء الروتين الحكومى فى مصلحة اخرى ، وفرقتنا الحياة كل فى اتجاه، لم يكد يرانى حتى أقبل يحتضننى ويقبلنى .

أين أنت يا رجل . مضى زمن على اللقاء الاخير . كيف حالك والاولاد ، كان واضحا من لهفته انه يريد أن يقول لى أشياء لا يستطيع حملها وحده من فرط الفرح . كان ينوى دخول المسجد ، فلما رآنى خارجا منه سار معى قليلا ، وادهشنى تصرفه ، ثم زادت دهشتى حين لاحظت ان خلفه ناسا يتبعونه . كان احدهم يحمل عصـــا ، والثانى يحمل حقيبة ، والثالث يحمل مسبحة ، وهم يسيرون جميعا وراءه .. يحتفظون بالمسافة بينهم وبينه ثابتة ، ملت على أذنه وهمست له :

ـــ هل أنت مطارد ؟

ضحك بكل صدره وقال همسا : هؤلاء أتباعى . لقد صرت شيخا لطريقة .

قلت له : غريب .

قال وهو يفرد قامته الضخمة ويمد يده للحيته فى حركة مهيبة :

ـــ ما غريب الا الشيطان ، مات أبى فى الريف وكان شيخا لطريقة فصرت شيخا لطريقة ، عـــدد أتباعى

يقدرون بالالوف ، أفضل من الارث وأفضل من الوظيفة .
سألته : كنت موظفا فى الحكومة .. هـل تركت وظيفتـ ....
قاطنى وهو يخفض من صوته :
ـ ضربتها بالحذاء القديم ذى النعل المستصلح من كاوتش سيارة على المعاش ، استغنيت عنهم وعن قرفهم ، يجب أن تزورنى ، ثمة احتفال صغير نقيمه فى البلدة كل ليلة ، أنت ضيف الشرف فى هذا الحفل لو حضرت أى يوم ، ستأكل الفت والقطايف وتحضر حلقة ذكر لطيفة ، سوف تشهد الآلاف يقبلون يدى ، تصور هذه اليد التى لم تمتد نحو أى خير ، ستراها وهم يقتتلون عليها من أجل البركة . يجب أن تقبل يـدى لو جئت .
قلت لنفسى أذهب اليه يوما وذهبت ..
فى طريقى اليه تراءى لى بيت الشعر الذى يقول :

أما الخيـام فانهـا كخيـامهم
وارى نسـاء الحى غير نسائها

ما أبعد الفرق بين التصوف اليوم والصوفية القديمة، قديما كانت الصوفية حرقة فى القلب . ثم صارت اليوم خرقة على البدن ، قديما كانت اسما لحال يقع فيـه العبد الزاهد ، ثم صارت اليوم رسما لموقف يدعيه ، كان الصوفى أبو عمر الزجاجى اذا كبر للصلاة تغير لون وجهه وشحب ، سئل لماذا يتغير لونك ، قال أخشى أن أفتتح صلاتى بخلاف الصدق ، فمن يقول الله أكبر وفى قلبه شىء أكبر منه أو قد كبر شخصا سواه على مرور الوقت ، فقد كذب نفسه على لسانه .

رحمك الله يا أبا عمرو ، لم يدركك زمان يقف فيه

الشيخ للصلاة فاذا كبر بدأ يجسب فى راسه أن الفت زمانه نضج ، وأن القطايف زمانها استوت ، فاذا هو يخطف صلاته خطفا ويهرع الى الطعام حيث يتأنى هنــاك .

رحم الله الامام أبا القاسم القشيرى تلميذ الصوفى ابى على الدقاق . يلاحظ القشيرى فى القــرن الرابع للهجرة أن جوانب كثيرة فى الفرق التى تزعم انها صوفية، قد دب اليها الفساد ، وسلك بعض المدعين مسالك لا تمت الى الدين ولا الى التصوف بصلة ، كما هو الشأن دائما فى المدعين المزيفين الذين يوجدون فى كل عصر وفى كل مصر . أشفق الامام القشيرى على القلوب أن تحسب أن أمر التصوف قد بنى قواعده على ما يرونه من فساد ، أو صار سلعة كما يشهد الناس من خيبة الاحفــاد ، فشمر عن ساعد الجد ، وكتب الرسالة القشيرية ، ولولا ذلك ما عرفنا أى نبل وعظمة كانت عليها حيــاة الصوفية الحقيقيين .

... ...

وصلت السيارة الى مكان الحفل ، فاقتادنى الرجال الى شيخ الطريقة ، البيت الريفى الضخم يضم عددا كبيرا يزيد على الألف ، ونحن نمر من حجرة الى حجرة حتى نصل الى حجرة سر الاسرار . أو كبيرهم أو شيخ الطريقة أو صاحبنا فى المدرسة والوظيفة . نهض واقفا حين رآنى أدخل الغرفة فانتصب الرجــال واقفــين احتراما .. مد الى صديقى يده فسلمت عليه ولكننى ــ من فرط هيبة النصب ــ وللنصب فى بلادنا هيبة ، ألفيت نفسى أنحنى عليها وأقبلها . كدت أضحك وأنا أفعل ثم تمالكت نفسى ، واجلسنى جواره وهو يهمس ضاحكا فى أذنى :

ــ سأوصي لك بالمشيخة بعد أن أموت فليس عندي ولد ولا بنت .

بدأت مراسم الحفل بأن وقف الشيخ المنشد ومعه عصا معدنية وفي يده مسبحة معدنية . وبدأ يضرب على العصا بالمسبحة في ايقاع ذاكر لطيف . ثم بدأ انشاده بقوله :

من كتر حبى فى النبى أنا سبت أشغالى .

من كتر حبى فى الحبيب المصطفى أنا سبت .. أنا سبت أشغالى .

وانفرط المنشد فى مونولوج طويل يتحدث فيه عن حبه للنبى وتضحياته من أجل هذا الحب . تحدث أنه ترك أشغاله وترك عياله وترك الدنيا ولم يعد له من عمل الا الحب . دهشت فى نفسى من حلاوة صوته ورداءة معانيه ، أيمكن ان يحب هذا الشيخ المدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما كان يحبه أبو بكر مثلا أو عمر ، وكلاهما لم يترك أشغاله من أجل النبى ، بل مكثا حتى آخر لحظة فى حياتهما يأكلان من عمل أيديهما ، بعدها بلحظات بدأ الشيخ يغير من نغمة الايقاع ، وزاد من سرعته ، فنهض الجالسون جميعا باستثناء شيخ الطريقة واستثنائى ، بدأوا يهتزون يمنة وهم يقولون .. الله .. ثم يهتزون يسرة وهم يقولون الله .. ثم زاد الشيخ الذى يمسك لهم الايقاع من سرعته فازدادوا سرعة ، ولم تعد تستطيع ان تميز كلمة الجلالة التى ينطقونها وهم يترقصون ، انمـــا هى كلمة آهاه التى تميزها منهم ، وأضاف أحد الاتباع مزيدا من البخور الهندى فى المدفأة فعبقت الحجرة

بأنفاس جزيرة جاوه المعطرة ، وسال العرق على جباه الراقصين ، وازدادت السرعة ، تأملت هذا المشهد مثلما يتأمل المرء جزءا من مسرحية هزلية . أهذا هو ذكر الله عزوجل ..

... ...

ان الشبلى وهو واحد من الصوفية الكبار يدخل يوما على الامام الصوفى الجنيد ، يدخل عليه متواجدا كعادة الصوفية . ويساله الجنيد بغضب صارم وحزم عنيف :

ـ ان كنت فى حضرة الله فمن سوء الأدب أن تهتز أو تتواجد ، وان لم تكن فى حضرة الله فبماذا ظفرت حتى تتواجد ؟ .

ويهتف الشبلى ساعتها :

ـ التوبة يا امام .

... ...

استمر الذكر على أنواع مختلفة . واستمر الانشاد يعلو ثم يهبط ، وكان صاحب العصا المعدنية كلما لاحظ اجهاد الرجال أبطأ فى الايقاع حتى يتيح لهم فرصة للراحة . أحسست بالجوع الشديد . فقلت لشيخ الطريقة وصديق الدراسة :

ـ أنا جعت ..

قال : من صبر ظفر .. لم يات أخطر ما فى الحفل بعد . لم تأت الفتة ..

صرخ بصوت ممطوط .. **وحـدووووووه .**

سكت المنشدون والذاكرون والراقصون وقالوا :

ـ لا اله الا هو ..

قال صديقى شيخ الطريقة : من قالها دخل الجنة .. وكأنما كانت كلمته اشارة الى الطباخين أن يدخلوا ، فانفتح الباب ودخل اربعة يحملون طشتا من طشوت الغسيل النحاسية اللامعة ، وقد امتلأ بالفتة وهراديم اللحم والبخار يتصاعد منه .

واصطرع البخار المعطر مع بخار اللحم وانهزمت جزيرة جاوه . وضعت الصينية وسط الغرفة . لست أعرف من هو الفيلسوف أو المفكر الذى قال اننا شعب عاطفى . تأكدت من ذلك حين امتدت العيون الى الفته ، وراحت تحج حولها ، وتطوف بها ، وتتأملها بنظرات شوق جائع يشحب جواره شوق قيس الى ليلى .. ومد شيخ الطريقة يده الى الصينية فامتدت الايدى بعده احتراما . وبدأ الهجوم . تأكدت أن هناك علاقة وثيقة بين طريقتهم فى الاكل وأسلوبهم فى الذكر . ان رنين الملاعق المكتوم فى الصينية يصنع ايقاعا سريعا يشبه الايقاع الذى ختموا به الذكر ، ثم أبطأ الايقاع هنا مثلما ابطأ هناك .. ثم سال العرق هنا مثلما سال هناك .. ثم انثنى الرجال الى الخلف ومسحوا أيديهم فى لحاهم وقالوا :

— اللهم أطعمنا من نعيم الجنة ..

وخيل الى أننى أستمع وهم يأكلون الى سيمفونية خاصة .. كلمات هذه السيمفونية — وليس فى السيمفونيات كلمات — ولكنها فى بلدنا سوف تخضع لما نريده وتكون لها كلمات ..

كلمات هذه السيمفونية الدراويشى الخاصة من تأليف فؤاد حداد ..

على جبـــل الشوق الرمضـــانى
أنا شفت لى قرن خروف ضانى
شـــايل قصعه
تنتى وراه ســـــاعتين أســـعى
واخـــيرا جــت فى أحضـــــانى
• • •
من حبــك يا ابيــض مابانامشى
تقريبـــــا ما تقريبـــــانشى
قـــدامى أمـــــامى وأنـــا بامشى
يا أنجـــــر فت أنا ما اتلفـــت
لغـــــيرك أبــــدا فى زمـــــانى
• • •
شـــــمرت ولا يق تتشـــــميرى
وحيـــــاة الــكم الــكشميرى
ومزاجى كاته معـــــاش مـــيرى
فى ميعـــاده يوافى يزيدنى عـــوافى
ياخـــدنى لفـــوق
على جبل الشوق ••
• • •
وزرعـــت عيـــونى الشـــتاله
فى الـــــرز تـــلالا تتتـــــالى
ويا ريح الخـــل اذا عقلى اختـــل
حيعبـــدله عمـــى الكنفـــانى
• • •
وفـــردت النيــــة المتنيـــــة
بالمـــرقة مريئـــــا وهنيـــــا

مبتسمـــة ونسـمة ونورانيـــة
ثم التعمـــيره هـــديه أمـيريه
فى غـــاية الـــذوق
على جبل الشوق

بعد انتهاء الفته .. قال صديقى شيخ الطريقة :
ــ الحلواء يا ولـــد ..

قال صاحب الفضيلة الاستاذ على الجندى فى كتابه الجميل الممتع « قرة العين فى رمضان والعيدين » قال فى الفصل الخامس والعشرين تحت عنوان « أمة حلوة تحب الحلواء » .. قال :

ــ « أمتنا العربية ــ حرسها الله ــ أمة حلوة تحب الحلواء . يقول معمر العرب أبو عبيد ، يقول العرب : كل طعام لا حلواء فيه فهو خداج « يعنى فهو ناقص » .

تذكرت هذه الكلمات حين قال صديقى شيخ الطريقة:
ــ هات الحلواء يا ولد . نريك الليلة أنواعا من الحلواء لم ترها قط فى منامك . تحب الكنافة أم القطايف .

قلت : احب الكنافة .

قال : وضعت حبك فى غير موضعه .. الم تعلم بأن القطايف قالت يوما للكنافة بيتين من الشعر ، لم تستطع بعدهما الكنافة رفع رأسها .

قلت : غريب .

قال : ما غريب الا الشيطان . ويقال ان الكنافة بعد سماع البيتين كاد كبدها ينهرى من الحسد .

قلت : ماذا قالت القطايف للكنافة ؟

قال : القطايف مذكر والكنافة مؤنث وهذا للعلم ثم أنشد :

قال القطايف للكنافة ما بالى أراك رقيقة الجسد
أنا بالقلوب حلاوتى حشيت فتقطعى من كثرة الحسد

قلت : فماذا قالت الكنافة بعد هذين البيتين يا مولاى؟

قال : سكتت الكنافة تماما . . . ارتج عليها وخرست، قيل أنها طقت من الحسد وماتت .

لم يكد الشيخ ينهى كلماته حتى حضرت ثلاث صوانى تسبح فى السمن والعسل وهى تمتلىء بالقطايف . قال الشيخ وكأنه يجاهد فى سبيل الله :

ـــ بسم الله توكلنا عليه .

قالها شيخ الطريقة وزام مثل أسد عظيم جائع ومد يده لاحدى القطايف السمينة الحبلى بالفستق واللوز وعين الجمل . ورفعها من الطبق فراح العسل يشر منها على ذقنه وهو يتاويها فى فمه . ابتلعها الشيخ مرة واحدة وقال لى همسا :

ـــ نربى لحيتنا مثل ساتر يمنع العسل ان يسقط على الجبة ويلوث الملابس .

لــــماذا لا تأكل ؟

لم استطع الرد عليه . كنت فى حـــال من الشبع والاجهاد بعد معركة « الفتة » بحيث لم أكن قادرا على الكلام . أحسست أننى أموت . كان الطعام قد رقــد بثقله على قلبى . ولم اعد قادرا على التنفس . وأردت أن اقرأ الشهادتين قبل ان أموت فلم استطع من فرط الشبع أن أتذكرهما ، وظهرت أول كرامة من كرامات الشيخ ليلتها حين قال لى :

ـــ يا رجل . لن تموت . لا تحدث نفسك عن الموت أبدا وأمامك هذه القطايف .

الا تعرف ماذا قال جحظة البرمكى امام احدى صوانى القطايف .. أقول لك ماذا قال .. دعاه أحد أصدقائه للسحور عنده .. ووضع أمامه القطايف .. فلما رآه قد انقض انقضاضا عموديا ، وكاد ينسفها جميعا . أوجعه قلبه فحذره من أن يستمر فى الأكل ، وراح يخوفه من الموت ، فقال جحظة البرمكى ولم يكن شاعرا ، ولكن الله فتح عليه بثلاثة أبيات من الشعر الخالد . قال :

دعـــانى صـــديق لى لاكل القطايف
فأمعنت فيهـــا آمنـــا غـــير خائف
فقال وقـــد أوجعت بالاكل قلبـــــه
رويدك مهـــلا فهى احـــدى المتالف
فقلت لـــه ما ان سمعنـــا بهـــالك
ينادى عليـــه : يا قتيـــل القطايف

وهكذا مددت يدى الى القطايف وبدأت آكل . كانت الحلواء حلوة فعلا فلم أقاوم . قلت لنفسى ما أغرب حبنا للحلواء . وتراءى لى هذا الموال الذى يغنيه العامة عن مصر ويقولون فيه « أصل اللى بنى مصر كان فى الاصل حلوانى » . لولا حبنا للحلواء ما تصورنا أن الذى بنى مصر كان حلوانيا ، ولم يكن هو الملك مينا نارمر .

انتهت الليلة وانصرفت . زحفت على موجة غريبة من الحزن وأنا عائد . جلس جوارى أحد أتباع الشيخ يوصلنى بسيارة الشيخ الخصوصية . راح التـــابع يحدثنى طوال الطريق عن كرامات الشيخ الذى أعرفه حق المعرفة .

قال لى انه كان يزور مريضا فى يوم فاعترضه مجرى من المـــاء فسار على المـــاء ، وكان يريد السفر يوما

الى بنها لمقابلة أحد الأولياء وكان الميعاد قد أزف فطار فى الهواء . نظرت الى التابع بدهشة ، هل يتصور أننى زبون ، هل تبدو على وجهى علائم البلاهة ، كنت أهز له رأسى وأتشاغل عنه بتأمل القمر من نافـذة السيارة . كان القمر حزينا وشاحبا وحوله غلالة من التراب الغاضب . أحس بانتماء القمر لى أكثر مما يحس الذين وضعوا أقدامهم فوقه . كأننى واقع فى حبه ، بينما يتزوج هو غيرى ، يا صديقى القمر ، عادت الفرنجة من زيارتك للمرة الثانية ، ولم نتفق كمسلمين على رؤية هلالك ، تنازعنا الأمر فيما بيننا ، فمن قائل ظهر هلاله . ومن قائل لم يظهر ، ومن قائل جاء الهلال منخفضـا فلم يره رادار القلوب ، ومن قائل بل ظهر ورأيناه . اى بؤس . لم يكن الاسلام هكذا حين بدأ ، جرى ذهنى للحضارة الاسلامية التى قدمت فى شبابها جـابر بن حيان فى الكيمياء ، وابن الهيثم فى الطبيعيات ، وأبا بكر الرازى فى الطب ، وابن سيناء فى الفلسفة والجراحة ، والغزالى فى مباحث الروح ، وابن رشد فى الفلسفة العقلية ، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ . قلت لنفسى قدمت حضارتنا هؤلاء حين كان أمراء المسلمين يأكلون الخبز الجاف ويغمسونه فى الزيت ويبكون لان فى رعاياهم من لا يأكل اللحم . قدمت حضارتنا أساس المنهج العلمى الذى يعتمد على الملاحظة والتجربة ، وصل المسلمون الى هذا المنهج حين كانوا جادين ، قبل أن ينشغلوا بتجربة القطايف وملاحظة الكنافة ولهط قمر الدين وضرب المسلمين الحقيقيين . لم يزل تابع الشيخ يتحدث معى عن كرامات الشيخ وعجائبه ، التفت اليه وسألته فجأة :

ـــ ما رأيك يا مولاى فيمن صعدوا الى القمر ؟

قال تابع الشيخ : لم يصعد أحد الى القمر .
قلت : ارسلوا صورا من هناك .
قال : يكذبون يا بيك فلا تصدقهم .
قلت فى نفسى : بمثلك يا عزيزى المشعوذ يبتعد الناس عن روح الاسلام ، وبمثلك سبقنا الذين سبقوا الى القمر .

وقديما كان الاسلام لا يرضى من رجاله أقل من مرتبة الامتياز فى كل شىء ، فى العلم أو فى الديانة ، واليوم يشيع المجاذيب أن من قال « حى » بعد حياة حافلة بالذنوب دخل الجنة .

ورد فى الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » . ولفظ القوة عام ينبسط على العلوم والفلسفة والتاريخ والآداب والحروب وكل شىء ، هو دعوة كاملة الى القوة ، دعوة بغيرها ينزوى الاسلام وتفقد أعلامه نبضها العظيم القديم الموحى .

حدث هذا زمان بينما يدعو المجاذيب اليوم بقولهم : « اللهم اشغل الفرنجة بالعلم لكى نتفرغ نحن لعبادتك » .

وهذا أقسى أنواع الاساءة الى الدين ، رحم الله أيام الصدر الاول من الاسلام ، رحم الله أعظم أيام مرت فى تاريخ البشرية .

نعست بقية الطريق فى السيارة .

هو نوم الغم والكمد والله أعلم .

لقاء إبليس



مثل ضوء أخضر خاطف أحسست أنه موجــود . شعرت فجأة أن معى فى الغرفة شيئا أو شخصا ما .. لم أكن قد حددت بعد هل هو شىء أو شخص . لم أرفع رأسى من أوراق الكتاب الاصفر الذى اقرأ فيه . كان الكتاب من كتب السحر القديمة المهترئة ذات الاوراق الصفراء . وكنت أقرأ فى الصفحة السابعة والستين عن الشيطان حين أحسست أنه هناك . يجلس على الكنبة المواجهة وباب الغرفة مغلق .. كيف دخل . لست أعرف . رفعت رأسى فرأيت رجلا يصعب تحديد عمره . ملابسه من نوع يوحى بانه كان من أصل طيب ثم جار عليه الزمن .

سألته بخوف : انت هو ؟

قال بأدب : ابليس .

قلت : لو قرأت آية من القرآن هل تنصرف .

قال ابليس : لو قرأتها بصدق .. أنصرف على الفور.

قلت : هل تحرقك الآية .

قال ابليس : لكى تحرقنى الآية ، يجب أن تعمل بها أولا .

قلت : لن اقرأها . أريد ان اتحدث معك . كيف

دخلت . اقصد كيف جئت . اعنى هل انت موجود فعلا فوق الكنبة أم فى ذهني فقط .

قال ابليس : لا تعقد الأمور . انت موظف فعلا . هذا تفكير موظف . ذهنك جزء من المادة والكنبة جزء من المادة ، ولا فرق بين ذهنك وقالب الطوب فى الرصيفة المكسور امام منزلك .

قلت : هذه نكتة فى لغتنا . تقول ان عقلى مثل الحجر . هل تمزح معى ؟

قال ابليس : انا لا أمزح ابدا . لم أضحك من يوم ان طردت من السماء .

قلت : يدهشنى مجيئك المفاجىء . يقال انك تدخل السجن فى رمضان ؟

قال ابليس : ليست المسألة بهذا التحديد الانسانى المطلق .. شهر رمضان هو شهر الاجازة الصيفية بالنسبة لى مثل شهر اغسطس عندكم .. يقل العمل طوال الشهر . ليست الدنيا كلها مؤمنة كما تعرف . ونحن لا نكف عن العمل . على العكس لقد زادت أعباؤنا ومشاكلنا .

قلت : فرصة طيبة جدا أننى رايتك . من زمن وانا احلم أن ادردش معك .

قال ابليس : انا ضجر مثلك واريد أن ادردش ، رايتك تكتب مذكرات فاطر تحت عنوان مذكرات صائم فقلت أزورك .

قلت : التقت رغبتنا فى الدردشة .. فى حياتك آلاف الاشياء الغامضة التى أحب أن أعرف جوابا لها ؟

قال ابليس : ليس فى حياتى شىء غامض . الغموض صفة انسانية .

قلت : أتعتقد اذن أنك واضح .

قال ابليس : كل الوضوح . .لقد أعلنت رفضى منذ البداية .. أعلنته أمام الله .. هل يجرؤ أحدكم من البشر أن يعلن رفضه أمام أى سلطان حقير من سلاطين الارض ، أى شىء تراه غامضا فى .

قلت : اننا نقدر صراحتك كثيرا ، لكنك بعد ذلك تتخفى فى آلاف الاشكال والصور ولا تتقدم بهذا الوضوح للناس .

قال ابليس : هذه أصول المهنة .. تكنولوجيا الوسوسة .. لقد تقدمت العلوم فهل تريد أن أقف مكانى ليسبقنى الخير .. أى شىء تحب أن أوضحه لك بعد ذلك .... ؟

قلت : وجودك ذاته .. هل أنت موجود امامى فعلا أم مجرد فكرة فى رأسى .

قال ابليس : ايهما أهم ، أن أكون موجودا فى الدنيا ولا تعرف أنت عنى شيئا ، أم أكون موجودا فى ذهنك وليس لى وجود خارجه ..

قلت : تسأل أسئلة غريبة .. هل أنت جسد أم فكرة .

قال ابليس : أنت مجادل كأبناء عدوى القديم .. فى الدنيا آلاف الاجساد بغير أفكار ، هل تعتقد أن لها أى قيمة .. وهناك أفكار ليست لها أجساد اليوم .. وربما تتجسد بعد ألف سنة أو بعد لحظة .

قلت : انت تتفلسف على .. لمــاذا لم يرك أحد من ابناء آدم ؟

قال ابليس : هل يرى أحد من ابنـــاء آدم موجات الصوت وهى تجرى فى الفضاء .. هل ترون الموجات التى يلتقطها الراديو .. لمــاذا لا تنكرونها اذن ؟

قلت لابليس : كثيرا ما فكرت فى طفولتك .. هل كانت لك طفولتك مثل كل المخلوقات .. متأسف .. أقصد مثل كل الافكار .

قال ابليس : لكل مخلوق طفولته .

قلت : كنت طفلا شقيا ؟

قال ابليس : على العكس .. كنت أهدأ الاطفال فى مدرسة الجن الابتدائية المشتركة .. كانت أياما جميلة .. تعلمت فيها الكبرياء منذ نعومة أصابعى .

رفضت أن أجيب على امتحان فى الحساب ذات يوم . سلمت ورقتى سوداء بغير اجابة . سألنى الممتحن : هل تدرى حل المسائل ؟. قلت : أعرف حلها . قال : لماذا لم تجب اذن ؟. قلت : أنا خير منه .. من الممتحن الذى وضع أسئلة الامتحان . هذه أسئلة ساذجة لا تكشف عن شىء .

قلت لابليس : واخذت صفرا فى الامتحان .

قال : لم أكن مهتما بالنتائج .. كان أخطر ما يهمنى ساعتها أن أسجل موقفى من الممتحن .

قلت لابليس : نسيت أن أسألك أهم سؤال . لمــاذا رفضت أن تسجد لآدم ؟

تقلص وجه الشيطان بألم رهيب حين ذكرت أمامه اسم آدم . وشجعنى شحوب وجهه المفاجىء على الاستمرار فى الحديث فقلت له :

ـــ لقد أوحلتنا فى الدنيا وضيعت علينا الجنة وأفقدت نفسك مستقبلك فى ذات الوقت . سأعتبرك صديقا وارفع التكليف وأقول لك : الله يلعنك فقد تسببت فى اخراجنا من الجنة .

قال ابليس : لسانك طويل شأن أبناء آدم . ولا أعتبر نفسى صديقك ، انما أعتبرك من اتباعى حين تتبعنى . ولهذا سوف تجدنى آسفا لعدم امكان السماح لك برفع الكلفة واهانتى .. واذا لم تقدم لى اعتذارا على الفور فسوف أنسحب .

قلت : يا سيد لوسيفر ، يا طاووس الجن السابق . أنا آسف ، لم أكن اعرف أنك بهذه الكبرياء المخيفة ، وتنقصك روح الفكاهة لهذا الحد .. لقد كنت أهزر معك يا ابليس .

قال ابليس : ارجوك أن تضيف كلمة سيد الى اسمى ولا تنطقه مجردا . لقد كنت سيدا حقيقيا قبل خلق أبيك الاول .

قلت لابليس : هل تعتقد حقيقة أنك أفضل منه . أقصد سيدنا آدم .

قال : سيدك أنت وحدك .

قلت : لم تجب عن سؤالى .

قال ابليس : مسألة اينا أفضل ، أنا أم آدم ، مسألة فصل فيها خالقنا . وهى مسألة معقدة بالنسبة لى ، قبل خلق آدم كنت مشروعا جليلا . بعد خلقه وصدور الامر بالسجود له صرت مشروعا يختلف . صرت فكرة تتبع آدم .. صرت فكرة مناوئة .

قلت لابليس : أضعت مستقبلنا وبسببك خرجنا من الجنة .

قال : بسببكم طردت من رحمة الله .

قلت : لماذا لم تسجد فتريحنا وتريح نفسك ؟

قال : كنت أجرب حريتى .

قلت : كأن الله سبحانه يستطيع أن يحولك الى تراب قبل أن ترفض السجود لآدم .

قال : لو أن الله قتلنى قبل أن أرفض السجود لعرفت انه يحبنى ، غير أننى أعرف أن الله لا يحبنى . الله يعطى الحرية لكل مخلوقاته . من يحبهم ومن يكرههم . ليس الله سلطانا من سلاطين الارض الظالمين الذين يحبسون من يرفض أوامرهم . الله أكبر وأعظم .

قلت : هذا كلام مؤمنين يا سيد ابليس . هل بلغ نفاقك هذا الحد . أن تكون شيطانا وتتكلم بكلام المؤمنين ؟

قال : لست منافقا . لو كنت منافقا لسجدت لآدم . أنا مؤمن بالله ولست مؤمنا بآدم . من كان فى مثل مكانى لابد أن يؤمن بالله لأنه رأى عظمته ، غير أنه يعتبر كافرا حين يعصى اى أمر لله . يختلف معنى الايمان من جنس الى جنس . بالنسبة للجن هو مفهوم معين ، وبالنسبة لأبناء آدم هو مفهوم آخر . عندنا نحن الجن . نؤمن بوجود الخالق لأننا نعاين قدرته ولانستطيع المماراة أو انكاره . عندكم الايمان بالغيب . والكافر عندكم هو الذى ينكر وجود الله أو يعبد معه غيره . والكافر عندنا هو من يعصى لله أمرا ، وعندكم العصيان له توبة تجعله كأن لم يكن . وعندنا العصيان فصل نهائى من رحمة الله ولا توبة فيه .

قلت : أخرجتنا من الجنة .

قال : أفهم تفكيرك البيروقراطى .. هل كنت تريد

أن ترث الجنة . هل تتصور أن الجنة تكية للموظفين الكسالى والمجاذيب الراقصين .. كم أود أن أضحك . غير أننى عاجز .

قلت : لمـــاذا لا تضحك ؟

قال : لا أعرف كيف أضحك . فمى لا يطاوعنى على الضحك . تجمدت ملامحى عند الاشراف على البكاء ولا بكاء . .

قلت : سوف تعذرنى فى توجيه هذا السؤال اليك .. انه سؤال محرج .. لمـــاذا تختار دائما هذه المهنـــة السخيفة .. أقصد موضوع النساء والرجال .. و.. أنت تفهم قصدى .

قال : تأكدت الان انك لست ذكيا .. صدقنى .. ليس هذا عملى . أنا شيطان فى الدرجة الثانية .. هذا الذى تتحدث عنه من عمل الشياطين الكتبة فى الدرجة الحادية عشرة . الشياطين الظهورات . هم المكلفون بموضوع المراة .

قلت : غريبة . عندكم درجات وروتين مثلنا ؟

قال : عندنا درجات وروتين .. وقد اشتد الغـــلاء ولم أنل علاوة منذ ثلاثمائة سنة . وأنا مظلوم .

قلت : لمـــاذا يبدو فى عينيك هذا الوهج المتكبر الحزين ؟

قال : لانه لا أمل لى فى رحمة الله .

قلت لابليس : لم اقدم اليك شيئا .. هل تشرب شيئا . شاى . قهوة . جنزبيل . قرفة .

قال : مشروبات تقليدية .

قلت : ليس عندنا قمر الدين . أنت تعرف صعوبة الحصول عليه .

قال : أنا الذى سميته قمر الدين .

قلت : دوختنى من أجل البحث عن سر تسميته بقمر الدين . اخيرا فهمت . لكن لماذا منحته هذا الاسم . ما هى علاقة قمر الدين بالدين . ولماذا يشربه الناس فى رمضان ؟

قال : لا علاقة له بالدين . هذه تسمية تجارية . أما لماذا يشربه الناس فى رمضان فهذا سؤال توجهه الى الذين يشربونه فى رمضان .

... ...

... ...

أشعلت سيجارتى ورحت أرقب ابليس .

كان قد استراح فى جلسته وبدأ يتصرف كأنه فى بيته . وضع ساقا فوق ساق وعقد يديه على صدره وراح يتأملنى بنظرات حزينة . نوع غريب من الحزن الذى لا يمكن فهمه انسانيا .

ما أغرب هذا المخلوق المسمى ابليس .. ظرف ابن آدم انه يتعامل مع الخير والشر ، مع الفضيلة والرذيلة ، لطفه انه واسع الافق ، أما ابليس وابناؤه فجامدون رجعيون لا يتعاملون الا مع الشر ، مع وجهة نظر واحدة . ويستطيع ابن آدم مهما يبلغ من شروره أن يقول :

ـــ لقد بكيت يوما خوفا من الله .

أما ابليس فلا يستطيع أن يذكر لنفسه عمل خير واحدا .

أخفيت مشاعرى داخل عقلى وقلت لابليس :

ـــ يتحدث الناس عن انتشار الشر هذه الايام . أريد أن أعرف منك هل يزيد الشر أم ينقص ؟

قال : يخضع الشر لقانون العرض والطلب . أحيانا

يزيد وأحيانا ينقص . فى كل زمان يقول المصلحون ان الشر قد زاد .. ويقول المفسدون أن الشر قد نقص والاثنان على خطأ .

قلت : تبذل مجهودا ليزيد الشر .. هذه مهمتك .

قال : نحن نعرض ما عندنا من بضاعة . الكفر والشرك والنفاق والكذب والسرقة والرشوة والموضة وركوب الاتوبيس .. الى آخر الشرور . نعرض ماعندنا ونتفنن فى عرضه ، لكننا لا نجبر احدا عليه . ليس لنا على الناس سلطان القهر او الالزام . قال أبونا ابليس : « ما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى » نحن ندعو فقط ، وأمثالك يقبلون على ما نعرض ، ان تهيئة الظروف هى عملنا .

قلت له : ما دمنا نتحدث عن تهيئة الظروف.. فلنعرج على موضوع النساء والرجال وتهيئة الظروف لذلك .

قال : ذهنك متخلف حقا ومتمركز حول موضوع النساء والرجال . هذه سمة من سمات التخلف العقلى والعاطفى . هذا من عمل الشياطين غير المثبتين على درجة كما قلت لك . هذا موضوع تافه .

قلت له : قد لا يهمك الموضوع لكنه يهمنى . هل تمانع فى الحديث عنه .

قال : ابـــدا .

قلت : هل تعتقد أن النساء هن المسئولات أم الرجال. أقصد هل تظن .

قاطعنى ابليس : هل تعرف اننى أعجب أحيانا لنفاق ابن آدم ، وقدرته على مسح ذنوبه فى ذقننا نحن ، أو ذقن النساء . يقول الرجل لابنه عندما يكبر : اتلحلح يا ولد وصادق فتاة ولا تكن مثل القفل . ويقول نفس

الرجل لابنته : اذبحك لو رايتك تكلمين أحدا أو تنظرين من الشباك .. يرتكب الرجل ذنوبه فيقول عنه المجتمع انه دبور وجدع ، فاذا أخطأت المرأة مرة واحدة وصمها المجتمع واعتبرت ساقطة ، يتزوج الرجل ثم يسمح لنفسه بالحرية المطلقة .. فى نفس الوقت الذى يطالب فيه زوجته بالوفاء المطلق . لم يزل الرجل فى المجتمعات المتخلفة يعتبر أن اخطاءه حلال واخطاء النساء هى الحرام .

قلت له : تدافع عن النساء كأنك امرأة .

قال : فهمتنى خطأ . انا لا ادافع عن احد . المرأة والرجل عدوان لى . كل ما فى الامر أن تطور العمر بالشيطان يجعله يضع يديه على أشياء جديدة . مثالها هذا النفاق الذى يحيرنا .

قلت لابليس : لا يبدو انك راض عن عملك .. الا تجد اى لذة فى العمل .

قال : العمل هو العمل فى كل مكان .. مسئوليات ومتاعب . ان مأساتى الخاصة اننى رفضت أن أسجد لرجل ، فاذا بى أصير تبعا له ولا أشغل نفسى الا به .. اى بؤس ؟.

قلت لابليس : لماذا لا تحاول أن تنسى آدم .

قال ابليس : انسى .. هل جننت ؟. ان مرور الوقت يزيد الحادث رسوخا فى ذهنى ويزيد قلبى وجعا .. انا مخلوق لا امل لى فى رحمة الله .. ان فكرة انعدام الامل فى رحمة الله تطلق مواهبى كى أنتقم .

قلت : لماذا لا تفكر فى شىء آخر غير الانتقام .. لماذا لا تبحث لك عن هواية تشغل بها وقتك وتتركنا فى حالنا .

قال ابليس : هواية .. أبحث لنفسي عن هواية .. ان هوايتى هى السياسة .. ان عالم السياسة بتياراته هو هوايتى .. لقد كان قتل كنيدى عملا سياسيا شاركت فيه . لقد قتلته مع أكثر من مؤسسة من مؤسسات المخابرات والمباحث والبوليس الامريكى ورجال الصناعة .

قلت : لا اقصد ذلك .. أقصد أن تبحث لنفسك عن هواية بعيدة عنـا ..

قال : الانسان عملى وهوايتى فى نفس الوقت .

قلت : الم تفكر أبدا يا سيد ابليس فى أن رفض أبيك السجود لآدم كان مقدرا من قبل ومعروفا .

قال : تقصد الوجه الثانى من المأساة .. اللعنة .

قلت : لا أفهمك .

قال : هذا ما أفكر فيه طيلة الوقت .. كان الله يعلم أننى سأرفض السجود .. سأتحول الى الشر المحض . لو علمت أنا أن الله يعلم بما سيكون فربما كان لى تصرف آخر .. المأساة ان الله يعلم ما بنفسى وانا لا أعرف ما فى نفسه .

قلت : أكنت تحلم بأن تخدع الخالق .

قال : لقد تصورت أننى خدعته بعبادتى آلاف السنين حتى وصلت الى مرتبة الوقوف مع الملائكة .. كنت واهما .. كان يعرف أن فى نفسى خيطا من الرياء وأنا أعبده . كان يعرف أننى أعبده لأترقى . لم أكن أعبده لذاته .. انما عبدته بسبب ما تمنحه العبادة من كبرياء ومجد .. كان هذا شيئا لا تعرفه زوجتى ولا يعرفه أصدق أصدقائى .. كيف عرفه الخالق ..

قلت : يقولون فى الحواديت أنك ضحكت على عقل حواء فأقنعت آدم بالاكل من الشجرة .

قال : أنا لا أعرف حواء . لقد أقنعت آدم .
قلت : كيف ؟
قال : بعثت له موجة تتمثل فى شكل سؤال .. لماذا نهاك الله أن تأكل من هذه الشجرة .. من تظلم لو أكلت من الشجرة .. هل تظلم نفسك أم تظلم الشجرة .
قلت : وبعــدين .
قال : ولا قبلين .. ظل آدم بعقله البشرى يتساءل ويفكر ويحار .. حتى اذا نضج قلت له : ان الله نهاك عن الاكل من الشجرة حتى لا تكون ملكا خالدا .
قلت له : وصدق آدم ؟

قال ابليس : عيب آدم انه آدم .. طبيعته ركبت من مادة الطين وروحه نفحة من الله . والصراع بين الطين والجلال لا يتوقف .. وليس من الضرورى أن يهزم الجلال الطين .. ما أعظم المعارك التى سيخوضها الطين وينتصر ضد أعظم ما فى الوجود من قيم .. هذه مهمتى .

قلت لابليس : هل صدق آدم ان الله نهاه عن الاكل من الشجرة حتى لا يكون ملكا او يخلد .
قال ابليس : نعم .. يصدق ذلك آدم .. آدم انسان .. ومشكلته الاولى أنه مخلوق كتب عليه الموت .. والخلود رغبة مشتهاه .. وآدم صنع من الطين .. ومشكلته أنه يريد أن يتحول الى النور الذى صنعت منه الملائكة .. هذه رغبة مشتهاة هى الاخرى .
قلت : واذن .؟

قال ابليس : واذن يصدق .. على الفور .. بلا تردد .. ربما يتردد .. ربما يفكر .. ربما يخاف .. ربما ينشب الصراع فى قلبه .. لكنه فى النهاية سوف يأكل

من الشجرة . آدم مخلوق ليعبد ويعصى .. خلقت الملائكة لتعبد فقط .. وخلقت أنا لأعصي فقط .. حتى عبادتى القديمة كانت تضاف الى رصيد السيئات . كانت عبادة الرياء والكبرياء .. اللعنة على كل شيء ..

قلت له : لماذا تقول اللعنة على كل شيء .

قال ابليس : هذه عادة كسبتها من يوم أن طردت من السماء .. طردت مشيعا باللعنة وانا أوزع لعنتى كرد فعل .

قلت : يرسمون لك صورا بقرون وحوافر ووجه قميء .. لماذا ؟

قال : هذه صور ابناء آدم .. صورة لبعض نفوس ابناء آدم .. هل ترى لى قرونا وحوافر ؟

قلت : أبدا .. هل تعتبرنى متطفلا لو سألتك عن احلامك ؟

قال : احلامى .. لا اعرف معنى لهذه الكلمة .

قلت : أقصد آمالك .

قال : ليست لى آمال .

قلت : الجحيم هو المكان الذى ينعدم فيه الأمل .

قال : انا فى الجحيم منذ آلاف السنين . هذا هو الفرق بيننا نحن الشياطين وبينكم ، يرتكب الواحد منكم كل البلايا والرزايا والمصائب ، ثم يبكى ويتوب فى مثل هذه الايام من شهر رمضان ، فيقبل الله توبته ويذهب عملنا هدرا . الذى تبنيه نحن فى سنة تقومون بهدمه فى العشر الاواخر من رمضان بمنتهى البساطة .

قلت : الم تبك ابدا ؟

قال : أدفع نصف ملكى مقابل دمعة واحدة .. البكاء توبة ، وباب التوبة قد أغلق أمامنا نهائيا .. اغلقه

جدنا ابليس عليه لعنة الله .
قلت : تلعن جدك بهذه البساطة .
قال : نقول عن الميت فى عرفنا يلعنه الله كما تقولون فى لغتكم يرحمه الله .
قلت له : من هــو الانسان الذى غاظك اكثر فى الوجود ؟
قال : أبو نواس عليه اللعنة .. قاسمته حياته ثم وصمنى ببيتين من الشعر :
تذكرت ما قاله أبو نواس عن ابليس ..

عجبت من ابليس فى تيهــــه
وسوء ما أظهـــــر من نيتـــه
تــاه على آدم فى سجــــدة
وصـــــار قــوادا لذريتــــه

قلت وأنا أضحك : رجل ظريف .
قال وهو يكشر : بل رجل سافل .. بعد كل ما فعلته من أجله ..
قلت : بماذا أحسست حين أحرق المسجد الاقصى .
قال : شربت كأسا ودخنت سيجـــارة .. سررت قليلا .. مبدؤنا العام ضد المساجد على طول الخط ..
قلت : ما رأيك فى الذين صعدوا الى القمر ؟
قال : هم أبناء حضارة صديقة . يؤمنون بالمادة مثلما نفعل . غير اننى لست افهم سر هذه الضجة الهائلة عن الصعود للقمر .. ان أصغر عيالى يصعدون الى القمر ويلعبون فيه كل يوم لعبة الاستغماية .
قلت لابليس : ما هو اخطر عمل تحقق فيه ذاتك ؟
قال : عملنا الأساسى هو اعطاء الناس صورة خاطئة عن الله . هو حمل اليأس اليهم من رحمة الله ..

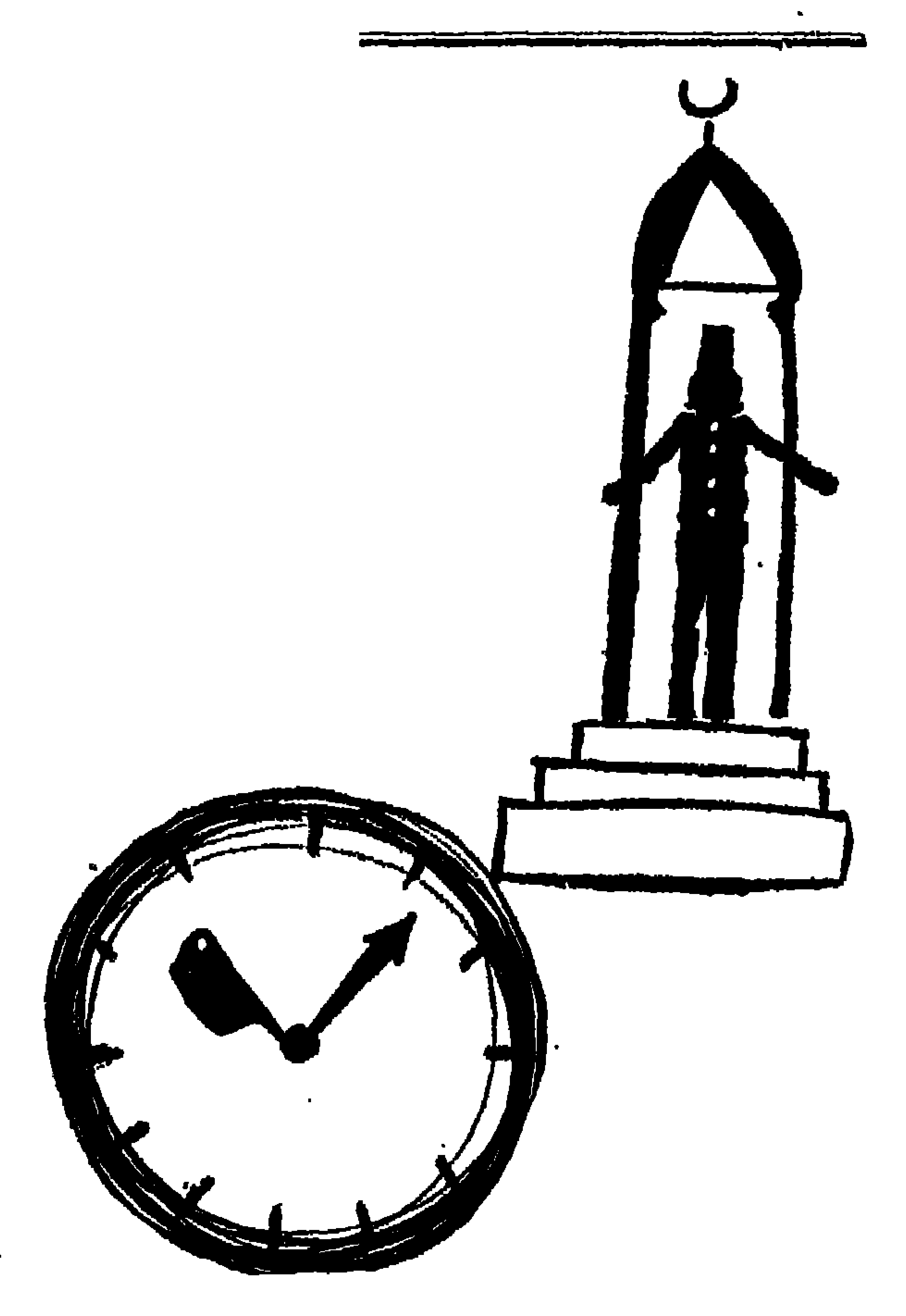
وأجمل عمل أحقق فيه ذاتى عندما يدرسون للأطفال الدين بطريقة صعبة تجعلهم يكرهون الدين .. هل تعرف أنكم توفرون علينا عملاً كثيرا فى مدارسكم .

قلت : أخرجتنا من الجنة .

قال : أخرجتم ابليس من رحمة الله .. ما قيمة الجنة جوار رحمة الله .

قلت له : ازعجتك بكثرة الاسئلة .. أراك تتململ .. تريد أن تنصرف .. لكنك لم تشرب شيئا حتى ولاسيجارة .. بصفتك من النار .. ألا تحب الدخان ؟

أربعين دقيقة



سألت اليوم فى المصلحة :

ــ أى يوم نحن فى رمضان ؟

قالوا : نحن فى اليوم الخامس عشر ، كل سنة وأنت طيب .

يجرى شهر رمضان بسرعة الضوء هذه الايام ، فهل ذهبت البركة من الايام ، منذ أربعين دقيقة كنت أولد ، ومنذ خمس وثلاثين دقيقة كنت فى الخامسة من عمرى ، ثمة صورة ضبابية لشاطىء بحر عريض . اللون السائد هو الرمادى .. رائحة ملح وأعشاب ويود أجلس فى سيارة من سيارات الاطفال . أرتدى الصوف من رأسى لاقدامى . تصور هذا البرد الجميل فى الخارج وهذا الدفء داخلك . أمى تتمشى بى على البحر . أؤمن أيامها بوجود الله تماما . لم أكن أعرف أين ولا كيف هو موجود ، غير أننى كنت أتنفس .. وفى مجرد تنفس الانسان دليل على وجود الله ، هذه الحركة البطيئة التى لا يلحظها أحدنا ، الا عندما يمرض وينكرش نفسه، ارتفاع الصدر وهبوطه ، وارتفاع الموج وهبوطه شىء واحد . خالقهما واحد . قطعا لا يحس البحر العظيم أن هناك موجا فوقه . انه يتنفس فحسب . لم يكن هناك أنا والبحر والرمال والسماء وأمى .. كان هناك جلال واحد وخالق واحد . كان هناك الله وحده . لم يزل الجزء النقى فى نفسى لم يخدش بعد .

... ...

سقطت من النتيجة خمس دقائق . بلغت العاشرة من عمرى . ضربتنى احدى الفتيات فى المدرسة قلما على وجهى . . نسيت الآن سبب ذلك . هل اخذت مسطرتها . هل قرصتها فى خدها . هل دست على قدمها الجريحة . لا أعرف ما حدث ، غير أننى أذكر انها سلطت على الاولاد فراحوا يزفوننى قائلين : العبيط أهو . . حتى تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتنى من الخجل . الله موجود لأننى توجهت اليه وسألته أن ينصرنى عليها وقد حدث . فى اليوم الثانى سألها مدرس الحساب عن حل مسألة فلم تعرف . وأوقفنى فحللت المسألة ، رغم غبائى المطبق فى الحساب . انهال عليها المدرس ضربا بالمسطرة وعيرها بغبائها وأشاد بذكائى . كنت متحيرا ومندهشا لأننى حللت مسألة الحساب . كانت هذه معجزة بالنسبة لى . معجزة لا تقل عن شق البحر لسيدنا موسى . لولا أننى لجأت الى الله لضعت . ترى أين ذهبت هذه السيدة الآن . هل تزوجت . هل تضرب زوجها ؟ لم يزل الجزء النقى فى نفسى لم يخدش بعد .

... ...

... ...

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . انا الآن فى الخامسة عشرة من عمرى . يطلق على أبى اسم الحيوان . انتقلت التسمية الى المدرسة وعرفنى الاساتذة بهذا الاسم . علوم يحبها ابنك وعلوم يكرهها . يجلس ساهما طوال الوقت فى الفصل يحلم . هل هو يحب . كنت غارقا فى حب درجة حرارته أربعون وثلاث شرطات . أحب فتاة مسيحية . قلت لها يوما بجدية وحزن :

ـ اسمعى . ان الهى والهكم واله اليهود واحد .. لأنه ليس هناك غير اله واحد . كل ما فى الأمر أن السيد المسيح أقنع والدك ، وأقنع سيدنا محمد والدى . ولم يأخذ أحد رأينا فى شيء . وأنا أحبك حبا عظيما وسأموت على الفور لو لم أتزوجك . يستحيل أن أعيش بغيرك يوما واحدا . سأحدث أبى فى أمر زواجك .

ثنت وجهها جهة اليسار وقالت :

ـ طيب ..

ثم بكت يومها ، وبكيت لبكائها ، وكشر أبى حين حدثته فى الموضوع ، وقال يا حيوان ، فهمت سر سرحانك فى المدرسة ، ثم انتتر واقفا وضربنى ستة أقلام تاريخية ، بكيت يومها من الألم ، وفرق بين بكاء الحب وبكاء الألم . صليت يومها لله وسألته أن يقنع أبى أننى لم أعـد طفلا ولست شيئا يمتلكه ، ولست شيئا يتبعه ، وانما أنا مخلوق حر ومستقل وذو سيادة . ولم يستجب الله لدعائى ولم أفهم لماذا .. قرأت بعد أن كبرت أن ناسا سألوا صوفيا : ندعو الله فلماذا لا يستجيب لنـا ؟ . قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه . صدق الصوفى . لم أكن اعرف الله يومها . الجزء النقى فى نفسى بـدأ يخدش .

... ...

... ...

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . كل شيء حولى فى الدنيا خطأ وعلى وحدى أن أقوم باصلاحه . ابى لا يفهمنى ، والمدرسة لا تعلمنا شيئا ، والحب ليس هو حل المشكلة . الحل يكمن فى المظاهرات . واقود

مظاهرة صاخبة من مدرسة التوفيقية الثانوية . مظاهرة تطالب بطه حسين . لست أعرف أى شىء حدث له . ولا أنكر ظروف المظاهرة . أنكر بعد أن حملنى يوسف فوق عنقه أننى رحت أهتف : طه حسين .. فيرددها السيل الهادر ورائى . عدت يومها الى البيت وقد ذهب صوتى وضاعت كبريائى تماما . ذهب صوتى من الهتاف ، أما كبريائى فقد ضاعت لسبب آخر . علم أبى ، وكان مدرسا فى مدرسة قريبة أننى أقود مظاهرة . خرج من المدرسة وسأل عن المظاهرة وتتبعها واقتحم المظاهرة وأنزلنى من فوق أكتاف يوسف وضربنى بالشلوت ، قذفنى الشلوت خارج المظاهرة ، سارت المظاهرة فى حالها وعدت الى البيت أسبق أبى بخطوتين ، وهو يحيينى كل بضع خطوات بركلة فى ظهرى . كانت هذه العلقة الساخنة من مدرسة الامير فاروق الى بيتنا فى شبرا بعد سانت تريز ، أى طوال أربع محطات ترام ، كانت هذه العلقة بمثابة قرار عزل سياسى ، من يومها لم أقترب من السياسة . أيامها كنت أؤمن بالله ، لكننى لا ألجأ اليه الا قبل الامتحان بأيام . كنت أقول له يا رب لو نجحت هذه المرة فسوف أعبدك كما ينبغى ، ولن أترك فرضا بغير صلاة ، وكنت أنجح فأنسى وعدى لله . كنت نموذجا مجسدا لقول الشاعر :

صلى وصـــام لأمر كان يطلبـــه

لما انقضى الامر لا صلى ولا صاما

... ...

... ...

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . عمرى الآن خمسة وعشرون عاما .. أحلم بتغيير الكون وأرتكب

عديدا من الأخطاء فى الطريق لذلك . لا أؤمن الا بنفسى. لم يعد الايمان قضية منطقية ، وانما صار مناقشات عقيمة يخرج منها أصدقائى فى النهاية بأننى ملحد .

الجزء المليمترى فى عقل الانسان يسجل ذنوبى . ارتكبت ذنبى الاكبر وتزوجت . حرم الله الظلم على نفسه وجعله محرما بين عباده ، وقد ظلمت معى سيدة فاضلة . مجرد زواجى منها ظلم لها . واعتبارى انها مذنبة لاننى أريد بنتا وهى لا تنجب غير الذكور ظلم . الجزء النقى فى نفسى لم يعد نقيا .. اعتكر تماما ..

... ...

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . عمرى الآن ثلاثون عاما .

بدأ الشيب يغزو شعر رأسى برفق ، فى الدقائق العشر التالية ، أى بين سن الثلاثين وسن الاربعين ، ارتفع عدد الذنوب من تسعة ملايين ذنب الى رقم فلكى يقدر بآلاف الذنوب الضوئية . تعلمت من الحياة والكتب كل سيئات الحياة وفضائل الكتب . أمارس السيئات فى الخفاء ، واظهر للناس بوجه الكتب الفاضل فما أعظم نفاقى . بلغ عدد ذنوبى تسعة بلايين ذنب فى آخر حساب للعقل الالكترونى الذى وضعه الله داخل ذهن الانسان على هيئة خط متعرج فى الجمجمة . كل شعرة بيضاء فى رأسى توحى بالوقار ، تقابلها آلاف الذنوب . الجزء النقى فى نفسى لم يعد له غير وجود رياضى مفترض . البصيص الضئيل الواهن الذى يشعه هذا الجزء على حياتى يضىء ثلاثة أشبار وسط كون مظلم هو انا . ما الذى أوصلنى لهذا الحال .

لست أعرف ما هى نقطة التحول التى أوصلتنى لهذا المنحدر .

أنهى عن ارتكاب الذنوب وترابها عالق بشبابى ، أصوم تقليدا ولا أصلى . أمسك المسبحة ولا أسبح . انطفأ داخلى شىء .. هل هو الحماس أو الايمان . هل هو الحلم القديم باننا يجب أن نغير الكون ونصلح ما فيه من فساد . لست أعرف ماذا حدث لى ؟

ثمة حادث قديم يقبع فى زاوية معتمـــة من زوايا الذاكرة . كنت أجلس فى المسجد ذات يوم ، منذ أكثر من عشرين دقيقة أو أكثر من عشرين سنة . وكانت الحكومة السعدية قد قبضت على خطيب المسجـد ووجهت اليه تهمتين .. الاولى أنه وفدى ، والثانيـــة أنه تحدث عن الحرية ، أشار الى الحرية حين قال فى خطبته « ان الحديث اليوم ذو شجون أو ذو سجون » .

وخلال لهفة الحكومة للتخلص منه ، نسيت تعيين شيخ مكانه . وجاء منتصف الظهيرة من يوم الجمعة التالى ، وامتلأ المسجد بالناس ، ولم يظهر الخطيب .. فرغ القارىء من ترتيل القرآن ولم يظهر الخطيب . وقف أحد المصلين ، وقال :

ــ يا قوم .. من كان يعرف منكم كلمتين فى الدين فليخطب لنا خطبة لنصلى وراءه .

لم ينهض أحد . فكرت أن أنهض ثم تذكرت الشاعر الذى دعاه قومه الى الحرب ، فقال لهم : دعونى فاننى آكل الخبز بالجبن . شدنى الجبن فتثاقلت على الارض ولم أتحرك .

ــ يا قوم .. أليس فيكم من يخطب لنـــا لنصلى الجمعة ؟

ولم يقم أحد . زرعت هذه الحادثة فى نفسى احساسا عميقا بالضعة والجبن .. ونهض أخيرا أحد المخبرين المتدينين فخطب خطبة جاهلة تمتلىء بالاخطاء اللغوية. وأم الناس فى الصلاة وأخطأ فى تلاوة القرآن ، من يومها ملأنى احساس يشبه احساس ابليس ، حين رفض أن يسجد لآدم . فى اللحظة التى انتهى فيها من رفضه ، كانت فرصته الاخيرة قد ضاعت عليه للأبد . تساءل المصلون يومها عمن خطب ، وعرفوا أنه المخبر وقالوا لانفسهم من باب العزاء :

ـ دعونا نأكل العيش .. لدينا عيال نربيهم .

أو قالوا :

ـ كفاية دخلتنا على عيالنا .

وهكذا قبع الناس وراء الخوف ، وأذلهم الخوف من الخوف .وفى حياة الانسان لحظات يدعى فيها الى موقف فان أجاب نجا ، وان لم يجب ضاع نهائيا .

قد يكون هذا الحادث الذى تخليت فيه عن رجل طيب ، هو بداية انحدارى ولا مبالاتى بعد ذلك .

... ...

أقول لنفسى فى المصلحة هذه الايام ...

ـ لماذا يختلف شهر رمضان هذا العام عن شهور رمضان القديمة .. كنت أجد حلاوة لرمضان فى سن العشرين ، ولا أجد له الآن نفس المذاق القديم أو الوهج .. هل تغير شهر رمضان . لم يتغير شهر رمضان .. أنا الذى تغيرت ، ازددت ظلمة وسوءا وخطايا ونفاقا ..

أجلس فى المصلحة ساهما مطرقا أعالج سكرات الصوم . وللصوم سكرات مثل الموت . ليس هذا التعبير من اكتشافى . هو ابتكار صديقى محمود فى

الزقازيق ، غير أنه ينطبق على . ثقل شهر رمضان على نفسى . لم يعد هو هذا الخروج القديم الجميل حبا فى الله وشوقا اليه .. أذكر فى شبابى المبكر أننى كنت أصوم ، فاذا جاء الافطار حملت طعامى وخرجت أطعمه للكلاب الضالة والقطط ، ثم أفطر على بلحات ثلاث وأتأمل النجوم ، وأحس أن داخلى نجوما أعظم منها ، ثم تقادم العهد على ، وعرفت القسوة طريقها للقلب ، وصار الانسان حريصا على الدنيا وهى سجن المؤمن خائفا من الآخرة وهى جنة العارفين .

مضت أربعون دقيقة من عمرى ، أو أربعون سنة ، لست أعرف متى أموت ، بعد عشر ثوان أو عشرين دقيقة أو عشرين سنة تبدو كعشرين دقيقة .

العمر كله يوم أو بعض يوم أو ساعة . يسأل الله تعالى بعض الناس يوم القيامة : كم لبثتم فى الارض . «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم » ثم يقول أمثلهم طريقة « ان لبثتم الا ساعة » .

هى ساعة واحدة يتردد فيها النفس فأى جرائم يرتكبها المرء فى ساعة ، وأى حرص يحرص عليه رغم أنها ساعة .

نظرت فى ساعتى فألفيت الوقت يقترب من الثانية .

علقت المسبحة فى يدى وانصرفت . أسلى صيامى بالسير فى شوارع القاهرة . أعلو ثم أهبط . أرتفع ثم انخفض .. كانوا يقولون فى الحواديت القديمة أن الشاطر حسن يسير .. بلاد تشيله وبلاد تحطه . أما اليوم فقد تطور الزمن ، وأصبح الشاطر حسن يسير ومطب يشيله ومطب يحطه . علق أحد المطبات فى حذائى وهو معى اينما سرت . أفكر فى معنى وجودى .. سألتنى

اليوم زميلة مفطرة فى المصلحة : لماذا تصوم ؟ قلت لها : صائم أنا لأننى صائم . لم أعرف ماذا أقول .. هل أقول لها أننى صائم لأننى بعد أن ارتكبت ملايين الذنوب أريد أن ادخل الجنة ، خشيت أن تضحك على وتقول : رجل فى مثل عمرك وذنوبك يريد أن يدخل الجنة .. قالت رابعة العدوية : « الجنة نعيم الصبيان .. أما أنا ، فأريد وجهك يارب » .. أحس بنفس الخجل الذى أحست به رابعة العدوية لعكس أسبابها ، هى لأنها شديدة النقاء ، وأنا لأننى شديد التعكر .. أمر على الجزار فى طريقى الى البيت . الجزار رجل حج بيت الله الحرام أكثر من مرة . وينطبق عليه قول الشاعر :

رأى البيت يدعى بالحرام فحجــه

ولو كان يدعى بالحلال لمــا حجــا

ــ اقطع لنا من الرقبة كيلو واتوصى بحق جاه النبى الذى زرته .

قطع الرجل ثلاثة أرباع كيلو واختار ورقة مقواة تزن ربع كيلو ووضعها تحت اللحم ثم ضربها بيده حتى طبت بالعافية :

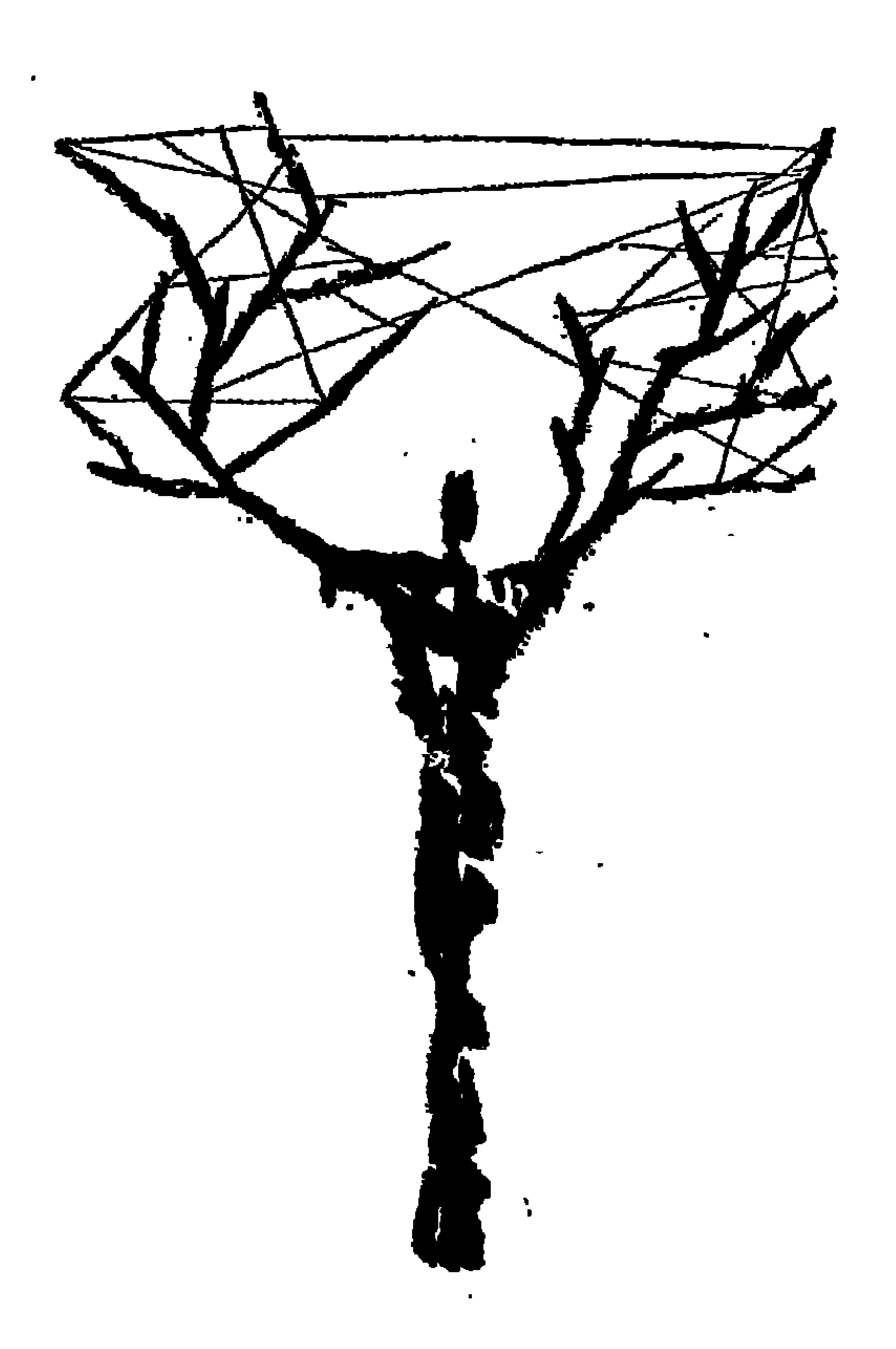
ــ بالهنا والشفا ..

راقبت الجزار بدهشة . فى نهاية يوم الصيام لابد أن يخرج بسرقات تبلغ مئة كيلو من اللحم .

من الصعب أن يناقشه المرء فى موضوع دقة الوزن أو السرقة وهو يمسك بهذا الساطور الضخم فى يده ، ويقول :

ــ اللهم انى صائم

مجدى القبطى



أحمل اسما مسلما ، وأبى مسلم كذلك . وجدى كان شيخا من شيوخ الازهر .. وجد جدى هو اسماعيل وجد جد جدى هو ابراهيم ، ونظل نصعد فى سلم الاسماء المسلمة حتى نصل الى جدى العشرين ، تثبت احدى الوثائق فى عائلتنا أننا ننحدر من صلب قائد عربى شهير فتح مصر . غير انني بحكم شكي المستمر فى الوثائق أتصور الأمر بصورة مختلفة .. أتصور أن جدى كان مسيحيا يعيش فى مصر قبل ألف عام ، ثم فتح الاسلام مصر .. وأغلب الظن أنه لم يفكر فى الاسلام بمجرد دخوله .

كان يشتغل صانعا للسيوف والدروع . وكان رجلا مسكينا يضطهده الرومان ، ويأخذون منه السيوف والدروع ويعطونه نصف ثمنها ، ويأكلون عليه النصف الباقى ، ولم يتفاءل جدي العشرون حين جاءه يوما رجل عربى مسلم يريد سيفا ، قال لنفسه : ان الغزاة هم الغزاة فى كل مكان وزمان ، وراح جدى بخبثه المصرى يؤجل تسليم السلاح ، وفوجىء جدى بالرجل المسلم وهو يدفع له الثمن كاملا قبل التسليم ، وزاد عليه عطاء سخيا بعد التسليم ، وقبل جدى النقود ووضعها فى جيبه . وقال ليلتها لجدتى العشرين : يختلف المسلمون عن الرومان .. معاملة المسلمين أفضل . وراح جدى يتأمل نماذج الجنود المسلمين الذين يتعاقبون عليه . كانوا يغسلون وجوههم فى اليوم خمس مرات ، ويأكلون

الخبز الجاف ويغمسونه فى الزيت ، ويغضون أبصارهم اذا سارت جوارهم نساء مصر ، ويدفعون ثمن مايشترونه قبل شرائه ، ولا يحرقون شجرة ولا يطأون بأقدامهم زرعا ، ولا يشربون الخمر ، ولا يمكن اكتشافهم أو تمييزهم عن أهالى مصر المسالمين الطيبين المتحضرين .

وقارن جدى بين الظلم المرير الذى شربه طوال حياته من الرومان ، وبين هذه العدالة الجديدة التى لا تفرق بين ابن الأكرمين وابن أى شحاذ مصرى ..

سأل جدى يوما أحد الجنود المسلمين :

ـ من هو قائدكم ؟

قال الجندى المسلم : قائدنا كتاب .

سأل جدى : بماذا يأمركم هذا الكتاب ؟

قال الجندى المسلم : يأمرنا بالصدق مع الناس والاحسان اليهم ودعوتهم الى خالق رحيم واحد .

قال جدى العشرون : لو رفضت دخول الاسلام ، ماذا تفعلون لى ؟

قال الجندى المسلم : لا اكراه فى الدين .

قال جدى : عظيم جدا ، لا أحب ضغطا من أحد ..

وانصرف الجندى المسلم ، وأسلم جدى أخيرا .. ، وسمى نفسه اسما طويلا على عادة العرب ، عبد الله ابن سيف بن درع بن أسد المهدى ، ويبدو أنه أطال اسمه كى يتفق مع طول لافتة حانوته . ومرت الايام وفتح الله على عبد الله وتزوج من امرأة أخرى ، وراحت زوجته الاولى تشيع عنه أنه دخل الاسلام بغرض الهروب من الجزية ، فهو رجل بخيل ، وبغرض الزواج من أكثر من واحدة ، فهو رجل عينه زائغة .

ومرت الايام ومات الحاج عبد الله ابن سيف ابن درع ابن اسد المهدى ، وجاء بعده أدهم ابن عبد الله ، ثم تتالت سلسلة الاسماء المسلمة ، وفى حياة جدى الرابع عشر ، اكتشف أن هناك رجلا يكتب حججا مزورة تنسب العائلات الى قائد عربى كبير ، واهتم جدى الرابع عشر بالأمر واستكتب هذا الرجل حجة طويلة وعظيمة ينتهى فيها نسبنا بهذا القائد الشهم ، وجازت الخدعة على الجبرتى فكتب الحجة فى كتابه ، وصارت رسمية بعد نشرها .

وحين ذهب أبى الى الدفترخانة لتسجيل ميلادى كتب أما مخانة المواليد اسما مسلما ، ولم أكن بأيامى السبعة فى حالة تمكننى من الادراك أو المعرفة ، وفى السنة الثالثة من عمرى اكتشفت أنهم ينادوننى باسم معين .. وحفظت الاسم وتعلمته وصار رمزا لى . لم يكن لى اى فضل فى أننى مسلم . وفى السنة السابعة من عمرى قال مدرس الدين أن الله يعذب الناس بالقائهم فى النار، وراح يصف لنا ونحن أطفال كيف يشوى الجلد ويستبدل كلما نضج ، واخافنى هذا من الله خوفا شديدا ، ولم يقربنى من الاسلام ، وصحبنى أبى للصلاة معه فقال شيخ المسجد : ان الله غفور رحيم وانه ارحم بالمسلمين من الأم بأبنائها ، وأحببت الله حبا شديدا واقتربت من الاسلام ، ولم أعرف كيف أحل هذا التناقض الذى تسببه المدرسة والمسجد .

وفى السنة العاشرة من عمرى كان أبى يهددنى بالحرق لو رسبت ، وارتبطت سلطة القهر فى ذهنى بالدين ، وكبرت أكثر فغذت المدرسة والشارع والمقهى والمصلحة

سلطة القهر فى نفسى حتى تعلمت النفاق ، وكبرت أكثر وتزوجت وأنجبت وخضت فى مياه الحيـاة والمجتمع فساهمت دروس الحياة والمجتمع فى تعليمى الكذب .

ثم نضجت وأسميت النفاق بحسن التصرف ، وأسميت الكذب بمراعاة المشاعر ، ورحت أنخلع من حظيرة الاسلام وأنا أتصور اننى أزداد تعمقا فيها ، صارت لى حياة مزدوجة ، ثمة شىء تقوله وشىء تهمس به ، ثمة لغة عامة للكافة ولغة خاصة بين الاصدقاء ، ثمة شىء نكشفه للناس وشىء نخفيه حتى عن أنفسنا .

ارتبط بالاسلام اليوم بهذه الحجة الطويلة التى تركها جدى الرابع عشر ، وهى حجة تثبت أننى أنحدر من نسل قائد عربى مسلم .. وأن الدماء التى تجرى فى عروقى دماء عربية الاصل .. أنا اذن بخير .

كنت عائدا من العمل الى البيت حين استوقفنى درس العصر فى أحد المساجد .. كان الشيخ يتحدث عن قصة سيدنا نوح . كان قد وصل فى قصته الى الجزء الذى يتحدث فيه عن بدء الطوفان .. قال ابن كثير .. وبدأ المـاء يغطى سطح اليابس كله . ونادى نوح ابنه وكان فى معزل .. يا بنى اركب معنا .. قال سآوى الى جبل يعصمنى من المـاء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وتجرى السفينة بالنبى فى موج كالجبال .. ثم يصدر الله تعالى أمره فينتهى الطوفان وترسو السفينة .. نجا نوح فتذكر ولده .. وجاشت نفسه بمشاعر الابوة .. لقد وعده الله بنجاته ونجاة أهله معه ، وابنه من أهله .

ونادى نوح ربه : قال رب ان ابنى من أهلى .. وان وعدك الحق ..

قال ابن كثير .. يسأله بسؤال استفهام .. يعنى .. لقد وعدتنى بنجاة أهلى ، وابنى من أهلى ..

ويجىء جواب الله حاسما قاطعا : يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح .

قال خطيب المسجد : يريد الله أن يقول ان روابط الدم ليست هى الروابط المعتبرة . ثمة رابطة أقوى هى العقيدة .. هى اتباع العقيدة .. وليس ابن نوح الذى لم يتبعه فى ميزان الله بابنه الحقيقى ولو كان من صلبه .

قلت لنفسى وأنا عائد الى البيت ..

هل أعتبر مسلما لاننى أمتلك حجة تثبت أننى أنحدر من نسل قائد عربى مسلم ؟

حجة مزورة والله أعلم !!

تـوبـة العجــز







لماذا افكر فى ليلة القدر هذه الايام .. لست أفهم لماذا يجرى ذهنى الى التوبة ..

تمر ليلة القدر فى حياتنا مثل وهج من النور العابر يمثل فرصة أخيرة يقدمها الله لعباده ، ودائما أبدا يقول المسلم لنفسه : لن أترك فرصتى الاخيرة تفلت منى . غير أن فرصتنا تمر بنا دائما وهى متنكرة فى ثياب العمل الشاق . ولهذا نهدرها ونقول : فى العام القادم ان شاء الله تعود ليلة القدر . لو كان لنا ولكم عمر ، مد الله فى عمركم وعمرنا ، حتى نلتقى بألف ليلة للقدر ، وليلة القدر خير من الف شهر .

وعلى أيامنا الغابرة ، كانوا يكتبون فى كراريس المدرسة عدة ارشادات على ظهر الكراس .. منها مثلا :

- **لا تؤجل عمل اليوم الى الغد ..**
- **اغسل يديك قبل الاكل وبعده ..**

ومن الغريب أن جيلنا قد أهدر هذه الارشادات كلها .. وصار تأجيل عمل اليوم الى الغد قاعدة أصيلة تكاد تصبغ الشخصية المصرية .

منذ أكثر من عشرين عاما وأنا أقول لنفسى :

فى ليلة القدر القادمة سوف أنتهز الفرصة ، وأعود الى الله وأتوب ، وكل عام أؤجل التوبة الى العام القادم . والعمر يجرى ، والنفس تزداد ظلمة ، والتوبة تزداد اقترابا من الوهم وبعدا عن الرغبة ، وأغلب

الظن أنني سأتوب عندما تسقط أسناني ويدب الروماتزم فى مفاصلى وتضعف عيناي وتنهار قواى الحسية ، سأتوب عندما أفقد القدرة على ارتكاب المعاصى ، ستصبح التوبة ساعتها على الطريقة المصرية . سأقول أيامها .. يارب .. لن أنظر الى امرأة ، سأقولها بعد أن ضعف نظرى ولم أعد أميز هذه الكتلة السائرة هناك ، هل هى كتلة امرأة أم كتلة حمار يجر عربة .

وهذا الموقف — بالصلاة على خير الانام ومصباح الظلام — موقف توبة غير مقبولة . هو عجز وليس توبة .

أفكر هذه الايام فى ليلة القدر . افهم أنها الليلة التى نزل فيها القرآن . معنى ذلك أن ليلة القدر هى اللحظات التى بدأ فيها اتصال الانسان بالملأ الاعلى عن طريق القرآن ، وهذا يعنى أن ليلة القدر الحقيقية أمامنا فى كل وقت .. هى القرآن ، لو اتصلنا به وعرفناه فقد بدأت ليلة القدر الخاصة بنا .

وانا أعرف القرآن واتصل به على النحو الآتى : فى بيتنا أربعة مصاحف : أولها مصحف كتبه خطاط ماهر فى صفحة واحدة ، وأنا أبروزه وأعلقه فى مكان لا يمكن للعين أن تصل اليه . والثانى مصحف استانبولى كتب بخط اليد ، وهو مذهب الاطراف موضوع فى كيس من القطيفة الزرقاء داخل علبة من القطيفة الحمراء ولها قفل ذهبى جميل . والمصحف الثالث طبع المطبعة الاميرية ، وقد صنعت له زوجتى كيسا جميلا وتحتفظ به فى دولابها للتبرك ومنع السرقة ، والمصحف الرابع صغير الحجم أضعه دائما فى شنطة السفر ، حتى اذا وقعت حادثة

وانقلبت السيارة أو خرج القطار عن الخط ، تدخل المصحف وأنقذني من الموت ، وأنا لا أفتح واحدا من هذه المصاحف الاربعة الا فى شهر رمضان ، حيث أقرأ فيه قليلا فى ليلة القدر ثم يغلبني النعاس فأغلق المصحف وأنام .

هذه هى الصلة بيني وبين القرآن ، صلة التبرك والبركة ، ورغم معرفتى أن القرآن مجموعة من أوامر الله ونواهيه التى يريد منى تطبيقها على نفسى وفى حياتى الخاصة والعامة ، رغم ذلك لا أعامل هذه الاوامر والنواهى بمثل ما أعامل أوامر ونواهى رؤسائى فى العمل .. أعترف أننى أجامل الناس أكثر مما أجامل النبى عليه الصلاة والسلام ، وأخشى الناس أكثر مما أخشى الله عزوجل . وأحيانا أتصور أن رئيسى فى العمل قال لى :

ـ اعمل كذا وكذا .. ولا تعمل كيت وكيت .

وجئت أنا وكتبت أوامره ونواهيه فى ورقة ، وبروزتها، وعلقتها وراء مكتبى فى المصلحة ، رحت أقرؤها له بصوت منغوم وأنا أهتز طربا .. ثم يكتشف رئيسى فى العمل أننى لم أنفذ منها أى أمر ، ولم أمتنع عن أى نهى ، كيف ينظر الى هذا الرئيس ، ماذا يقول فى نفسه عنى .. قطعا سيفهم أننى أسخر منه ومن كلامه ، وقطعا سيتحين أقرب فرصة لقطع عيشى وفصل رأسى عن جسدى لو أمكن . لقد أعطانى أوامره لتنفيذها ، ولم يعطنى أوامره لتعليقها والتغنى بها .

هذه الصورة المضحكة التى لا تحدث منا ابدا تجاه رؤسائنا فى العمل ، تحدث منا تجاه الله عزوجل ..

فما أعظم شواطىء النفاق الانسانى ، وما أعمق مياه محيطاته . لى فى العمل ثلاثة رؤساء : رئيسى المباشر وهو المدير العام ، وبعده وكيل الوزارة ، ثم الوزير . لا أعصى للثلاثة أمرا ولا أناقش أحدهم ، وأنافقهم قدر استطاعتى .

يقول لى المدير العام : الشغل جيد هذه الايام .

فأقول له : لا فضل لنا فى الامر ، الامر يرجع لتوجيهات سيادتكم وحكمتها .

يقول لى وكيل الوزارة : شاهدت الشمس تطلع من الغرب .

فأقول له : تصور سعادتك أن هناك من يشيع أنها تطلع من الشرق . أعداء لسعادتك وكل عظيم لـه أعداؤه .

أما الوزير فلا أقول له شيئا ولا يقول لى شيئا ، انما تنتابنى ازاءه حالة من الرعب التنفيذى الذى يعطل المناقشة ويلغى الارادة ويرعش المفاصل ويثنى الرقبة ويجعل المرء يبتسم كى لا يقع نظر سعادته على وجه مقطب . زارنا الوزير منذ شهرين ومكث معنا ساعة ، لم أكف فيها عن الابتسام حتى وجعنى فكى الاعلى وفكى الاسفل بعد أن مضى سعادته .

واذا قال لى أحد الثلاثة : أحضر لى عصير ركب النمل ، أو شعرة من ذقن الأسد وهو حى ، فسوف أفعل على الفور .

هل هو تراب الميرى الذى أوصانا الاجداد بالتمرغ فيه ، أم هو الخوف من قطع العيش ، أم هى الرغبة

فى عدم اثارة المشاكل . لست أعرف تماما ، وربما تكون الاسباب الثلاثة مجتمعة هى السبب .

يحدث هذا فى نفس الوقت الذى لا أنفذ فيه أى أمر من أوامر الله ، وأقول اذا ناقشنى أحد أصدقائى فى موضوع الصلاة مثلا :

— يا يوسف أنا عاوز أصلى .. مش مش عاوز .. بس خدلى بالك م الموضوع شوية أكتر . حكاية خمس مرات صلاة كل يوم موضوع صعب . بصراحة حاجة ما بتنتهيش .. حاجة مش بتخلص . الصبح يفوت ييجى الضهر ، الضهر يمشى ييجى العصر ، العصر يروح ييجى المغرب ، المغرب يمشى تيجى العشا .. مش فاضى أنا يا يوسف ومشغول جدا زى ما انت عارف .

ويقول لى يوسف :

— فعلا يا أخى .. ربنا يقويك .

وهكذا يقول الناس للناس : ربنا يقويكم على المعصية .

يحدث هذا رغم أننى لست مشغولا بأى شىء وليس ورائى أى عمل .. وأوقات الصلاة الخمسة لا تستغرق من الفرد أكثر من ربع ساعة فى اليوم لو أطال الصلاة ، وعشر دقائق لو خطفها .. غير أننى أجلس فى المقهى بالساعات متأملا فى الحريم التى تمشى أمامنا غير واجد أى وقت أصلى فيه ، مكتفيا بالصلاة على النبى ..

الشرف الرفيع



فى اللوائح الحكومية التى تركها الموظفون من عهد الملك مينا نارمر ، لم تكن المقشات التى تصرف لدواوين الحكومة تعتبر عهدة ... واستمر هذا التقليد حتى عصر الملك خوفو ، ثم فكر ديوان الموظفين الفرعونى فى عمل تنظيم للمخازن الملكية ، وقرر هذا الديوان اعتبار يد المقشة عهدة مستديمة ، أما المقشة نفسها فقد اعتبرت عهدة مستهلكة ، وصار لزاما على من يتسلمون المقشات من المخازن الملكية ، أن يسلموا أيديها الخشبية ، وقد انحدر الينا هذا التقليد فيما انحدر من تقاليد موروثة ، تسرب الينا مع أربعين الموتى ، ومع اعتبار مياه النيل مقدسة ، ومع أكل البصل فى شم النسيم ..

كنت أجلس فى المصلحة حين وضع أحد السعاة أمامى طلبا يرجو فيه الموافقة على صرف خمس مقشات لكنس حجرات المصلحة .. بدا لى الطلب طبيعيا ومعقولا ، فالنظافة من الايمان ، انحنيت على المكتب لأوقع على الطلب .. ثم تذكرت قبل أن أوقع بامضائى أننى وقعت طلبا مماثلا منذ أقل من شهر .. واقنعتنى اكوام التراب حولى أن المقشات الخمس التى صرفت لم تستخدم أبدا فى الكنس ، وانما بيعت لأقرب بقال بجوار المصلحة .. قلت للساعى :

— أين ذهبت المقشات القديمة ؟

قال : كنسنا بها يا بيك ..

قلت : ذابت خمس مقشات فى عشرين يوما وحولنا كل هذا التراب .

قال : تعرف سعادتك أن الصناعة تتدهور والتراب يشتد ، وسيأكلنا التراب حتما ان لم نقاومه ..

قلت : اين أيدى المقشات الخشبية التى ذابت .. هل ذاب الخشب هو الآخر ..

قال الرجل : موجودة ولكنها انكسرت ، نحتفظ بهـا لتسليمها كعهدة .

انخرط الرجل فى شكاة طويلة عن الشك والظن ، وأقنعنى أن بعض الظن اثم ، وتحدث عن الشرف ، وأقسم بأغلظ الايمان أنه رجل مسلم وشريف وينحدر من أجداد مسلمين وشرفاء . وكان يفكر وهو يكلمنى فى البقال الذى صرف له نصف ثمن المقشات التى لم يسرقها بعد . انصرف الرجل غاضبا وتركنى وخدى أفكر ..

واثق انا أنه على حق .. انه يعتبر نفسه شريفا ، ويظن نفسه مسلما . أما الشرف ، فليس له فى عقلنا الضيق المصنوع من الجبس غير مفهوم واحد : .. المرأة والجنس .. وما دام الموضوع بعيدا عن النساء ، فهو اذن شريف .. سبقنا الشاعر العربى لتأكيد هذا المفهوم فقال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الـدم

كان الشاعر يتحدث عن المرأة ، لم يكن يتحدث عن اهمال أحد لواجبه ، لم يكن يتحدث عن الرشوة أو الاختلاس أو السرقة .. المرأة فقط هى الشرف .. غيرها ليس هاما .. هل هذه اخلاق المسلمين ؟ .. اجاب الشيخ محمد عبده عن السؤال حين زار اوروبا فى أول رحلة له اليها .. قال بعد عودته :

ـــ وجدت عنـــدهم أخلاق المسلمين ولم أجـــدها عندنا ..

منافقون نحن حتى النخاع ، ومهرة فى الكذب على الآخرين ، واشد مهارة فى الكذب على انفسنا ، يقول لك النجار بعد شهر ، ويقـــول لك المكوجى بعـــد ساعة ، ويقول لك الموظف تعال غدا ، ويقول لك البنك بعد عشر دقائق ، ويكذبون جميعا بلا حياء ، وتؤكد الامثال العامية أن يوم الحكومة بسنة ، ويؤدى العاملون العمل بنصف روح ، ويكروتون نصفه الاخير عادة ، ويسلمونه متأخرا دائما ، لكننا نمضغ بأفواهنا دائما أننا شرفاء .. لـــماذا . ؟ لأن نساءنا بخير .. واذن فشرفنا بخير .. نتصور أن الشرف شىء واحد هو الجنس ، وليست هذه نظرة الاسلام للشرف .. هـــذه نظـــرة الجاهلية الأولى للشرف .. فى أيام الجاهلية التى سبقت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان العرب يئدون البنات « **واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم** » جاءته مصيبة .. جاءته بنت .. ويحملها وهى طفلة لم ترضع بعـــد ويدفنها فى الرمال .. تصديقا للمثل العربى القـــائل (دفن البنات من المكرمات) فان ساءلت الوحـــش الكاسر الذى يحمل طفلته ويتوجه بها كى يدفنها فى الرمال وهى لم ترتكب اى ذنب ، اذا سألته لماذا تقتلها قال لك : لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى .. حتى يراق على جوانبه الدم .

ولقد رفض الاسلام هذا المفهوم الوضيع للشرف ، واقسم الله تعالى ان أرواح البنات القتيلات لن تذهب هدرا وانما سوف تسأل يوم القيامة ..

(واذا الموءودة سئلت .. بأى ذنب قتلت) ..

ولما كانت الموءودة طفلة لا تعرف كيف تجيب .. طفلة لم ترضع بعد ولم تتعلم الكلام بعد ، فمن الواضح أن تهديدا الهيا مروعا ينطوى على سؤالها ...

لست أعرف من هو المسئول عن وراثتنا لهذا المفهوم.. ان الشرف لدينا ليس له غير معنى واحد ، هو المعنى الجنسي ، يقبل المسلم أن يبيع عقله ، ويقبل أن يبيع ولاءه لله ، ويقبل النفاق ، ويتغاضى عن اداء العمل ، ويقصر فى واجباته ، ويسرق ، ويكذب ، ولا يصل رحمه ، فاذا حدثته أقسم لك انه رجل شريف ، وجرى ذهنه وهو يتحدث الى الجنس .. مادام لم يزن فهو بخير ..

لا ينظر الاسلام الى الشرف هذه النظرة الجاهلية.. يقف الاسلام ضد كل انواع الانحلال واشكالها ، وهو يعتبر بيع الجسد جريمة تقل آلاف المرات عن بيع العقل . واخطر فى رأيه أن يبيع الرجل فكره وعقله للشرك ، أن يعبد المسلم غير الله ، أخطر الخطايا عند الاسلام هى الشرك . والشرك هو الانحلال الفكرى الحقيقى ، أن يبيع الانسان أشرف ما فيه وهو عقله لغير الله .. أو يحب احدا أكثر مما يحب الله .. أو ينافق احدا على حساب الله ، أو يؤله احدا رغم قوله باللسان « الله أكبر » .. هذا هو الشيء الذى لا يغفره الاسلام ، لأن هذه هى الدعارة التى تلوث جو الحياة الانسانية ، وليس انحلال الجسم بالشيء الذى يساويها فى الخطورة ..

قال تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به » ويغفر

ما دون ذلك لمن يشـــاء » . بعد الشرك .. يغفر الله تعالى كل شيء ..

ننظر الى الناس لنرى أى شيء يغفرونه .

انهم يغفرون كل شيء .. ابتداء من انحطاط الفكر الانسانى وتلوثه بالشرك مرورا بالنفاق والاهمـــال والكروته .. فاذا وصلوا الى منطقة الجنس الفيتهم جميعا وقـد تحجروا وصـاروا من كبار الصـالحين المصـلحين فجأة ... كثيرا ما سـألت نفسى عن السبب ..

والسبب بسيط .. أنانية الانسان هى السبب .. ان الجنس هو الموضوع الذى يتصل بذواتنا مباشرة ، وحمايته حماية شخصية لنا ، اما انحلال العقل وبيعه لكل من يدفع أكثر فليست شيئا يتصل بنا أو يهمنا ، هذا ما يبدو للنظرة الاولى السريعة .. رغم ان انحلال العقل يقود مباشرة الى الفساد الجنسى .. قيـل لجحـا :

ـــ يا جحا الفساد منتشر فى حيكم ..

قال : ما دام بعيدا عن بيتى فلا أهتم ..

قيل : يا جحا الفساد منتشر فى بيتكم .

فقال : ما دام بعيدا عن زوجتى فلا أعبأ ..

جحا الآن هو الذى يفكر ، وهو الذى يملأ أدمغتنا بالحكمة .. ومن المدهش أن يتفق المجتمع على الصاق الشرف بمفهوم الجنس وحده ، ويثير الدهشة أكثر أن يكون هذا المفهوم ملتصقا بالمرأة وحدها .. لا يتـورع الرجل عن تقطيع السمكة وذيلها ، ولا يعتبره المجتمع ساقطا .. اما المرأة .. فيكفى خطأ واحد .. خطأ

واحد فحسب ليدمغها المجتمع ويصمها الى الأبد بالفساد .

السر فى ذلك مفهوم .. ان الرجل هو الذى يحكم المجتمع فى الشرق ، وهو الذى يضع تقاليده .. وهو يسمح لنفسه بما لا يسمح به لغيره .. وذلك كله من سمات التخلف العقلى .. وليس هذا من الاسلام فى شىء .. لم نسمع أن الاسلام امر برجم المرأة الزانية والاكتفاء بشد أذنى الرجل الزانى والطبطبة على خده ، انما وضع لهما عقوبة واحدة .. وجعل التوبة محوا لكل الجرائم .. وجعل الشرك وحده هو الجريمة الوحيدة التى لا يغفرها الله ..

كم ابتعدنا عن الاسلام .. وكم نتعلق بأستاره ونهدر روحه ..

نهضت حانقا أبحث عن أيدى المقشات الخشبية ..

رأى العامة



يشتهر المصريون بالحكمة ، وسداد الراى ، والقدرة على اصدار صوت بالفم يقال له التصعيب .. وهو صوت يعنى قول القائل « يا ميلة بختنا » . وللمصريين امثال عامية كثيرة يتصعبون بعدها .. لكل شيء فى الدنيا عندهم مثل ، ولكل موقف فى الوجود مثل ، وأنا أفكر فى تأليف كتاب اسمه « خيبة الآمال الكلية فى معانى الامثال العامية » .. وسر خيبة الامال ان معظم الامثال تصدر عن احساس حسى يلتصق بالارض .. وتؤيد عديدا من مطالب البطن أو الجسد بغير أن تعبأ بالروح أو الفكر .. وهى امثال واقعية من النوع الواقعى الشديد الهبوط .. ولا يكاد ينجو شيء من الامثال العامية .. حتى شهر رمضان له مثل عامى هو الآخر ..

يقول المصريون عن شهر رمضان فى أمثالهم العامية، ان الشهر ثلاثون يوما ، عشرة للمرق ، وعشرة للخلق ، وعشرة للحلق .

ونقول فى تفصيل ذلك وعلى الله الاتكال : ان الثلث الاول من الشهر يخصص للمرق .. والمرق هو السائل الجميل الذى تنتجه الفراخ او الديكة أو اللحم او البط أو الاوز بعد ذبحه وتنظيفه وسلقه على النار .. والمرق انواع . هناك مرق اللحم . وهذا المرق تعلق المشايخ . وهناك مرق البط والأوز ، وهذا من تخصص العمد ، وهناك مرق الديوك الرومى ، وهذا من مستلزمات الأسر التى يمتلك كل فرد فيها خمسين فدانا فأكثر ، وهناك مرق الفراخ وهو النوع المعروف للكافة ، ولقد تطور مرق الفراخ على مر التاريخ القديم والوسيط والحديث تطورا هاما . فى عصر الفراعنة

كانت الفرخة المصرية لا تتزوج الا من ديوك مصرية حتى لا يختلط دمها النبيل الازرق بدم اجنبى ، ولذلك كان مرقها من نوع دسم يحمل نكهة مصرية تاريخية خاصة . وفى العصر المسيحى كان الرجال يربون الفراخ ويشوونها على النار ولا يسلقونها لانهم نساك البرية ، وانعدم المرق فى هذا العصر أو كاد ، وفى عصر الفتح العربى استمر اضطهاد المرق ، فقد كان المسلمون الفاتحون ابناء حضارة زاهدة فى الطعام متفتحة لما هو أهم ، غير ان أبناء الفاتحين العرب حين ركنوا الى الدعة وابتعدوا عن عظائم الامور تنبهوا الى الفراخ ومرقتها ، ومن هنا عاد مجد المرق . يصف المقريزى أسواق القاهرة ويحكى عن الفراخ المحشوة بالفستق واللوز وعين الجمل الذى كان يأكله العامة من الناس ، اين ذهب مرق هذه الفراخ . قطعا كان الناس يشربونه مثلما يشربون اليوم الكوكاكولا والبيبسى كولا والمصر كولا .

وحتى العصر الوسيط لم تكن الفراخ المصرية تتزوج من ديوك أجنبية . ولم يعرف فى العصر الحديث فى حملة بونابرتة انه احضر معه ديوكا فرنسية ، غير أن القرن العشرين قد تميز بتطور هام طرأ على الفراخ والمرق نتيجة انتشار المواصلات وسرعتها وسهولتها واتصال المعمورة بعضها ببعض . بدأت الفراخ المصرية تتعرض لحملات من الغزو والمنافسة . غزت امريكا السوق بالفراخ الامريكية ، وهى فراخ عديمة المرق عديمة الدسم ولا تصلح الا للشواء ولا يأكلها غير النساك والمشمومين ، وقد كان غياب المرق من موائد المصريين امرا مؤسفا . ثم شاءت رحمة الله أن يدب الخلاف

بيننا وبين أمريكا فينقطع استيراد الفراخ الامريكية ، وبذلك عاد مجد المرق وعادت الفرخة المصرية تتربع على عرشها القديم .

ثلث رمضان الاول كما يقول العامة للمرق .

أما ثلثه الثانى فى تصورهم فهو للخلق .. والخلق كلمة عامية تعنى الملابس . ملابس العيد .

وهكذا ينشغل المسلمون الافاضل فى ثلث رمضان الاول بالمرق ، وفى الثلث الثانى ينشغلون بالخلجات ، كما يقول الصعايدة ، وبالهدوم كما يقول البحاروه ، أو بالملابس كما يقولون فى البندر ، وتحتل ملابس العيد اهتمام الناس فى ثلث رمضان الثانى ، وفى هذا الثلث يهجم الاولاد على ابيهم متصايحين مطالبين بالملابس الجديدة ، وكلما زاد عدد الاولاد والبنات زاد تفكير الوالد فى هم الملابس وطريقة احضارها . والمصيبة أن الاولاد يكبرون وتتسع معلوماتهم وتزيد أطماعهم نتيجة الاذاعة والتليفزيون ، ولهذا يفكرون ويفكرون فى الملابس المستوردة ، ويقولون لماذا واشمعنى وليه يعنى ، الى آخر هذه الاحتجاجات التى تجعل المرء يفكر فى الانطار وضرب كل واحد منهم علقة ، وتطبيق نظام حظر التجول والخروج للفسحة ، غير أن زوجتى تقول لى :

— حسك فى الدنيا يابيه ، وكل سنة وأنت طيب . وان ماكنتش تجيب لهم مين اللى يجيب لهم ، وأهى ايام مفترجة وربنا يديك الصحة ويطول فى عمرك .

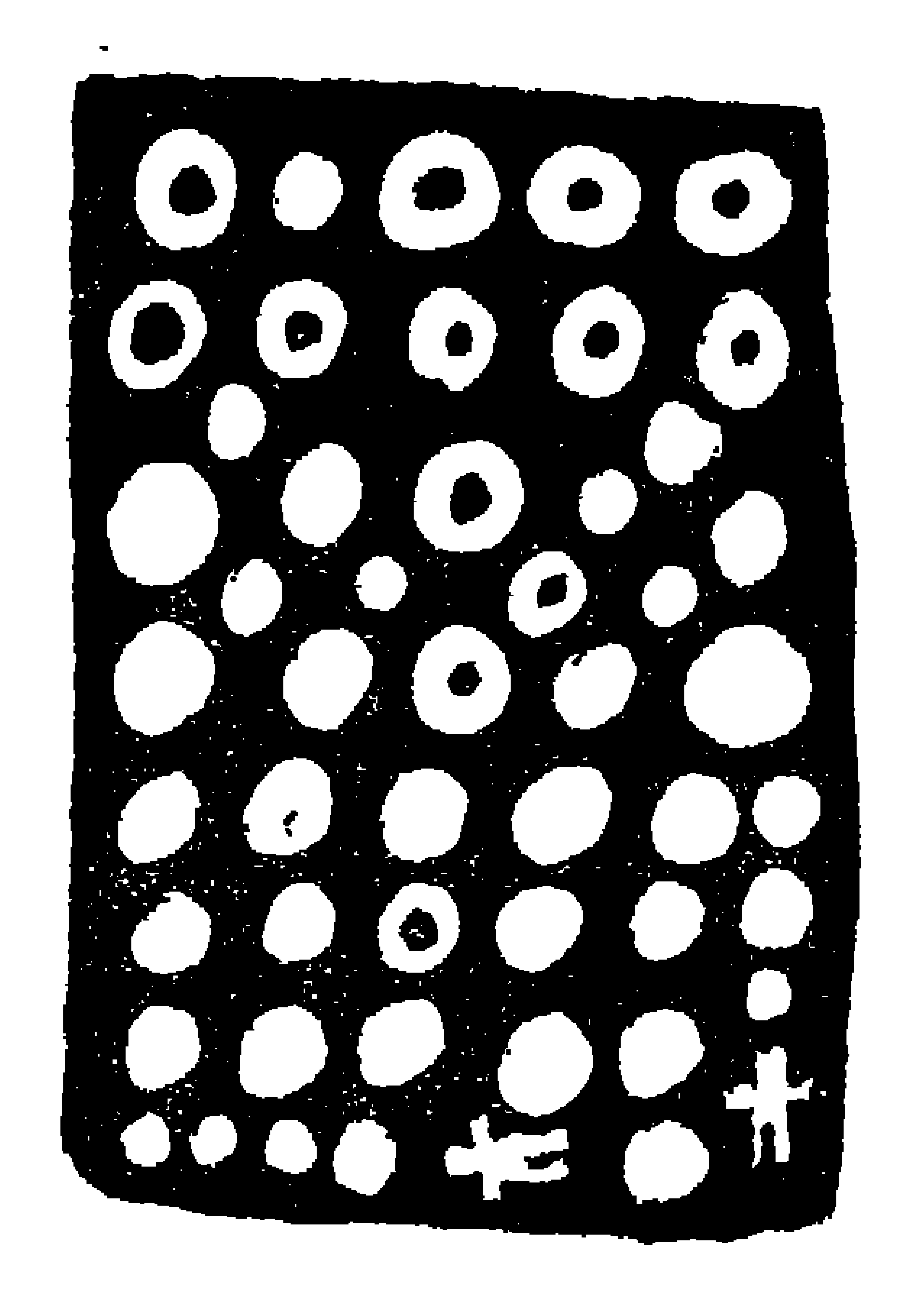
وهكذا اتراجع عما اعتزمته ..

... ...

ثم يجيء ثلث رمضان الاخير .. وقد قال العامة أن ثلثه الاخير للحلق .

والحلق فى لغة العرب هو الشيء المدور . هو الشيء المدور المزركش المنقوش الذى يوضع السكر على وجهه .. هو الكحك ، وكحك العيد يدين بوجوده التاريخى للفاطميين . كانوا يتفننون فيه ، ويصنعونه من الدقيق المعجون بالماء المضاف اليه ماء الورد المضاف اليه السمن البلدى ، وفى ايام الفاطميين كان شوال الدقيق بمليم ، وكانت صفيحة السمن بتلاته مليم، وكان الخروف بتعريفة ، وكان الجنيه المصرى الجبس يساوى الجنيه الانجليزى الجبس ، وليس لهذا الاخير سوق سوداء ولا بيضاء ، ولهذا توسع الفاطميون ومن بعدهم المماليك فى موضوع الكحك ، واغفلوا ان الحياة تتقدم ، وان الزمن يتطور ، وان وقتا سيجيء على الناس ويصبح الكحك فيه مأساة لا تقل عن مأساة البطل اليونانى تانتالوس الذى حبسه الالهة عطشان جوار نبع ماء يسيل امامه ولا يستطيع الدنو منه . ويكفيه عذابا أن يدلدل لسانه أمام الماء ولا يشرب .

نحن بعد ان عبرنا ثلث المياه الاولى من شهر رمضان ، وهى مياه تمتلىء بالمرق والفراخ واللحم والفتة .. وبعد ان اجتزنا ثلث المياه الثانية من شهر رمضان ، وخضنا فى أمواج الملابس وصخور الاحذية ودوامات البلوفرات .. نحن الآن نعبر ثلثه الاخير الذى صنعت مياهه من الدقيق والسمن والسكر والعجوة .. اى بلاء أن تكون نظرتنا الى شهر رمضان هكذا ، وهو شهر لا علاقة له بالفجعانين أو المفاجيع فى قول آخر ..



قالت زوجتى :

ـ الكحك يا بيك .. عادة لا تنقطع وربنا يطول فى عمرك ..

بعد ذلك رحت أفكر فى الكحك ، مثل اى رجل تقدمي أفكر فى الاشياء تفكيرا علميا ، وهكذا قررت تأليف بحث علمي عن كحك العيد يلخصه لجمهور الدباغين ، عسى الله أن ينفع به المسلمين .. آمين ..

الكحك صعب وطويل سلمه

اذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه

زلت به الى الحضيض قـــدمه
يريـد أن ياكـــله فيلكمــه

بيتان كانا من الشعر فصارا من الكحك . والكحك الوان ، وهو فن ، والفن صورة . أول كحكة فى التاريخ سكتت عنها المراجع ، لا أحد يعرف من الذى صنعها ومن الذى أكلها . سقط هذا كله فى ظلمة الزمن . غير اننا نملك عقلا ونستـطيع أن نفكر . بالقطع لم يكن سيدنا آدم عليه السلام يفكر فى الكحك بعد الكحكة التى أخذها فى الامتحان نتيجة لاكله من الشجرة المحرمة .

فى عصر الصيد كان الانســان يخرج الى الصيد ، أما أن يقتل الثور أو يقتله الثور ، كان احدهما يعــود وهو يسحب عشاءه وراءه . يتفق المؤرخون والعلماء والاثريون على انعدام الكحك فى هــذا العصر ، عثر المنقبون على صور الثور فى كهوف التاميرا ، ولم يعثروا على صورة واحدة للكحك ، لم يكن هنالك كحك اذن ، وهذا مفهوم على المستوى العلمى ، فان الكحك طعام مركب ، مثل الفن المركب ، مثل المسرح ، ومن الطبيعى الا يظهر فى العصور التاريخية القديمة البدائية .

ثم جاء عصر الزراعة ، واستأنس الانسان الثور . وتم بينهما اتفاق ودى ، وبدلا من أن يأكل أحدهما الآخر ، اتفقا على الاكل معا . ثم استقر الانســان فى عصر الزراعة ، وبدأ تقسيم العمل والتخصص ، بدأ تنظيم الزواج ، وتقدمت صناعة الآنية ، واستطاع الانسان بذكائه أن يخترع آنية مخرومة من وسطها وغويطة من جوانبها فاذا وضع فيها العجين صارت كحكة . وكانت أول كحكة فى حجم صينية الكنافة الكبيرة اليوم .

وقد أكل هذه الكحكة أمير له عبيد كثيرون ... كنا فى العصر العبودى .. ترك صانع الكحكة كتابا فى طريقة صنعها ، ثم أحرقه احد الغزاة ذات يوم ، فذهب اسم الامير والصانع ، وذهب سر صناعة الكحك مثلما ذهب سر التحنيط الذى اكتشفه قدماء المصريين . وضاع سر الكحكة على البشرية عدة آلاف من الاعوام .. ثم عاد الى الظهور فى عصر قدماء المصريين .

كان قدماء المصريين يصنعون الكحك فى ثلاث مناسبات : فى ذكرى عودة أوزيريس النبيح ، وفى يوم الزينة وهو يوم شم النسيم الذى جمع فيه فرعون موسى والسحرة فلما سجد السحرة انكبس فرعون كبسة هائلة وأمر بتحريم صناعة الكحك فى هذا اليوم لانه يوم حزن عام . أما المناسبة الثالثة فهى مناسبة طرد أحمس للهكسوس . فبعد طردهم مباشرة انكب المصريون على صناعة الكحك بهمة لا تعرف الوهن ، وجهد لا يصيبه الكلال ، حتى انهم ظلوا أسبوعا يأكلون فيه الكحك ويرقصون فى الشوارع . وكان الكحك فى حجم نصف صينية الكنافة ، وكان الناس يقصرون ويقتربون من الارض ، ويزدادون لؤما وذكاء ومقدرة . كما كانت أفواههم تصغر .

...

لم يزدهر الكحك فى العصر المسيحى فى مصر ، ولا فى العصر الاسلامى فى مبدئه ، غير أن دخول الفاطميين مصر سجل نشاطا ملحوظا فى صناعة الكحك وتجارته .

وبالنسبة للعالم الخارجى أثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول طرق التجارة على الكحك وصناعته .

تأخر وصول الدقيق الافرنجى واعتمدت البلاد على الدقيق الوطنى الاسمر ، وظهر الكحك بوجهه الاسمر كئيبا ، فدعا السلطان أحد كبار أطبائه ، وأحد كبار الفلكيين وأحد كبار رجال الجيش ، ونقيب العجين وشيخ حارة الدقيق وأعظم الحلوانية فى الكنافة ، واستشارهم فى موضوع سواد وجه الكحك ، وانعقدت لجنة وبدأت تبحث حتى اهتدت أخيرا الى دق السكر ورشه على وجه الكحك ليصبح وجهه أبيض .. ومن هنا جاءت عادة وضع السكر على وجه الكحك ، وذكر التاريخ للفاطميين فى مصر فضل تأصيل عادة صناعة الكحك والتفنن فيه . كان الفاطميون يريدون تحويل المصرين الى شيعة ، والمصريون قوم على جانب عظيم من اللطف والتسامح ، انهم يتحولون كما يحب حاكمهم ، ولكنهم يتحولون كدا وكدا ، وشجعت دولة الفاطميين صناعة الكحك ، وسميت احدى الحارات فى مصر بحارة الكحكيين نسبة الى اقتصارها على صناعة الكحك . واشتهر كحك العيد كما اشتهر دقيق العيد الى الحد الذى كان هناك رجل اسمه دقيق العيد ، ثم أنجب هذا الرجل ابنا ونشأ هذا الابن عالما فى الشرع وألف كتابا فقهيا قيما ، وذلك هو قاضى القضاة ابن دقيق العيد .

وحين جاء صلاح الدين الايوبى الى مصر وقرر تحويل أهلها الى السنة ، لم يجد صعوبة فى ذلك ، أنهم يحبون الشيعة ويحبون السنيين ويحبون النبى عليه الصلاة والسلام ويحبون عليا كرم الله وجهه ، وهم مسالمون فى حيهم وليسوا على استعداد للشجار من أجل تفضيل زيد على عمرو أو عمرو على زيد .

وكان المفروض هنـا أن يسـقط كحك العيد كتقليد فاطمى بعد ذهاب عصر الفاطميين من مصر ، غير أن شيئا ما .. سرا ما فى الكحك ، جعله يقاوم الاختفاء ويمتد فى الزمان ويعيش ويستكمل نشاطه .

وربما قال المصريون لصلاح الدين — نتحول من الشيعة يا سيدى الى السنة .. ولكن نحتفظ بكحك العيد .. وربما تصور صلاح الدين كحك العيد هـذا اسم حركى لمنظمة سرية شيعية ، ثم اطمأن حين أكله وقرر العفو عنه وتركه للمصريين .

وبدأ حجم الكحك يصغر مع الانقلاب الصناعى فى أوروبا وظهور الالات وتطور المواصلات وتقدم العلوم وبلوغ عصر الاكتشاف ذروته وتحـول الانسـان الى اكتشاف الطبيعة حوله .

وهكذا تطور الكحك ، كان يصنع من السمن البلدى الاخضر الفاخر ، فصار يصنع من الزيوت النباتية التى تعبأ فى العلب الصفيح ، كان يرش عليه سـكر ناعم فصار يرش عليه سكر خشن ، وكانت الكحكة زمان تتعرض لامتحانات قبل أن تخرج من المصـنع مثل أى سيارة ألمانية فى عصرنا ، كان الكحكى يجىء .. والكحكى هو الذى يذوق الكحك ، ويمسك الكحـكة فى يده ، ويقربها من فمه ، فاذا لم تذب ذوبانا قبل أن تصل الى فمه كانت رديئة .. أما اليوم فالكحكة جامدة كقطعة الحجر ، ويمكن اعتبارها سلاحا كما حدث فى المشاجرة الاخيرة بين عائلتين على الكحك ، اذ انبدل صاج مكان صاج ، فقالت المدعية الاولى صاحبة الصاج الناعم ليس هذا كحكى .. هذا كحك يبطح لو ضربتك به ، ثم أمسكت كحكة بيدها وضربت بها وجه المجنى عليها

فسال دمها وكادت عينها تروح ، وعملت لها ثلاث غرز في جبهتها واستغرق شفاء الجرح أكثر من ٢١ يوما ، واحتار وكيل النيابة في تحديد نوع السلاح المستخدم في الضرب فسأل المتهمة :

ـ ضربتيها بكحكة يا ولية ؟

قالت : غاظتني يا بيـك .. قالت : ده كحكي .. وكحكي يدوب في الفم ، بطحتها لتعرف أن الصاج انبدل.

... ...

ان للكحك دنياه ، هو علم كبير تخصص فيه المصريون وتوارثوا تخصصاته ، ويحتفظون بأسراره التي تجهلها تماما أكاديمية الكحك في موسكو . ومركز أبحاث الكحك في أمريكا .

هناك أسر تشتهر بكحكها الناعم ، وهنـاك تقاليد لنقرشته .. وهناك زحمة الصـواني عنـد الفران ، ووقوف الشغالات بالساعات في انتظاره ، وهنا ينزل كيوبيد من سمائه ويرشق سهمه في قلبين عادة ، هما قلب صبي المكوجي وقلب شغالة لطيفة ..

وعاد يقول صبي المكوجي :

ـ أحلى م اللي شايله يا طعم انت يا كحك العيد

يرمي كلمته على كل واحدة تمر بالصاجات ، وأحيانا تدق صاجات الفرح في القلب وقد تغمز السنارة وقـد لا تغمز ، فاذا حصل ، صار الوقوف الطويل عند الفران مثل وقوف جولييت في حدائق آل كابيوليت ... شيئا يشبه الحلم الملون .

في الباب التاسع والسـبعين من كتابي عن الكحك الذي أنوي تأليفه والتقدم به لنيل جائزة الدولة ، وهو

باب عنوانه « النظر البعيد .. فى كحك العيد » فى هذا الباب أنوى أن نناقش بكل موضوعية أكاديمية ، موضوع احراق الفرن لكحك العيد ، وعلاقة هذا بحب الشغالة الجديد .

« وبذلك تنتهى الخيوط الرئيسية فى البحث » .

... ...

... ...

قالت زوجتى : الست والدتك بعتت لنا كحك العيد يا بيك .

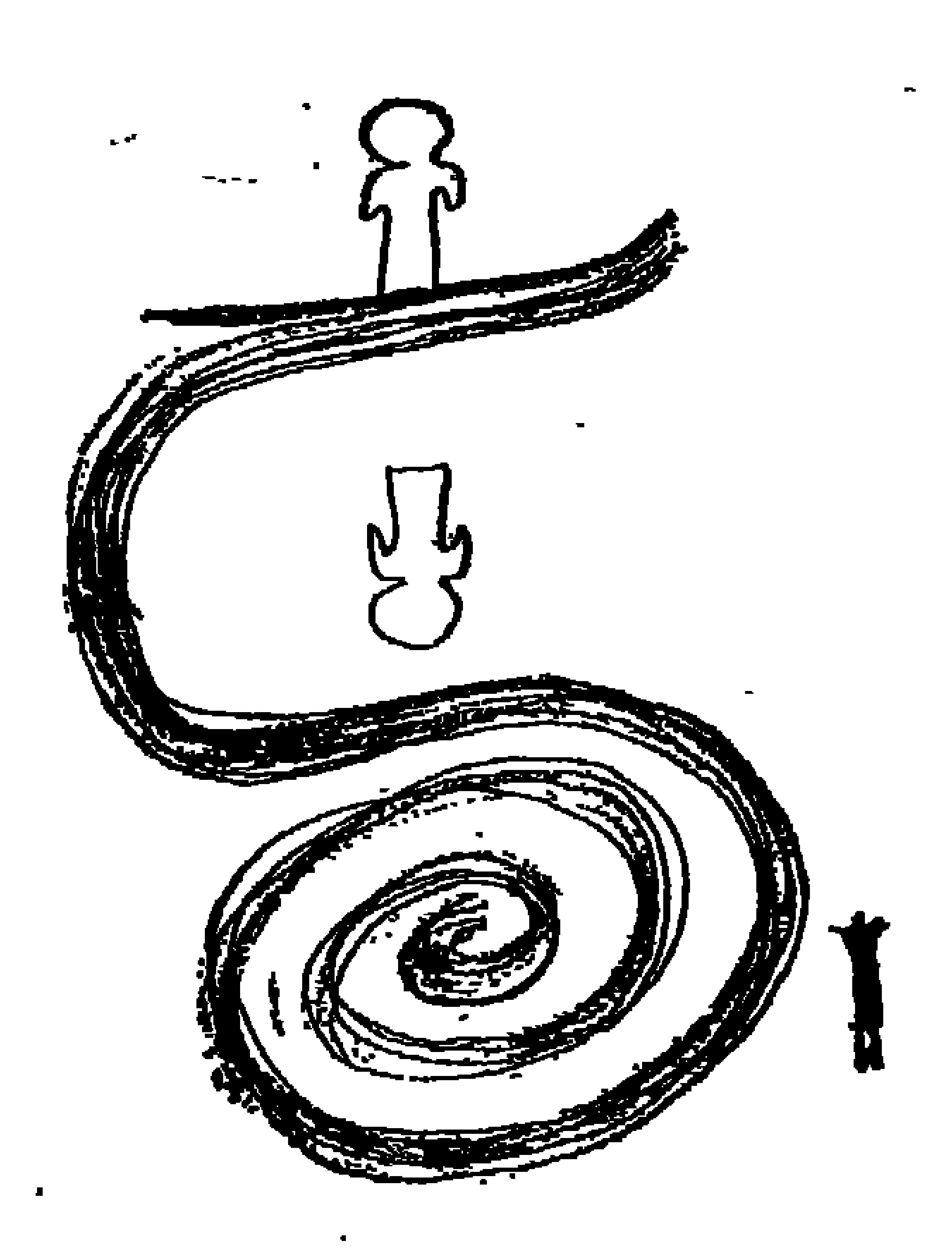
قلت : هاتى .

وهي تناولنى الكحكة انكسرت الكحكة نصفين قبل أن تصل لفمى .

هللت زوجتى وكبرت وقالت : ما شاء الله يا بيك ، ما شاء الله .

قلت لزوجتى : صلى عا النبى ولا تحسديها ، أمى أشهر من يصنع الكحك فى الكرة الارضية .

إضراب المعدة



الجمعة الحزينــة

اسير فى شوارع المدينة
الجمعة الحزينة
آخر جمعة فى شهر رمضان .

مر على المسلمين ١٣٨٩ شهرا من شهور الصيام .. نستثنى منها مائتى شهر خلال القرنين الاول والثانى بعد الاسلام ، وبعدها نستطيع أن نقول قد مر على المسلمين نحو ١٢٠٠ شهر من شهور القطايف والكنافة والثريد . فى البدء كانت الكلمة . كلمة اقرأ . أى ثقل نفسى احس به المســلمون القدامى ازاء الكلمــة . انتهى جبريل من قراءتها على النبى ، وانتهى النبى من قراءتها على خديجة ، وانتهت خديجة من قراءتها على بحيرا الراهب ، وقال الراهب : هذا هو النــاموس الذى أنزل على موسى .

فوجىء موسى بالنار وهو يقترب منها . كانت تشتعل فى منطقة مشجرة وسط ليل حالك بارد . وكان قلب النار يضىء بضوء لا عهد للناس به فى الارض . ويرتج الوادى المقدس بالنداء المفاجىء .

« فلما أتاها نودى يا موسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ، وانا اختــرتك فاستمع لما يوحى » .

أى روع يحسه النبى والله يختاره . ان قصــص الحــب العظيم فى نهاية الامر اختيار . والشــعلة المقدسة التى اتقدت عبر القرون لم تزل متقدة تقطع طريقها نحو غار حراء . نفس الشعلة . نفس المصدر . نفس الخالق ، وان تغيرت وجوه الانبياء والرسل .

قالت اليهود لموسى : اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون .

وقال المفسرون : مردوا على الذل حتى صار طبعا فى النفس وجبلة ، أذلهم فرعون والذل يلوى فطـرة الناس ويفسد سلوكهم فما عادوا يصلحون لشىء .

وقال العرب لمحمد : والله لا نقول لك ما قالته اليهود لموسى ، وانما نقول لك : لو خضت بنا البحر لخضناه معك .

اخوض فى شوارع المدينة ..
الجمعة الحزينة ..

ثمة ظاهرة تمضى الى الامام فى ثبات وسـداد ، الحوانيت التى تبيع بضائع الفرنجة تزداد ، ثمة محل لبلوفرات الكشمير التى تدفىء العباد ، وهذا محـل للكلونيا وهى فى الصباح خير زاد ، وهناك فيما يقولون منع وحظر للاستيراد . الا لمن آمن واتقى من محال القطاع العام فى البلاد . سألت نفسى وانا أنظر لقطعة قماش تعيش كالأوتاد .

ـــ بكم يا ترى ؟

ثم اجلت التفكير فيها وقلت : بعد العيد ، حين ننهى ما علينا للدائنين من سداد .

أعرف اننى صائم ، أعرف أن الصوم طريق مختصر الى التقوى .. اعرف أن التقوى هى أقصر الطرق الى الجنة . غير أننى فيما يبدو مولع بأطول الطرق .

لا علاقة لى بهذا الذى يسمونه التقوى . لا أعرف سببا لحزنى الكثيف الغامر ، لـماذا يبدأ مذاق الذنوب حلوا فى البداية ، ثم ينتهى الحفل وتبدأ المرارة تشـق

طريقها الى القلب ، ثم تزيد جرعة الندم ويتحول الحلو الى نبات الصبر المرير الذى يسقونه للمريض ولا شفاء . كم أكبر . لشد ما أحقد على دوران الأرض تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس . وتدور الشمس حول نفسها وحول النجوم . وتدور النجوم حول نفسها وحول المجرة . وتدور المجرات حول نفسها وحول أمر واحد من أوامر الله . أمر واحد : ائتيا طوعا اوكرها .. قالتا اتينا طائعين .

أنا أدور حول آلاف الاهتمامات عكس دوران الأرض والشمس والنجوم والمجرات ، يدورون جميعا فى اتجاه أمر الخالق . وأدور فى اتجاه معاكس . لا اله الا الله . لم يعد قولها يكفى لهز الارض وايقاع الاحترام فى نفوس الكائنات . تحولت سيوف المسلمين الى سيوف خشبية يمسكها خطباؤهم على المنابر ، وتحول القرآن الى أحجبة تعلق للبركة .

أسير . أريد أن اتصل بهبة الله القادمة من حقول الشاى المعطرة ، وارض الدخان الخصبة . أريد كوبا من الشاى وسيجارة . لكننى صائم ولا أصلى .

كيف أفطر وأنا مسلم . لكنك مسلم ولم يهزك احراق المسجد الأقصى . وقديما قالت امرأة مسلمة : وامعتصماه . فتحركت المروءة وسيرت جيشا لنجدة الصيحة .

أسير . اسمع رجلا يقول لرجل آخر وهو يقدم اليه سيجارة :

— فيه رمضان

لعلهما صديقان . يسأله هل هناك رمضان . هناك ياسيدى . غير أنه حوصر فى نفوس الآلاف بعد أن

كان راية تحرك نفوس الملايين . انحسر ياسيدى مثل موجة عظيمة وتساءل المسلمون بالدهشة والذهول : أين ذهب ؟. ولم ينظر أحدهم فى نفسه ليرى أين ذهب الاســلام . أضعناه من أنفسنا وتساءلنا أين ذهب . هى قدرة على النفاق بلا حد ، او هو غباء أصبنـــاه ولا رد .

وصل تلغراف ثان من المعدة الى المخ . هذا هو التلغراف الثانى الذى يصل فى النصف دقيقه الاخيرة . شعيرات الدم فى المعدة ترسل آلاف التلغرافات الى المخ عن طريق الأعصاب الدقيقة المنتشرة فى جـــدار المعدة . تسأل : أين الشاى والسجاير . وانتظرنا الشـــاى فى الصباح وانتظرنا الســـجاير فى الضحى وانتظرنا الفول فى الافطار وانتظرنا الأرز واللحم فى الغداء ولم يحضر أحد ..

قال التلغراف الاول : أفيدونا أى كارثة وقعت ؟

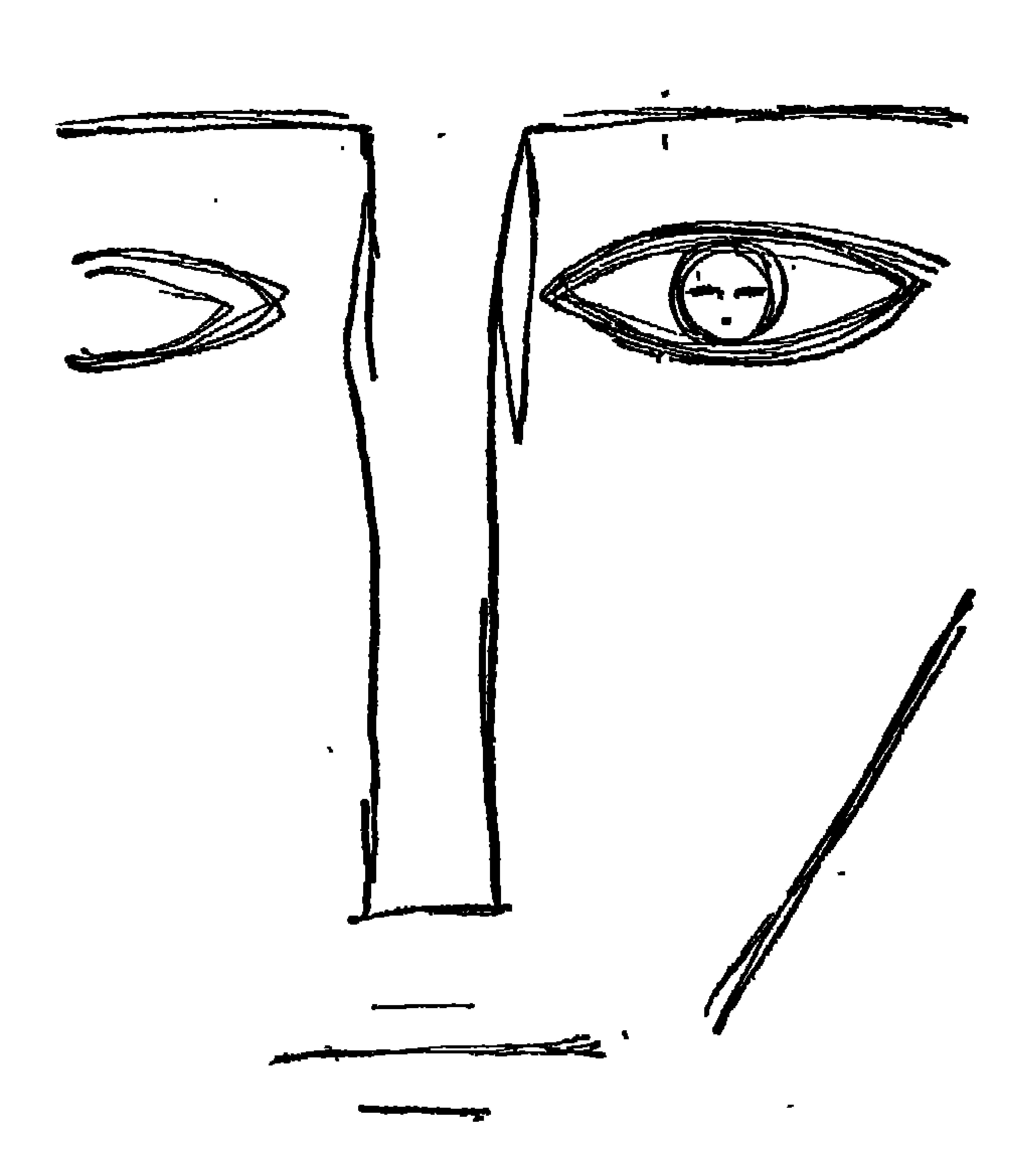
قال التلغراف الثانى : العصارة المعوية معطلة . الحواس مضربة . العصارات الضارة تتحرش على الحدود . هناك شيء خطأ .

قال التلغراف الثالث : كل شيء فى حـــالة ارتباك تام . جيوش المعدة فى حالة توقف كامل . ماذا حدث ؟ وكل مرة يعود التلغراف من العقل بجواب واحد : سيدكم صائم .

بدأت التلغرافات بعد ذلك تبلغ : الدم يسأل عن النيكوتين . تخلفت عشرون سيجارة عن الحضور . أفيدونا .

ولا رد غير انه صائم . سيدكم صائم . سيدكم يعذب نفسه . من العيب ان يفطر وهو مسلم . وهو مسلم لأنه مسلم . وقد أصابه من الصوم الجوع والعطش . وسيدكم رمز لآلاف المسلمين الذين صار الاسلام فى حياتهم قشرة على السطح ولم يعد هوى يملأ القلوب ويوجه الحواس .

الصائم اليتيم



هوى الاسلام المفقود يذكر المرء بهواه الخاص الذى ضاع ، لو كان المرء مسلما ما ضاع هواه . يضيع الانسان نفسه ويضيع هواه فى نفس اللحظة .

أسير فى شوارع المدينة ، ثمة فتاة تسير هناك ، شىء ما فى شعر الفتاة ومشيتها يذكرنى بها ، امتقع وجهى وأحسست بذلك ، نفض قلبى فجأة عنه ريش سنوات . كأنها كانت ليلة ممطرة واحدة يانور ، كانت ليلة ممطرة واحدة يا حبى .

كانت تقول لى : لن أكون لغيرك مهما حدث . ليس المهم هو المكان أو الطعام .. المهم هو الشخص . هو الرفقة . أنت المهم .

تذكرت وجهها الجميل ذا الملامح الطفلة .. ولم أعرف أن هذا الوجه يمكن أن يغيب يوما عنى حتى ولو بالموت .. لماذا هجرتنى وكذبت على . لماذا يكذب الانسان ، كنت مسلمة ورغم ذلك كنت تكذبين ، لماذا يكذب المسلمون .

قالت لى يوما : اننى معلقة فى الكون بطرف اصبعى، أنت صلتى الوحيدة بالعالم ، ولو قدر لك يوما أن تفكر فى هجرى وتذهب ، فسوف أسقط من شاهق .... أين أذهب بعدك .. أين أذهب .

ها أنت قد وجدت أين تذهبين بعدى ..

أحس بمثل أحزان يونس ، لم يكن يعرف أين يذهب،

وفوجىء بنفسه فى جوف الحوت ، والحوت يجرى به فى جوف البحر ، والبحر يجرى به فى جوف الليل ، ثلاث ظلمات بعضها فوق بعض .. تصور يونس أنه مات .

حرك حواسه فوجد نفسه يتحرك .. هو حى اذن. أصاخ سمعه . قاع البحر بدنياه يسبح . كان منكفئا على وجهه فى بطن الحوت فسمع تسبيح الكائنات لله .. كان ساجداً مثلى بجسده رغم أنفه . سجد بقلبه وتحرك لسانه : لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .

كان يونس صائما فى جوف الحوت ، وكان حبى لها صوما مستمرا وأحزانا عميقة تلد ملايين الافراح العميقة .

مكث يونس فى بطن الحوت زمنا لا يأكل . طعامه التفكر والتسبيح . **بعدك يا حبى تعلمت الصوم . بعد رحيلك تعلمت اللامبالاة . وحين ذهبت تماما تعلمت اليتم . صرت الصائم اليتيم والجمعة اليتيمة والاسلام المهجور .**

الجمعة اليتيمة والصائم اليتيم يسيران . تتقدمنى بخطوات . كم تشبهها هذه الفتاة .. حتى فى مشيتها . انها تقفز مثل فراشة صفراء مذهبة الحواف . ما الذى بقى وما الذى ذهب . مددت يدى فى جيبى وأخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة .

أترنح تحت دوار هائل هو دوار الحب الاخير .

نسيت أن الدنيا رمضان وأننى صائم . أستندت الى عمود من أعمدة النور .

الدنيا نهار والنور مضاء ، والقلب وحده فى ظلام عظيم .

ظلام ساكن هادىء ويتيم هو الآخر .

معها لم يكن هناك زمن عام مثل أزمنة الناس التى تنقسم للشهور والايام والساعات والدقائق .. كان لنا زمننا الخاص .. زمننا الخاص الذى نلتقى فيه حين نشاء ونفترق فيه حين نود . ولو بقى كل منا فى مكانه لا يبرحه .

كان يكفى أن أنظر اليهـــا ليرتعش داخلى شىء ، وينهار الحاضر ، ويموت الموت ، وتبعث أصوات داود وهـــو يقرأ مزاميره ، فتحيط به الطير وتأنس اليـــه الوحوش وتسبح معه الجبال ... وأحدق فى عينيها الواسعتين الحزينتين ، وجبهتها النبيلة الفضـــية ، وشعرها الذى كان مثار قلق دائم لها ، فهو يوما أصفر ويوما أسود ويوما يشيع فيه الشيب الذى تصطنعه .

٢٠ سبتمبر

نهاية الخريف وبداية الشتاء ..

الشمس تفقد حرارتها وتشحب ، عما قريب تأفل الشمس هناك وتشرق داخله . فى السماء سحب تنذر بجو بارد ومخـــاوف مجهولة .. وهى ترتدى ملابس نصفها صيف ونصفها ملابس شتاء .. الجونلة صيفية والبلوزة شتوية والصندل الجميل يكشف عن أصابع قدميها .. بعد أزمنة سوف تنعقد الصداقة بينه وبين كل مسام أصابع أيديها ، ويصير صديقا لكل أظافرها ..

كانت صائمة فى البـــداية ، وأخفت بالكريم هالات سوداء حول عينيها .. غير أنه لم يعشق شيئا مثلما عشق وجهها حين تغسله من الاصباغ .

كان يحب وجهها هكذا .. كما خلقه الله .. وكانت تتصور أنها ليستجميلة .. وكانيراها حاجته الاولى والاخيرة فى الوجود . اجتمعا فى البداية حول قصيدة من الشعر استمعاليها ولم يكنيفهم كل كلمة علىحدة ، وانما أحس بمذاق ما تقوله كله ، وصعد حزن هادىء ورفيق الى القلب ، أحزنه أن مات هدهد سليمان ، وأحزنه أن ماتت النملة التى حدثته ، وأحزنه أن مات سليمان نفسه ، لمـــاذا لم يفهم ساعتها أن كل شىء على الارض يموت ، الانبياء والاشياء الجميلة والحب ، لمـــاذا تعلق بشىء يمكن أن يموت . لم يسأل نفسه هذه الاسئلة كلها ، كان يمتلىء بحبها ، وعرف بسببها جراة المحبين ، وكان يتحدث معها كثيرا وينزلق الى المبادة ، وهو يعلم أنه غير مؤاخذ بأقواله .

قال أحد الطيور الذكور لاحدى الطيور الاناث فى قبة سليمان : اننى أحبك فتعالى الى ..

ورفضت أنثى الطير

قال الذكر : لم تمتنعين على ، وان شئت قلبت القبة على سليمان .

وسمعه سيدنا سليمان فاستدعاه اليه وسأله : ما حملك على ما قلت ؟ هل جننت ؟

قال الطائر : يا نبى الله .. ان العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

وكان سليمان حكيما فقال له : صدقت .

لا يؤاخذ العشاقبأقوالهم ، كانا يتحدثان معا ساعات طويلا ، ثم ينصرف الى بيته فلا يعلم فيمَ كانا يتحدثان ؟ ولا يذكر الا مذاق الراحة التى تملأ صدره .

كانت تشبه نسيم حرية حقيقية .

أحيانا كانت تقول له :

ــ انهم لا يطعموننى .. تصور .. لقد تشاجرت ورفضت أن آكل .

وكان يطعمها من عينيه ويرى بعينيها .

وربما سألته فى لحظة يأس :

ــ لماذا أتعذب . لقد ظلمنى الله .

وكان يصرخ عليها من البعد السحيق الذى تقف فيه بكلمتها .

ــ نور .. لماذا تقولين ذلك .. الناس هم الذين يعذبون الناس .. نحن نظلم بعضنا وليس الله مسئولا عن ذلك .

كانت نور تتساءل دائما عن الالم الذى يملأ العالم ، وتأكل أظافرها وتتحدث عن المرض والجهل والتعاسة والظلم والدماء البريئة التى تسيل فى الارض . وكانت تشير باصبعها نحو السماء كأنها تتهم السماء ، وكان يقبل أصبعها الصغيرة ويخفضها فى اتجاه الارض ، حيث يقف المسئول عن هذه التعاسة . كان يشير الى الانسان ويصحح اتجاه اصبعها اليه .

كان يقول لها فيما يقوله :

ــ « نور » هناك علاقة وثيقة بين أحلام هتلر الظالمة وبين شلل آلاف الاطفال ، بسبب نقص الكالسيوم الذى سببه غياب اللبن الذى كان يشربه القتلة من جنوده . ان الكون كله يقوم على الاسباب والمسببات والعلاقات والحسابات المتشابكة المعقدة ، والظلم الانسانى وحده هو المسئول عن التعاسة الانسانية ، ونحن ننتمى لجنس قتل فيه قابيل أخاه هابيل . أباده تماما من سطح الكرة الارضية . هل كان قابيل جنسا

وكان هابيل جنسا آخر ؟ هل كان أحدهما فردا والثانى فردا ؟ هل قتل قابيل هابيل بسبب امرأة ؟ أم لمجرد أن المقتول أفضل من القاتل .. ولهذا قتله القاتل . . لا أعرف .. كل ما أعرفه أننا حين نسكت على رجل يعذب رجلا آخر .. نزيد دون أن ندرى من كمية الشقاء فى العالم .. يجب أن تقاومى تعاستك الخاصة.

وتسأله : من الذى يصنع قيودنا على الارض ؟

ويجيبها : صمتنا يا نور . مجرد الصمت .

وتسأله : لم أعد أريد أن أقاوم ... تعبت وسئمت وأفكر فى الخروج .

ويقول لها : نور . لن تتركينني يا نور .. أين أذهب بعدك ؟

ان قابيل لم يزل يتحرك نحو شقيقه الطيب ، يجب أن يتدخل أحدنا ليمنع هذه الجريمة ، تريدين الهرب يا نور .

وتستمع اليه نور ثم تبتسم ، ويدرك من ابتسامتها أنها قد تعبت من المناقشة .

وتسأله برفق : أنت تعتقد اذن أننى لست مظلومة ويضمها لصدره وهو يهمس : مظلومة .. ولديك كل هذه المواهب والحسن الظالم .. أى جراة يا نور .. أى جراة ..

سألها يوما وهو يتصنع الجد : هل انت مصرية . ان وجهك لا يوحى بمصريتك .

حدثته ثائرة أنها مصرية أكثر منه آلاف المرات ، كل ما فى الامر أن احدى جداتها جاءت من الشمال ، جاءت وعقلها أرض تهب عليها الرياح الاربع ، ربما بيعت فى مصر ، ربما أصبحت رقيقا ، غير أنها كانت حرة .. كانت هى الحرية ذاتها .

ويقول لها ضاحكا : أنت من الاجلاب الغرباء الذين وفدوا على مصر ، وأنا من قدماء المصريين ، أنظري أى عذاب تحملينه لسكان البلاد الاصلية .

كانت تحب مصر أكثر منه وتسخر من اعتزازه بالارض الى الحد الذى لا يفرق فيه بين أرضه ونفسه.

وكبر حبهما معا .

يوما بعد يوم .. ساعة بعد ساعة .. صار اذا ناداه أحد ردت هى عليه ، وان سأل عنها أحد رد هو بدلا منها .

ينادى المنادى باسمها فأجيبه
وادعى فليلى عن ندای تجيب
وما ذاك الا أننا روح واحد
تداولنا جسمان وهو عجيب
كشخص له اسمان والذات واحد
بأى تنادى الذات منه تصيب

والتقيا يوما فى البكاء . كان يوما من أيام الجمعة اليتيمة . رقدا فى فراش واحد . لم يلمسها رغم أنه زوجها . انما توضأ معها . وأحضرا القرآن ، وأقسما عليه ألا يخون أحدهما الله . وأن يغفر أحدهما للآخر . والتصق رأساهما وبكيا ما شاء الله لهما أن يبكيا . بعدها اختفت تماما .

لم يعرف أين ذهبت .

قيل أنها ماتت ، وقيل أنها سافرت ، وقيل أنها لم تكن موجودة قط ، وقيل أنها وهم ، وقيل بل حقيقة وسوف تعود .. وأشار الناس الى مقبرتها فى صحراء مصر وقالوا :

ــ أين تبحث عنها وهى هنا . لقد ماتت . ذهبت . غير أنه ضحك ورفض أن يصدق ...

صار الصائم اليتيم بعدها وأن رفض أن يصدق . لم يزل ينتظرها . لم يزل يسأل كلما وصل الى عمله : الم تصل رسالة .

ويسألونه : أى رسالة

ولا يعرف بماذا يرد .. ولا يعرف ساعتها كيف يتسع قلب فى حجم قبضة اليد لاحزان فى رحابة الافق..

ويعاود تفكيره فى الحوت الذى التقم يونس .. لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين . كان يونس صائما فى جوف الحوت ، وهو اليوم صائم فى جوف الحوت . لو كان يدرى فحسب أين هى ، بأى أرض نزلت ، وبأى ارض دقت أعلامها . لو كان يعرف فقط أين يستطيع أن يبعث اليها بحبه . أو بحنين روحه . أو بشوقه . لو كان يعرف أو يدرى لهدأ .

يقولون له : ماتت ، ويرفض أن يصدق .

- يقولون له : أين هى ان كانت حية ، فلا يعرف كيف يرد .. ويفكر أنها يمكن أن تجوع فى غربتها أو تشقى أو تحزن أو تتألم أو تلتوى قدمها وهى تصعد السلم و يصيبها البرد أو يصيبها السعال أو تمرض أو تموت .

هل مرضت قبل أن ترحل . لا يعرف .. لا ..

هذا كذب .. كل ما يحكونه له كذب .. أنتم تكذبون جميعا .. أنتم جميعا تكذبون .

... ...

... ...

... ...

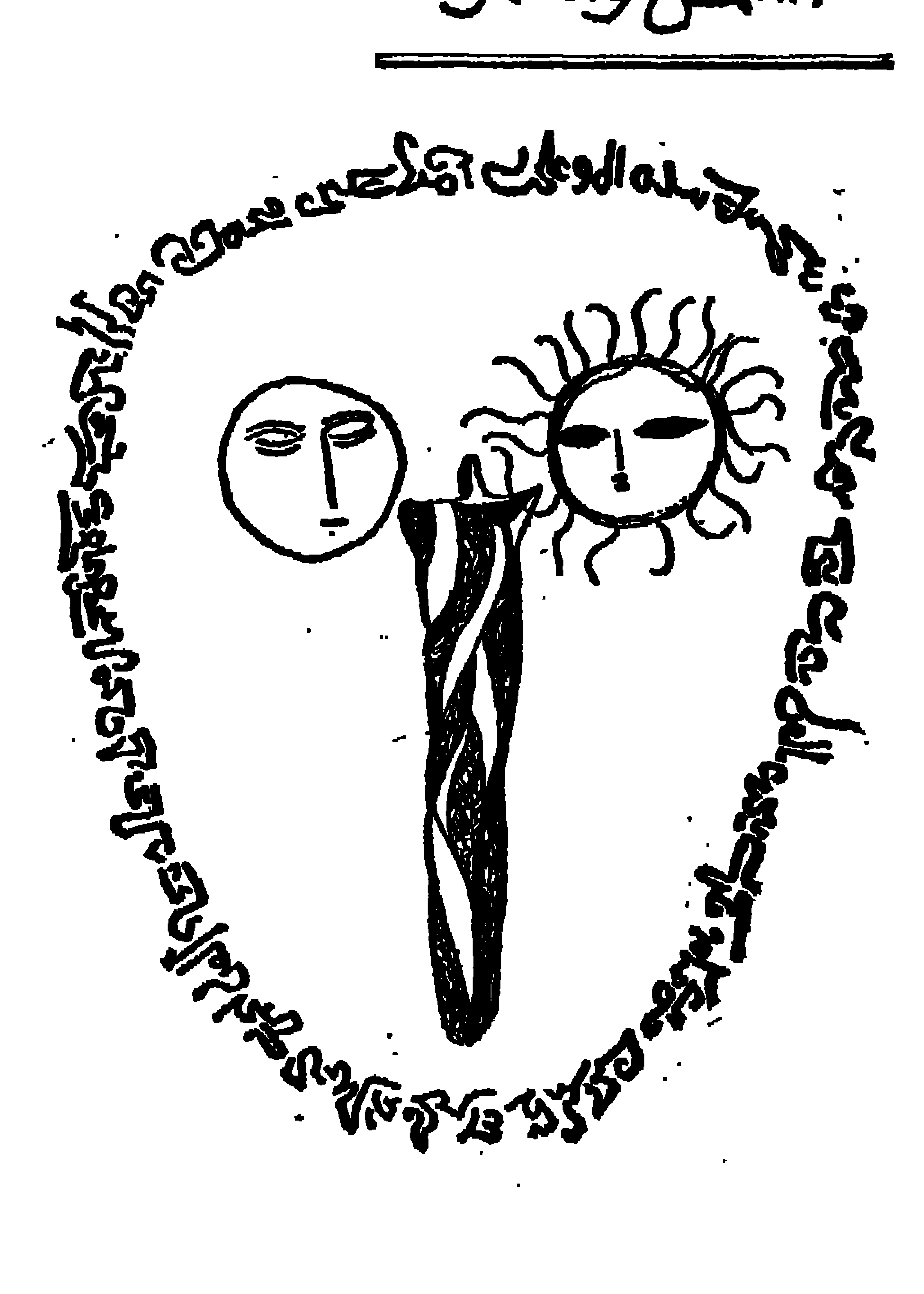
ذهبت لشيخى الصوفى أساله العون
قلت له : ذهبت يا سيدى
قال : بم تحس
قلت : أحن اليها يا سيدى ، وأسأل بالشوق عنها ، وأبكيها ، وتشتاق نفسى اليها .
قال الشيخ :

ومن عجب أنى أحـــن اليهمـــو
وأسأل شـــوقا عنهمو وهمو معى
وتبكيهمـــو عينى وهـــم فى سوادها
وتشتاقهم نفسي وهـــم بين أضلعى

قلت له : صرت الجمعة اليتيمة والصـــائم اليتيم يا مـــولاى .
قال شيخى : أنت لا تستمع الى .. ليس هذا من أدب المريد مع شيخه .. ونهض واقفا فانصرفت ..

□ ■ □

الشمس والقمر



يحب العشاق الصغار القمر .. لا يعجبهم منه غير جمال الصورة ..

فاذا نضجوا فى العشق هجروا القمر واحبوا الشمس .. يستهويهم الآن دفء المشاعر وطاقة الحنان ..

فان زاد نضجهم صاموا عن الدنيا وأحبوا خالق الشمس والقمر وحده .. وهؤلاء هم الصوفية ..

اعترف أننى قطعت المرحلتين الاولى والثانية ، ولم تزل احلامى تحوم بحنين ساكن حول المرحلة الثالثة ..

فى شبابى كنت من عشاق القمر ، وكثيرا ما أبحرت بسفن الخيال على سطحه ، ثم وقع لى حادث صغير مع القمر فى شهر من شهور رمضان ، اكتشفت ان حبة لى يصغر ويكبر .. مرة يتحول الى البدر ومرة يصبح هلالا .

... ...

ظهرت نتائج الامتحان فاذا بالقمر يتحول من البدر الى الهلال فجأة ..

رسب العاشق ونجح القمر ... فى البداية يقول لك القمر .. : لماذا رسبت ؟

وتقول فى نفسك : ما هذا . كنت أتصور انك ستفرحين حين أرسب بسببك ، ان هذا دليل قاطع على أننى غارق فى حبك ..

غير أن البنات يا مولاى العاشق واعيات منذ الطفولة ..

ترى الولد الصغير يلعب بدبابة معطلة تجر جنزيرها وراءها ، وتصور له طفولته أنه قد استولى بالدبابة على الصالة ، وعما قريب سيفتح بها الكرة الارضية .. أحلام نابليون وجنكيزخان وتيمور لنك والاسكندر الاكبر

وهولاكو تجتمع معا فى نفس الولد الصغير .. وعبثا تحاول اقناعه بأنه يلعب ..

أما البنت فتحتضن عروستها وتدللها وتغنى لها اغنية لكى تنام ، وبذلك تتمرن البنت على أهم شىء سوف تفعله فى المستقبل .. تتدرب منذ طفولتها على الامومة ، ولا تضيع وقتها فى أحلام مجد مستحيلة ومضحكة مثل الولد .

ويكبر القمر ويدخل الجامعة .. ويحبه نفس الولد الذى كان يلعب بدبابته فى الصالة .. وتمضى الايام ويذهبان للكشف عن النتيجة فاذا العاشق قد رسب ونجح القمر .. ويتصور العاشق أن القمر سيرثى لحاله ، ويشفق عليه ، ويزداد حبا له ، ويقول له لقد فعلت من أجلى أعظم شىء يمكن أن يفعله الرجل من اجل المرأة ..

ـــ لقد حطمت مستقبلك من أجلى ..

غير أن هذا لا يحدث لدهشة العاشق .. انما يغضب القمر لان العاشق قد رسب .

ـــ كان المفروض أن تنجح

ـــ كنت أحبك .. ضاع وقتى فى كتابة خطابات حب اليك ..

ـــ لو كنت تحبنى حقا لنجحت .

ـــ يا خبر اسود .. لقد فضلتك على النجاح نفسه .. أهذا جزائى .

ويمضى الوقت . ويكتشف العاشق انه كان مخلصا ولم يفكر الا فى القمر .. لو كان مجربا وله خبرة لادرك أن عليه أن يبتعد عن القمر أولا بفكره ليجمع الثمن الذى سيشتريه به فيما بعد .. ويدهش العاشق لهذا

الانفصال بين الفكر والمــادة ، .. ويلتفت الى دروسه .. ويتخرج العاشق ويتخرج القمر .. ويقف العاشق تحت شجرة من أشجار التفاح العظيمة وهو ينتظر من القمر أن يفتح ذراعيه له ويرتمى فى أحضانه كى يبدأ معا رحلة اثنين من فقراء المحبين .

ويطول انتظار العاشق تحت شجرة التفاح .. ويفاجأ يوما بأن القمر قد تزوج رجلا فى الخامســة والثلاثين ، رجلا يملك سيارة وعنده طين ويلعب الطاولة ويغضب اذا انهزم فيها ... ويقول العاشق فى نفسه.. خدعنى القمر ..

... ...

ذهبت الى شيخى الصوفى وحدثته عن القمر ..

قلت له : خدعنى القمر

قال : كيف

قلت : انه يتغير .. يتحول .. يكبر حبه ويصغر .. لم يكن صائما من أجلى كما توهمت ، انظر يا سيدى الصوفى .. لقد أفل القمر أخيرا ..

ربت الشيخ على ظهرى وقرأ على قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين .. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » .

وهدانى ربى فى سن الكهولة .. فوقعت فى حب الشمس .. صارت الشمس أمى وابنتى فى نفس الوقت كنت أقول لها : أنا وحدى أحبك أنت وحدك ..

وكانت تبتسم ، وشجعتنى ابتسامتها فذهبت أطرق بابها يوما .. سألت الشمس : من الطارق ؟
قلت : أنا

فلم تفتح لى ، وخيل الى أن صفاء وجهها يتعكر ، وعدت دهشا أفتش فى أعماقى عن سر لهذا الرفض فلم أجد ، وسألت شيخى الصوفى عن سر غضبها فتحدث الى ولم أفهم عنه .. قال لى : عندما تسألك : من يطرق الباب ، قل لها : أنت تطرقين الباب .. ولم أصدقه ، ومر عام زاد فيه شحوبى ونحولى وعذابى .. ثم عدت اليها وطرقت الباب ..

سألتنى الشمس : من الطارق .
قلت لها : أنت
وانفتح الباب ساعتها ..

حين لم يعد هناك أنا وهى .. حين لم يعد هنـاك اثنان .. حين صار المحب ظلا لمحبوبه .. حين فنى المحب تماما وبقى المحبوب بجلاله وحده .. ساعتها انفتح الباب ..

وتعلمت من يومها كيف أحب الشمس بعد ان كنت اتوهم اننى أحب القمر .. والشمس والقمر آيتان من آيات الله .. والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، والله أكرم بعباده منهم بأنفسهم ،فهو يخلق للارض شمسها الام ، ويخلق لكل واحد منا شمسه الخاصة ، شمسه التى تضىء له وحده ، وتمنحه طاقة الحياة والابداع والتوهج ..

وهذه الشمس الخاصة هى آية من آيات الله تعالى ورحمة منه وربما كانت شمسنا الخاصة اعظم فى الدلالة على عظمة الله من الشمس الام .. يسيطر

علينا هذا الوهم فترة من الزمن ، حتى لنفكر فى قتل من يحاول اقناعنا بأننا نتوهم .

... ...

حدثنى شيخى بأن الحب الانسانى وهم ، فابتسمت له بوجهى وأنكرت عليه فى قلبى .

... ...

ونكبر اكثر .. يشتعل الشعر الابيض فى رؤوسنا أكثر ، ويجىء علينا اليوم الذى نكتشف فيه أن شمسنا الخاصة قد خانتنــــــا هى الاخرى وغربت ، ذهبت سافرت ، أفلت ، ضاعت لاى سبب من أسباب الفقد أو الضياع ، ونغرق فى بحر من الظلمات فجأة بغيرها . وتنسحب منا الارض بعد أن ضاعت الشمس . تتحول البحار والمحيطات الى جليد . وتكبر جبال الثلج حولنا حتى لتسد عنا الرياح والنجوم . وتتقطع الاســباب والعلائق بيننا وبين الدنيا ، ويبدأ حزنـنــــا الحقيقى ساعتها ..

... ...

وتحس فى البداية انك منقبض الصدر قليلا ..

ثمة احساس ضعيف بأن ثقلا ما قد صعد من مكان ما واستقر داخل قلبك ، ثم تهمد روحك وتفقد بصيرتك قوة أبصارها فلا تعود تحب زهرة أو شجرة أو بقرة أو نملة أو سحابة عابرة .. ثم تكتشف أن قلبك يدق .. وتفكر أنه يدق منذ ثمانية وثلاثين عاما ، وتحضر ورقة وقلما وتبدأ فى الحساب .. قلبك يدق منذ عشرين مليون دقيقة ، كم مرة يدق فيها القلب فى الدقيقة ، من ٨٠ دقة الى ١٢٠ دقة .. يا للعدد الرهيب ، لقد دق قلبك فى المتوسط حتى الان ٢٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دقة ، اى آلة

تدق كل هذا العدد من الدقات ولا تتوقف .. هنـــاك احتمال بأن يتوقف القلب بعد هذا المجهود الرهيب .. وتبدأ بتفكيرك فى الموت ، ثم تستولى عليك فكرة الموت، ثم تتصور أنك ميت يتوهم أنه حى ، ثم تتأكد أنك ميت يحلم ..

لقد ذهبت هى ..

ذهبت الحقيقة الوحيدة فى حياتى أو حياتك .. ذهبت قدرتنا على الاختيار .. وبذهابها لم يعــد هنالك ثقة حتى بأننا أحياء .. لكنك لا تموت ، وتفسح فكرة الموت فى نفسك مكانا لكآبة لا تلبث أن تتسع حتى تملؤك .. وتصبح عصبيا .. وتحس مثلى برغبة فى البكاء ولكنك لا تبكى ، وتود أن ترمى بنفسك فى النيل لكن مشكلتك أنك تعرف السباحة وربما سبحت وخرجت لشاطىء اليأس الآخر .. ثم تلاحظ دقات قلبك ذات ليلة وأنت راقد على ظهرك . الموضوع جد ، ان قلبك يسرع .. ثم يبطىء .. ثم يدق بشكل لا علاقة له بالسرعة او البطء .. لقد بدأ قلبك يلخبط .. وهذا انذار نهائى بأنه قــد تعب ..

قلت لنفسى : سأموت حتما بعد ثوان .. وهرعت الى الطبيب ثانى يوم بعد ان صار الامر جدا لا هزل فيـــه .

قلت للطبيب : قلبى يؤلمنى يا دكتور

أرقدنى على الفراش وكشف على القلب وقال لا تخف .. اضطراب بسيط فى القلب .. بم تحس

قلت : أحس بكآبة هائلة ، نريد مكانا نبكى فيه وننشج ونمزق وجوهنا بأظافرنا وتشجعنا دموع الآخرين على البكاء ..

قال الدكتور : أنت مصرى أصيل تحب النكد مثل قدماء المصريين .. كانوا يتفننون فى النكد رغم حبهم للحياة . هل تعرف ان بكائيات المصريين وعديدهم فى الجنازات أعظم من أغانيهم فى الفرح وأشعارهم فى الحياة .

قلت : يا دكتور أنا أموت وأنت تحدثنى عن قدماء المصريين .

قال : ما هى مشكلتك .. لماذا أنت مكتئب .

قلت : لا أعرف

ثم سكت خجلا .. لم أقل له أننى مكتئب بسبب رحيل من أحب .. سيضحك الدكتور ويقول : رجل يقترب من الاربعين ولم يزل يحب .. كتب الطبيب روشته طويلة ملاها بأدوية ضد الاكتئاب وانصرفت .

تناولت الاقراص ولا امل .. الالم المادى فى القلب يزيد ، والكآبة لم ترحل وانما تنتشر . فشل أطباء الجسد ، ولم يبق غير أطباء الروح ، وأذهب محطما لشيخى الصوفى لاقول له : خدعتنى الشمس وأفلت هى الاخرى يا سيدى .

ابتسم شيخى الصوفى وقرا على قوله تعالى : ((فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين)) .

سكت الشيخ ولفنى الصمت . . ظللت صامتا ثم تذكرت بيتا من الشعر لابى عربى ، من أكون جوار ابن عربى ، ان ابن عربى يعترف صراحة بأن شمسه

الخاصـــــة حين غربت من أفق السماء أشرقت بأفق قلبه ..

طلعت فى العيـــــان شمسا فلما

أفلت : أشرقت بأفق جنـــــانى

قال الشيخ : أنت مريض ودواؤك أن تعود الى الله
قلت للشيخ : الشمس داخلي يا سيدى .. والشمس كرة ملتهبة .. وهى نجم فى حالة انفجار نووى .. تصور الشمس داخلك .. أن درجة حرارة قلب الشمس ٤٠ مليون درجة مئوية .. هى درجة حرارة لا نعرفها على الارض .. تصور هذا كله داخلك يا سيدى .. داخلك أيضا ثلج بسبب مسافة البعد .. اننى أتمزق يا مولاى.

قرأ على الشيخ وهو يبتسم قوله تعالى : « **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة .. أتصبرون** » .

قلت لمولاى مجاملا ومنهارا فى نفس الوقت : اصبر ان شاء الله يا مولاى .

... ...

زارنى الشيخ فى المنام .. والقى الى بكتاب منها ..
لم أكن أعلم أن شيخى يعرفها أو يتلقى منها ما تكتبه الى .. كانت تقول فى خطابها :

— لانك تعودت الحب ، ولانك تخاف الان خيـــانة المحبين ، لم يبق الا أن تبدأ رحلة ضياعك العظيم فى الارض.. وليبدأ عطشك لنوع جديد من أنواع الحب.. نوع لا احتمال فيه لخيانة الغروب ولا وجود فيه لغير جلال الحب وحده .. هل تجد غير الله ..

لمـــاذا لا تبدأ رحلتك اليه .. ستأكل فى حـــدائق التوبة من ثمار الندم والبؤس التى ازهرت بسبب غيبتك عنه وتفريطك فى حبه .

ماذا لو تعلمت الصوم عن الدنيا خلال طريقك الى الله .. تتعذب اليوم بسببى وتكرهنى قليلا ، لكنك غدا بسوف تشكر لى أن قدتك الى الله .

... ...

... ...

لست أعرف هل بكيت وأنا نائم أم خيل الى أننى أبكى .. لمـــاذا رفضتنى .. لمـــاذا رحلت .. لمـــاذا يشيع النقص فى الحياة .. لمـــاذا نجد ما لا نريد ولا نجد ما نريد .. لمـــاذا قالوا للنصراباذى : ليس لك من المحبة شىء . ولمـــاذا رد عليهم بقوله : ولكن لى حسرات المحبين ..

زارنى شيخى الصوفى مرة ثانية .. قال وهو يشير بيـــده :

ـ اذهب غدا الى حدائق التوبة .

وخيل الى أننى سمعته يقول حدائق الندم .

حدائق الندم



كان شيخى الصوفى يسميها حدائق التوبة . وكانت نور تسميها حدائق الندم ، وأحسب أن اسمها الحقيقي هو الجحيم .

يتصور الناس أن الجحيم نيران تشتعل حولك . نيران تأكل الجلد فيعود الى الحياة فتعود تأكله فيعود الى الحياة .. يرسم القرآن للجحيم هذه الصورة . غير أن كل انسان يختلف عن غيره . خلق الله كل انسان على صورته التي تختلف عن صورة غيره . تختلف بصمات الاصابع ، وذبذبة الصوت ورائحة العرق ولون الفكر واستجابة النفس ومذاق الروح .. واذن فان ما يعذب انسانا قد لا يكون كافيا لتعذيب انسان آخر .. والنار التى تشتعل حولنا قد تحرقنا فنموت ، وبذلك يتوقف العذاب ، غير أن هناك نارا تشتعل داخلنا فلا نموت . تحرقنا ونحن أحياء . تقوضنا من الداخل وتنتشر يوما بعد يوم ونحن نعيش .. تأكل الجلد الذى يموت وتجدد فيه الخلايا فتعود تأكله .. ويتم هذا ونحن أحياء . أى شيء أرهب من هذه النار .

أسير فى حدائق الندم .

يوم ٦ سبتمبر انفتحت أمامى كل أسوارها فجأة .

أحس هنا بغربة غامضة .. وليس ثمة من أحدثه ، وكلما تحدثت لنفسى ازداد اضطرابى ويأسى ، وكلما أفضت فى التعبير عن نفسى تكشف لى عجزى وحاصرتنى المخاوف . أبحث عن معنى جديد لكلمة الندم .

الندم . هذه هى الثمرة الوحيدة المريرة التى يسمح لنا باقتطافها من حديقة الذكريات .

أسير فى حدائق الندم . يخيل الى أننى قلت هذه العبارة قبل ذلك . لا أذكر متى قلتها ولا بأية مناسبة .

لماذا اكرر أن لي يوما واحدا هنا . يخيل الي أن هـــذا وهم ، وانني هنا منذ عشرة الاف سنة ضوئية .

توهمت أن اليوم هو الاحد . سالت اى يوم نحن . لم يعرف احد . ليس هناك قمر ولا شمس ولا نجوم . السماء سوداء تماما وغير موجودة .

استمعت الى نشرة الاخبار .

لم أفهم شيئا . سقط ثعبان من أعلى السلالم فالتوت قدمه . وضعت احدى القطط ثلاث كلاب بيضاء . تعلق الاسد بأغصان الشجرة ونزل القرد يزار فى الغابة أغارت ثلاث نملات على قطيع من الفيلة وأبادته . قالت سمكة القرش للحوت يجب أن تنقرض ـــ فانقرض ، أكل الخفاش كل الفراش الملون فالرجا ممن كان يحتفظ بفراش ملون أن يقدمه لمتحف الندم .

أغوص فى العدم . اى غابة ينقلون أخبارها . لا معنى لشيء . أحاول أن أركز ذهنى عبثا . ذهنى يتشتت منى ويتوه فى فضاء غريب ممتد . سألت ألف سؤال فجاءتنى الاجابة ألف سؤال . لا يجيبك هنا أحد .

أسير فى حدائق الندم .

أحاول أن أفكر . هب نسيم يشبه أنفاسها المعطرة على جبهتى . . .

أمسكت بالذكرى وانحنيت على الكون . من أين جاءت رائحتها . لو عرفت من أين جاءت رائحتهـــا لاحتملت كل شيء . .

كانت نور هناك . . وهناك طعم ثلج فوق شجرة التفاح ، وهناك دفء رمال تمتد أمام شاطيء من الخمر ، وهناك عشرة آلاف زهرة لا أعرف أسماءها تنشر أريجها معا . وثمة نجم يولد فى السماء ونحن نشهد ميـــلاده

معا . والنجم شمس بعيده . والنجم يقترب والدفء يمسح وجهك أكثر . عطرها الخاص بغير أن تتعطر كان مزيجا من هذا كله . وقد كنت أدفن رأسي في صدرها وأشم رائحتها وأحاول إن أعرف أي جزء في العطر يمر أمامي في هذه اللحظة .

ودائما لم كن أعرف ...

هل هي شجار التفاح أم رمال الشاطيء أم احدى الزهور العديدة ...

لو استطعت أن أعرف فربما نجوت ...

لم أكن أميز أي نوع من العطر هو الذى أضع رأسي فيه . كنت مشغولا بها عن اكتشافها . كنت ذائبا فيها غير ملتفت اليها . وتلك خطيئة أولى وبعدها يبدأ الطريق للجحيم .. اليوم أعرف أي عطر كان يمر أمامي بعد أن مر العطر ومرت هي وذهبت الارض التى تقف عليها وصارت المعرفة وانعدامها سواء .

... ...

أسير في حدائق الندم .

وجدت رجلا يقف على شاطيء نهر من الدموع . عرفت فيه شيخ الصوفية الاكبر محيى الدين بن عربي . اسرعت نحوه ..

— مولاى ابن عربى .. كنت تقول أن عذاب الجحيم مشتق من العذوبة .. وعلى ذلك فعذاب أهل النار ضرب من النعيم ، اذ لا عذاب على الحقيقة .

قال ابن عربى : قلت بيتا بهذا المعنى غير انني نسيته .. هل تذكره أنت .

قلت له : قلت في الفصوص

يسمى عذابا من عذوبة لفظه

وذاك له كالقشر والقشر صائن

قال : تذكرت الآن

قلت : امازلت تقول ان العذاب مشتق من العذوبة

قال : نعم ، غير انه شيء فوق قدرة احتمال الطاقة البشرية .

تركني ومضى ..

فى جحيم الندم أساتذة تنتدبهم الادارة المجهـــولة وتوظفهم داخل نفسك .

ذكرياتك القديمة . ترفع كل ذرة منها رأسها داخلك . وتبتسم لك الذكرى ولا تستطيع أنت أن تفهم هـــذه البسمة . تعرف أنها وهم . لا حقيقة الآن أمامك الا العذاب . أنت لا تعرف فى حدائق الندم هل معك أحد . هل جوارك مخلوق . أنت وحيد ولكنك تســمع أصواتا وترى أناسا وتقابلهم وتتحدث معهم ثم ينقطع الحديث فجأة وتكتشف أنك كنت تتوهم .

ارتدى بيجامة متسخةقليلا من جهة اليسار ، عندما أثنى رأسي جهة اليسار واستنشق رائحة البقعـــة السوداء أعرف كم قطرة من البنفســـج وكم ذرة من الياسمين وكم جزيئا من الفل وكم بقعة من الكحل وكم دمعة صنعت هذه البقعة . كانت تبكى وجرفت الدموع الكحل وأفسدت زينتها وظهر وجهها على حقيقتـــه أجمل .

المعرفة الآن عذاب آخر .

الرائحة هنا وهى ليست هنا . خيل الى أنها هناك .

انطلقت أجرى واصطدمت به ..

هذا شيخ الغرباء فى الدنيا أبو حيان التوحيـــدى .

ما الذى يفعله فى حدائق الندم يا ربى هو الآخر .

قلت له : **لم تر أحدا يمر من هنا يا سيدى**

قال : من

قلت : نور

قال التوحيدى : **الدنيا ظلام مطبق . لماذا كنت تجرى**

قلت : **أحسست بالغربة**

قال : **لماذا تحس بالغربة**

قلت : **أليس الغريب من جفاه الحبيب**

قال التوحيدى : **بل الغريب من واصله الحبيب . بل الغريب من تغافل عنه الرقيب . بل الغريب من نودى من قريب . بل الغريب من هو فى غربته غريب**

حاولت أن أفهم عبارته .. هل يريد أن يقول أن الغريب قد ارتفع فوق معنى الغربة عن الحب والعطش. الى معنى الغربة عن الغربة بعد أن صارت الغربة نفسها وطناً له . هل يريد أن يقول ذلك .

قلت له : **أفصح أكثر يا مولاى**

قال التوحيدى : أين أنت من غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع من مهب أنفاسه . أغرب الغرباء من صار غريبا فى وطنه .. أغرب الغرباء من تأتيه الغربة من باطنه .

قلت للتوحيدى : أى شئ ادعى لخيبة الامل واليأس فى الحياة ، أن تعتقد وتؤمن بجدوى ما تبذله فى الدنيا من مجهود ، ثم ترى عما قليل أن مصيرك قد تحدد بنفسه ومن تلقاء نفسه وكأنك لم تشارك فيه أدنى مشاركة .

قال التوحيدى : لم أصرح بذلك فانصرف عنى . كفانى ما لقيته فى الدنيا من بؤس ..

وتركنى ومضى .

عدت اتساءل :
- لماذا أحببت هذه الرائحة بالتحديد .
قال لى صوت مجهول لا أعرف أين مصدره :
كنتما متجاورين فى الطين .. قطعة الطين التى خلقت منها كانت جوار قطعة الطين التى خلقت هى منها .
قلت : هذه مصادفة
قال : قانون التوافق يلعب دوره كما قدر الله له فى علمه الازلى .
قلت : أليست هناك قطعة طين تشبهها ولو من بعيد ..
قال : ليس هناك مخلوق له رائحة مخلوق آخر أو بصماته أو صوته أو لونه أو معناه .
هل تتصور أن الله سبحانه وتعالى يكرر مخلوقاته .. أنت معتوه .
صرخت : لست معتوها .. اننى نادم ..
قال : بل مجنون
صرخت : بل نادم .
ظللت أصرخ بالندم ، ويرد على الصوت الآخر بالجنون ، ثم صمت فجأة .. وأفزعنى صدى صوتى وهو يرتمى فى الفراغ فسكت .

أسير فى حدائق الندم

وجدت أبا الطيب المتنبى يجلس جوار كوخ مقفر وهو يقرأ شعره :
قد كان يمنعنى الحياء من البكا
فاليوم يمنعه البكا أن يمنعا
اصدرت بفمى صوتا لانبهه الى وجودى فالتفت الى :
- حتى أنت يا سيدى الشاعر تزور حدائق الندم .

قال المتنبى : نادم لانني مدحت سيف الدولة اكثر مما يجب ، وهجوت كافور الاخشيد اقل مما يجب .

قلت : لم تزل لك كبرياؤك كما كنت

قال المتنبى : تزيد كبريائي يوما بعد يوم . هــذا عالم تضيع فيه لو كنت بلا أنياب .. ما الذى جاء بك

قلت : بيتان من شعرك .

ممثلة حتى كأن لم تفـــــارقى
وحتى كأن اليأس من وصلك الوعد
وحتى تكادى تمســحين مدامعى
ويعبق فى ثوبى من ريحــك الند

قال المتنبى : تتمثل لك حتى لتشم رائحة عطرها

قلت : تماما ..

قال المتنبى : لمــاذا لا تكمل القصيدة

اذا غدرت حسناء وفت بعهدهـــا
فمن عهدها ألا يدوم لهـــا عهــد
كذلك أخلاق النســـاء وربمـــا
يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

أحسست بحقد مفاجىء تجاهه .. ودرت بعينى ابحث عن فك حمار أقتله به كما فعل قابيل فلم أجد .

قلت له : انك تخرف . أنت لا تعرف نور

قال : تقول أنني أخرف . ما معنى ذلك .

قلت : معناها أن كلامك سقط من القول ولغو .

قال : صارت الجــراة على مقـامى أحــد اقدارى السوداء .. انصرف أيها السيد من أمامى على الفور .

انصرفت عنه حانقا لا أعرف أين أذهب .. ثم قدرت فى نفسى أننى مهتاج قليلا وربما أكون قد أسأت اليه ، ثم تذكرت ما قاله عنا فى هجائه لكافور الاخشيد ، ثم

قدرت أنه يستحق ما حدث ، ثم عدت أتذكر عبقريتـــه ورقة أحاسيسه وعنفى معـــــــه ، وقررت أن أعود لاصالحه .. وقلت لنفسى أن الحديث معه على أى حال افضل من الوحشة .. واستدرت له فلم أجـد أحدا هناك ..

اختفى هو الآخر ..

عدت أسير فى حدائق الندم .

الامل الوحيد هنا أن تمتد بوجودك حتى الغد وليس هناك غد .. وبالتالى فلا أمل أمامك على الاطلاق .. وجحيم الندم طبقات ، وهى طبقات مختلفة ، قد تكون الطبقة ذكرى عطرمر عليك ولم تتبين من أى زهـــرة ولد . وقد تكون الطبقة ذكرى لحظة حب ضاع ولم يعد لك منه غير الضياع . وقد تتمثل طبقة الجحيم فى وقوفك فوق أرض حوار نصفه منها ونصفه منك .

« موسيقى بعيدة .. هو وهى يتحدثان » .

هو : كيف حالك

هى : أبدا

هو : شاحبة وصامتة لـــماذا

هى : أبدا

هو : سرحانة كأنك لست معى

هى : ابدا

هو : أريد أن أخفف حزنك

هى : أشكرك

هو : فكرت أمس فى أسباب حزنك . هل انا على حق

هى : أى أسباب

« نظر اليها ففهمت »

هو : هذا ما يحزنك
هى : نعم
هو : سأفعل كل ما تريدينه .
هى : لا تلعب بعواطفى
هو : أنا جد
هى : لقد حاربت طويلا لذلك .. أخيرا .

راقب التغير الذى طرأ على وجهها وجسدها ، ان جسدها يتخلى عن همودة . وثمة تعبير من الفرح يولد فى العينين اللتين لم يعشق أعز منهما فى حياته .. وقرر بينه وبين نفسه أن لا يخذلها من أجل هذه اللحظة من الفرح . قالت ووجهها يضىء : أريد أن أرقص

قفزت واقفة وراحت تدور فى الغرفة . أريد أن أرقص .. ألقت بنفسها عليه واحتضنها وهو يحس أنه لا يستطيع أن يغضبها . أو يكرهها أو يهجرها .

أحس بهذا فجأة . واحتل كيانه شعور آخر بأنه يحبها حقا . وأنه يحس بالراحةِ العميقة لاكتشافه هذه الحقيقة . وغفر لها وهو يستنشق رائحة شعرها كل جرائمها القديمة وخطاياها وقسوتها وأنانيتها وقدرتها الرائعة على المجاملة والظهور بمظهر الطفلة البريئة .

أحس وهو يحتضنها أنه قد ولدها فى عصر من عصور التناسخ القديمة . كان أباها قبل ميلاد المسيح ، وكان ابنها فى العصر الفاطمى ، ثم صادفها كحبيبة فى القرن العشرين . ومثلما يغفر الاب لابنته أخطاءها ويقول لنفسه : لو أحسنوا معاملتها ما أساءت هى .. لقد أساءوا جميعا اليها ..

كذلك فعل هو .. عاد يشدد ضغطه عليها . وتذكر يوم بكت أمامه وهى ترتدى ثياب الحداد السوداء .

بدت يومها مثل دمعة تنحدر من عين نبى وتضم ملح الصدق الذى لم يعد له وجود فى الوجود .

عاد يضم كيانها الى صدره . ويحس بعذوبتهـــا وضعفها وحاجتها اليه . وأحس بالراحة العميقة فجأة . زايله بعد ثوان من حديثه معها كل احساسه المفتت بالعذاب . حين تصور أنها يمكن أن تخرج من حياته سقطت رغبته فيها تماما . لم تعد تثيره . غرق توقه اليها فى محيط عظيم من الخوف . انها يمكن أن تذهب . يمكن أن تخرج من حياته . كانت هذه المصيبة لاتسمح له أن يفكر فى جسدها . انحصر تفكيره فيها كانسان . كمخلوق صديق ذكى المشاعر وشديد العذوبة .

سألت فجأة : لست أفهم ما الذى تخسره لوارتبطت بى .

كانت تقنعه أنه لم يخسر شيئا . ولم يكن فى حاجة للاقتناع بشىء ، غير أنه يحبها ويريدها أن تكبر بسرعة، وتشيخ وتهرم ليثبت لها كم يحبها رغم أنها عجـــوز لا ينظر اليها أحد .

... ...

الجحيم درجات وطبقات ..

والندم هو الثمرة الوحيدة التى يسمح لنا باقتطافها هنا من حديقة الذكريات .. وليس هناك غير طريق واحد للخروج من الجحيم ، وهذا الطريق هو الصوم .. أن نصوم عن ميلنا للاشياء .. أن نتجرد عنهـــا وننخلع منها ونفطر على ذكر الله وحده .

... ...

حدثنى شيخى بأن شيخه أخذه من يده وأجلسه فى ايوان ، ومد يده فأخرج كتابا وأخذ يقرأ ، فتطلع شيخى لمعرفة هذا الكتاب . ولمح الشيخ هذه الحركة فقال :

— ان مائة وأربعة وعشرين ألف نبى ، بعثوا ليعلموا الناس كلمة واحدة هى الله .. فمن سمعها باذنه لم تلبث أن تخرج من الاذن الاخرى . أما من سمعها بروحه ، وطبعها فى نفسه ، ونفذت الى أعماق قلبه . وفهم معناها وألهم حبها ، فقد انكشف له كل شىء ..

لماذا جئنا

الانسان هو الكائن الوحيد الذى يثير غبار الاسئلة حول ذاته قبل مجيئه ، وهو المخلوق الوحيد الذي لا يكف عن طرح الاسئلة على نفسه بعد مجيئه .

قبل خلق الانسان تساءل الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » . وكان استفهامهم موجها الى الله تعالى ، ولم يكن سؤالهم سؤال انكار . وقد رد الله تبارك وتعالى عليهم بقوله : « انى أعلم مالا تعلمون » .

بعد خلق آدم . قال خالقه عنه : « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » .

هو المخلوق الوحيد الذى لا يسجد طواعية واختيارا بغير أن يفكر ، تسجد النجوم والشجر ولا يسجد الانسان الا بعد أن يفكر . .

« والنجم والشجر يسجدان » .. « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

لا نكذب بشيء يا رب . انما نسأل فقط .
لماذا خلقتنا ؟ لماذا خلق الله العالم ؟
فى البدء لا يسأل المرء نفسه ..

فى البدء يوجد المرء .. مجرد وجود .. ثم يتطور هذا الوجود الى الحياة ، ثم يختلط هذا الوجود بالحياة .

ويبدو لى أن هناك سلما صعوديا للقيم فى الحياة ، وفى موضع ما من هذا السلم ، يوجد خط لعله وهمى . اذا كان المرء تحته فهو « يوجد » ، واذا كان فوقه فهو « يحيا » .

نحن نوجد فقط حين نؤدى عملا لا نحبه أيضا نوجد حين لا نرى حولنا غير المناظر العتيقة وجدران المدينة

القديمة والاحلام الميتة والآمال الصريعــة والشــوارع المألوفة والغرف والاثاث والثياب ، نحن نوجد فقط حين لا نرى جديدا فى الحياة ، وحين نفقد القدرة على الاحلام أو التمرد أو الحب . هذا كله يندرج تحت درجة من درجات الوجود .

انما نحيا حين نحب . وحين نكون عرضة للخطر ، وحين نفكر فى الجبال والبحار والنجوم ونحاول اخضاعها بالعلم أو بالشعر ، نحن نحيا حين نلعب وحين نحلم وحين نضحك من قلوبنا ، أيضا نحس بالحياة حــين نكون بمحضر حزن صادق .

ومعظم الناس يوجدون فقط . وقليل منهم يحيا . ولكى يكون المرء حيا يجب أن يملك القــدرة على أن يستقل بعقله عن البيئة المــادية وهموم الحيـــاة ومشاغلها . .ومعظم النوع الانسانى مغموس تماما فى مشاكله ، وليس لديه وقت ليفكر فى أحلامه ، انما يعيش مثل وحوش الغابة فى صراع دائم من أجــل قطعة اللحم وقطعة الارض .

وتشترك الدواب مع وحوش الغابة فى انصراف همتها لقطعة الارض وما فوقها من الكلا . ويشترك عديد من الناس مع الدواب فى انصراف همهم للقمـــة الخبز .

هل خلقنا الله لذلك ؟

قمت باستفتاء صغير فى محيط الاسرة والاصــدقاء لاعرف لمــاذا خلقنا الله .

سألت أخى الموظف لمــاذا خلقك الله ؟ قال : كى أنفق على جيش الاولاد الذى أنجبته .

وسألت صاحب المسمط الذى أشترى منه الكرشة

للقطط : لماذا تتصور أنك جئت لهذه الحياة ؟ قال : كى آخذ محل الكرشة الذى أنا فيه وآكل منه عيشا .
وسألت قريبا غنيا : لماذا تتصور أنك هنا ؟ قال : كى أمارس هوايتى وأصنع ثروة .
وسألت قريبا فقيرا : لماذا تتصور أنك خلقت ؟ فقال : ان أملى معلق بالجنة . والجنة ثروة .
وسألت شيخ المسجد : لماذا خلقنا الله ؟ قال : كى نعبده فندخل الجنة .

وقمت بتجربة صغيرة فوقفت فى ناصية لاحد شوارع القاهرة ، ورحت أستمع لما يسقط من حوار الناس وهم يمرون بى ، فلم أسمع أحدا يتحدث الا فى النقود والهموم المنزلية والامراض . لم أسمع أحدا يتحدث عن قصة حبه .

هل كف الناس عن الحب يا ربى ؟
وهذا كله يؤكد أن الانسان يهتم أكثر مما يجب بلقمة الخبز .. كيف قال السيد المسيح اذن : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

هل كان يقصد أن الانسان يوجد فحسب بالخبز .
كيف يحيا اذن ان كان الخبز وحده مجرد وجود .
هل يجب أن يعرف الحب لكى يقول أنه عرف الحياة .

... ...

فى شبابى كنت أتصور ان الله قد خلقنا لنعبده ، تصورت يومها أن العبادة هى حركات الصلاة وامتناع الصوم وتمتمة الشفاه بالشهادة ، وكنت أمارس العبادة وأحس اننى لا أفعل شيئا .. وبدأ التيار المتقطع يغزو حماسى . يوما أصلى وعشرين لا أفعل . ثم انقطع التيار . ثم كبرت أكثر وعثرت على تفسير أعمق لمعنى

العبادة ، فسرها ابن عباس بالمعرفة .
قال تعالى : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون»
قال ابن عباس : الا ليعرفون .
المعرفة أشمل من العبادة وأعم ، ينفتح داخلك كون على الكون الاكبر . تفهم أن عليك أن تبدأ رحلة السفر فى الكونين معا .. غير أن كل شيء فى الدنيا نسبى ، والمعرفة الانسانية نسبية وناقصة وتتغير . لا بد أن يكون سبب الخلق شيئا أكبر من مجرد المعرفة . أن يكون سبب الخلق قمة من قمم المعرفة .
أيكون سبب الخلق هو الحب ؟

هذا هو رأى الصوفية .
يعتقد الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى ، أن الله قد خلق العالم ليقدم العالم حبه الى الله . ويرى ابن القيم أن الله قد خلق العالم ليعبده ، والعبادة هى قمة المحبة وكمالها .
سألت نفسى : لماذا يريد الله منا أن نحبه ؟
وأشهد أننى لم أعرف الجواب الا بعد تجربة مريرة من تجارب الارض .

... ...

فى بداية لقائه بها
على نهاية طريق الصداقة ومشارف أفق الحب .
لم تكن ((نور)) تمثل له غير نوع محير من البشر .
ثمة قارة جديدة لم تكتشف بعد ، وفى الصدر آمال رجل يحلم باكتشاف الدهشة ، ويفكر فى لغة كونية جديدة للاتصال بهذا المخلوق الرقيق الحالم الذى أسيئت معاملته حتى أصبح أقرب الى الحزن والقسوة .
فى البدء كانت اللغه هى المشكلة .

فى اللقاءات الاخيرة معها ، كان السؤال الوحيد الذى يتردد فى ذهنه .. الى أى حد تحبه هذه المخلوقة القلقة الساحرة . هل يزيد حبها أم ينقص ؟ .. أن قلقا يثيره هذا السؤال فى ذهنه فيميته ويحييه فى اليوم الواحد عشرات المرات ، وهو يريد أن يعرف منهما الحقيقة كما يعرفها الخالق ، وهو لا يرجو اكثر من أن تحبه ، وهو يجاهد كبرياءه كى لا يلقى بنفسه عليها ويسألها أن تحبه . وكان حين تلقى بنفسها عليه يسألها : لماذا تحبيننى .. أى شىء فى يستاهل الحب .

كان يبدو على الدوام فى أعين النساء مختلفا عما هو فى واقع الامر ، يبدو لهن على غير حقيقته لم يحب أبدا . لقد عرف كل شىء ما عدا الحب . تماما مثل جوروف بطل تشيكوف . ولكنه الآن فقط ، عندما أخذ الشيب يكتسح رأسه ، قد طفق يحب اخيرا ،

كان يتحابان مثل كائنين قريبين . مثل زوج وزوجة . مثل صديقين حنونين للغاية ، كانا يعتقدان أن القدر قد اختار أحدهما للآخر . وغفر كل منهما للآخر أن عاش حياته بغير صاحبه . نسى كل واحد منهما ماضى الآخر الذى يخجله . وصفحا عن كل شىء فى الوقت الحاضر . كان يحس اشفاقا عميقا ، ويحس الحاجة الى أن يكون صادقا حنونا .

حدثته أكثر من امرأة أنه رجل بلا مشاعر .. أنه يشبه صيادا للنمور يعرف كيف يوقع الوحوش ولكنه لا يعرف كيف يصادقها أو يتعامل معها أو يهدىء من روعها .

أما نور ، فكانت تتهمه بأنه شديد الرفق والحنان .

ولم يكن يفهم الا أنه قد تغير أخيرا وان لم يعرف كيف .

أحيانا كان يدعوها بأمه .. وأحيانا كان يناديها ابنته .
وكثيراً ما سألها مازحا :

ـــ نور .. انتى راضية على النهاردة كام فى الميه ؟
وكانت ترد : تلاتين فى الميه .

ويقبل يدها ويحس بفرحة طفل نقل ثلث المحيط الى الحفرة الصغيرة التى حفرها جوار الشاطىء .

بالامس قالت : عشرين فى المئـــة ، واليـــوم زادت النسبة ، هو اذن يتقدم .. وكانت تقبل يده وتحدثه أنها تحبه الى حد يصعب التعبير عنه بالحساب ، وكان ذهنه يرفض أن يتحرك عن النسبة التى قالتهـــا وهى تضحك ، ٣٠ فى الميه ، لم يبق الا ثلثا المحيط ، نقـــل ثلثه ولم يبق غير ثلثيه ، كنت تعرف يا ربى أى شموع تضاء داخل روحه ، وأى فرحة تولد داخله ، حتى لكأنه يمارس احساسا يشبه احساس من يخلق .. من يوجد من العدم . كان يعرف أنها تعبده .. لكنه كان يحبها باكثر مما كانت تحبه .

... ...

لمـــاذا يريد الله منا ان نحبه ؟

لله تعالى المثل الاعلى فى السموات والارض .

لا يطلب الله منا أن نحبه الا اذا كان يحبنا أكثر مما نحبـــه .

لا يطلب أحد من أحد أن يحبه الا اذا كان يسبقه بفضل الحب .. فما بالك بخالق له فضل الخلق ابتداء والايجاد والانعام والبعث انتهاء .

الفارق بين حب الله لنا وحبنا البشرى لامرأة أو زهرة .. أننا نكمل أنفسنا الحائرة حين نحب ، ونكمل

ذواتنا الناقصة حين نحب ، ونحتاج الى من نحب ولهذا نحب .

تعالى الله علوا كبيرا عن هذا كله .

فى البدء كان الله . ولا شىء غير الله . ولا شىء مع الله . قائم بنوره وكبريائه وحده . استغنى بذاته عمن سواه ، وافتقر اليه ما عداه . وما كان هنـاك سواه . ولا كان هناك ما عداه .

ولان الله تعالى هو الله ، وهو الخالق ، ولانه يعلم سبحانه افتقار من لم يخلق بعد من خلقه اليه .

ولأن مشيئته تنفذ بمجرد الأمر، تتوجه ارادته سبحانه الى الخلق فيأمر الكون بالمثول بين يديه ، حضورا من العـدم ، طائعـا أو كارها ، فيمثل الكون بين يدى الطاعـة .

((ثم استوى الى السماء وهى دخان فقـال لهـا وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)) .

ثم تشاء ارادته سبحانه ان يفيض من رحمته وحبه فيخلق الخلق .. ويمضى فيض الرحمة والحب فيخلق آدم .. ويفيض فيض الرحمة والحب فيخلق من آدم وزوجه النوع الانسانى . ويفيض فيض الرحمة والحب فاذا نحن نستمع لمزامير داوود وتوراة موسى وانجيل عيسى وقرآن محمد .

... ...

قال شيخى الصوفى :

ـــ من العدم المطلق ، الى بلايين النجوم ، الى قطعة الصلصال ، الى الخلية الحية ، الى مخلوق يكتب الشعر ويبحث فى السماء ويعرف الحب ويجرؤ على انـكار

خالقه . يعطيه خالقه العقل الانسانى ويعطيه أدوات الجدل ، ويمنحه حرية يؤمن بها أو ينكر .

أى قدرة وأى حب ..

ربنا لا نحصى ثناء عليك . انت سبحانك كما اثنيت على نفسك .

... ...

هكذا ينظر الصوفية الى العالم .. انهم يرون الحب قانونا حاكما فى الوجود ، وسببا فى ميلاد الكون ، ونسيجا يشف به ثوب الكون على رحابته وجلاله ، وهم يرون ان الله خلقنا كى يتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .. فهل يشترى الله رغم انه مالك كل شىء .. هل يشترى الا شيئا يحبه ..

... ...

كان ذو النون يسير فى الصحراء حين صادفه شيخ يتعبد ..

سأله ذو النون :

ــ ما تجريد التوحيد ؟

قال الشيخ العابد :

ــ فقدان رؤية ما سواه .

سأله ذو النون :

ــ ما اسم الله الأعظم ؟

قال الشيخ :

— ان تقول الله وانت تهابه

قال ذو النون :

— كثيرا ما اقوله ولا تداخلني هيبة .

قال الشيخ :

— انك تقول الله من حيث أنت .. لا من حيث هو .

قال ذو النون :

— بم تنصحني ؟

قال الشيخ :

— ان تحبه وحده . **وقرا الشيخ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

« اللهم انى أسألك حبك »

ليلة القدر



الليلة ليلة القـــــدر ...

نحن لا نعــرف أى ليلة هى فى الشـــــهر ، اخفيت لحكمة ..

أغمضت عيني وتركت عقلى يمضى وحده . الشارع غريب وطويل ولا أعرفه .. على جانبيه الف برج لالف ساعة محطمة . وكل ساعة تحولت الى عش للطيور ، ساعة تضم حمامة ، ساعة تضم حداية . ساعة تضم يمامة . وساعة تضم صقورا وليس هناك نسر واحد . الصمت مطبق . سكتت العصافير تماما حين ظهــر الملكان . قال الملاك الاول للملاك الثانى وهما يسيران:

ـــ جمعنا عددا طيبا من أدعية الناس والمخلوقات فى ليلة القدر .

قال الملاك الثانى :

ـــ أكثر من أى عام مضى . نفــرزها الآن قبــل أن نبعثها .

قـــال الاول :

ـــ أوكى

بدأ الملاك يقرأ ادعية الناس فى ليلة القدر ..

دعت السيدة العجوز فى ليلة القدر فقالت :

ـــ اللهم ان الروماتيزم فى جسدى قد ارتهن ، ونظرى قد ضعف ووهن ، وكان رطل اللحم البتلو على ايامنا بتلاته تعريفه ، وكان ثمنه أقل من الكباب والنيفة ، وكان المتر من أغلى قماش ، بخمسة قروش يا بلاش ، فالطف بنا يا خفى الالطاف ، وارزقنى بقطعة من واردات الاصواف ، للوقاية من برد الاكتاف والاطراف .

ودعا كمسارى الاتوبيس فقال :

ـــ اللهم ان الزحام قد اشتد ، وفاقت الفوضى كل حـــد ، فوقفت ودموعى تســـــيل على الخـــد ، اذ انحشرت وسط ركاب لا يحصيهم العد ، ولا يفرقـــون بين الهزل والجد ، أسألهم عن التذاكر فلا أسمع أى رد ، وأحاول التحرك فلا اقدر ان اتقدم أو أرتد ، اللهم أسألك بحق ما لهذه الليلة من بركة ، ان ترزقنى القدرة على الحركة ، وان تنقذنى انقاذ السمكة من الشبكة .. ماذا والا اجعل السائق يشتد به الضيق ، فينحـــرف بالسيارة فى الطريق ، ويهوى بنا جميعا الى قاع النيل العميق الغميق . فلأن يموت الانسان وهو غريق ، خير له من هذه الخوازيق ونشفان الريق .

ودعت زوجة حلق زوجها شاربه فجأة :

ـــ اللهم انه كان عاقلا ثم اصابه ما أصابه فانجن ، وصدق ان ذلك أقرب الى الشباب والفـــن ، اللهم ان كان قد حلق شنبه ، من اجل امرأة عذراء أو عزبة ،

سمينة فى حجم الكنبة ، أو نحيفة كالحطبة ، فاللهم إكشف أمره . وقص أو اقصف عمره . أو اجعلنى امرأة يشنب ، لا علمه الوفاء والادب .

ودعا صاحب خمارة فى ليلة القدر فقال :

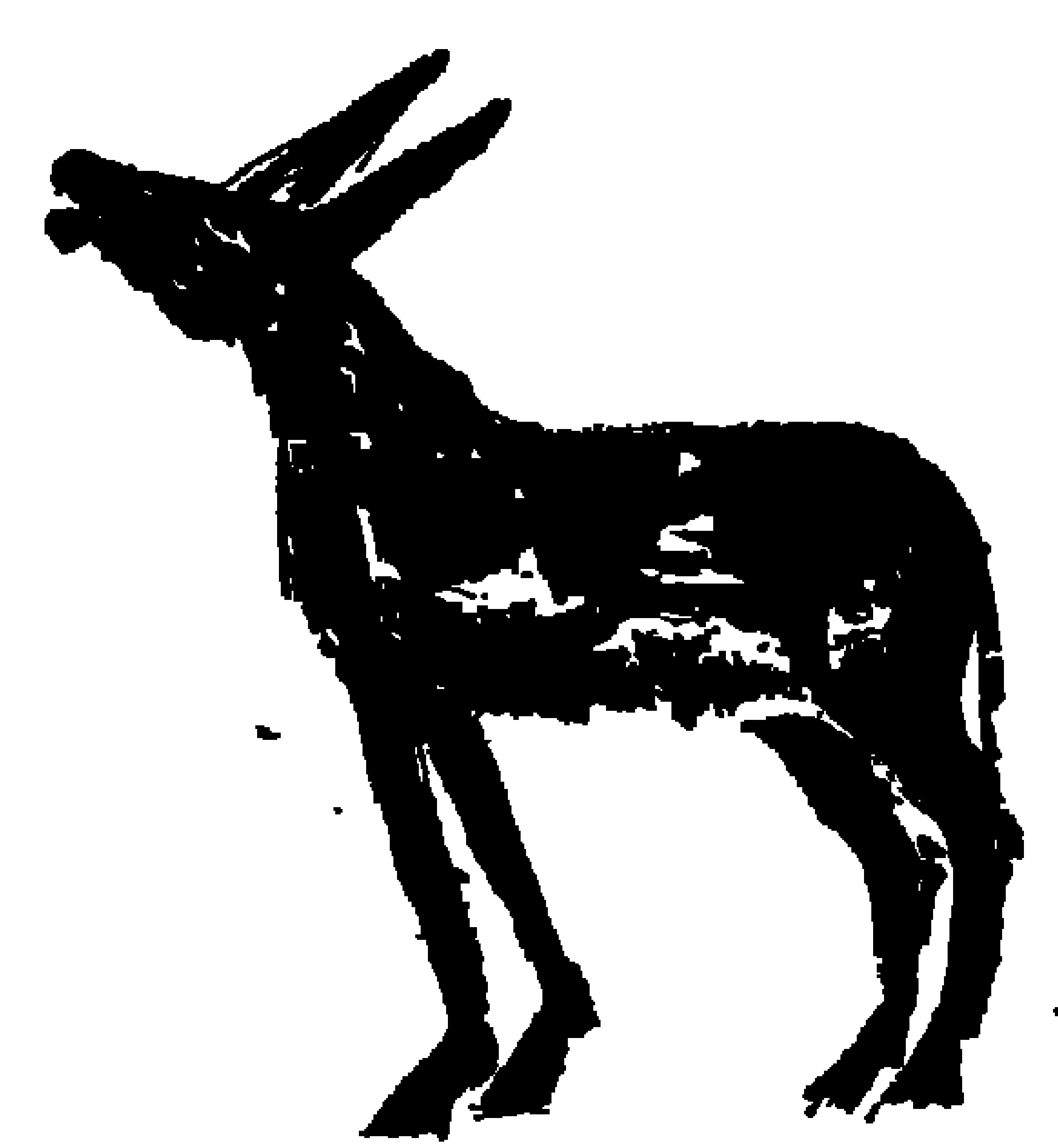
— اللهم ان رمضان قد طال ، ولم يكن معنا كريما كما يقال ، فما كاد يقبل بعد رؤية الهلال ، حتى طفش فى الحال ، كل زبائننا من الرجال والعيال ، اللهم يا كريم يارزاق ، عجل لهلاله بالمحاق ، فقد أخذ الفقر منا بالخناق ، والفقر مر المذاق لا يطاق . اللهم ضاقت اخلاقى ، واتسع كالخرق فى الثوب املاقى ، فاذا سمح العيد بالتلاقى ، وعاد الزبائن لرى بطونهم الشراقى ، فارحم عبدك شوقى البولاقى ، فهو القائل معبرا عن أشواقى :

رمضان ولى هاتها يا ساقى

مشتاقة تسعى الى مشتاق

ودعا حمار فقال بنهيق الحال :

— اللهم أن البشر قد جاوزوا كل الحدود ، واستعملوا الرزالة بغير شروط ولا قيود ، وقد عيرونا بأننا حمير ، فصبرنا وظللنا نسير ، بينما ركبوا ظهورنا فى عز الحر والهجير ، وقلنا ذلك علينا يسير . لكنهم استمروا فى ايذائنا بالضرب والتحقير ، ووصفوا تنابلتهم بأنهم حمير ، بينما الحمير اذكى من اذكيائهم بكثير . وأنت بنا وبهم بصير »



يا ربنا بك نستجير وانت جار المستجير
ابناء آدم طلعوا بالذل ايمان الحمير
وتجاهلوا خدماتهم لهمو وقد عز المسير
يا من اليك المشتكى واليك يا رب المصير
خذ للحمير بذنبهم من ذلك النوع الحقير
ان ابن آدم عقله من بدء نشأته غرير
قد باع جنته بشىء تافه جدا .. حقير
ما كان يعمل مثله حتى ولا جحش صغير

ودعا مجرم ليلى فقال :

— اللهم اعم عين الحكومة عنا ، ونكد عليها كما تنكد علينا ، اللهم اجعل بصرنا فى الليل حديدا ، واجعل الحبس عنا بعيدا ، وانم العسكرى كلما استيقظ في الليل من جديد ، واجعل اجمد قفل يلين فى يدنا كالثريد، اللهم أهدنا فى عز النهار ، الى خزائن عبيدك اللصوص الكبار ، الذين يسطون على الشعب المسكين البار .»

ودعا كلب مسكين فقـــال :

ــ اللهم انهم عادوا يطاردوننا فى الطرقات ، ليقضوا علينا بالبنادق الاثريات ومختلف المبيدات المهلـــكات . ولا ذنب لنا عند هذه المخلوقات ، الذين هم أقسى من الوحوش فى الغابات ، اللهم الا اننا نحرس الممتلكات، ولا نشترك فى السرقات ، وقد اشتهرنا من قديم بأحسن الصفات ، خصوصا الوفاء بالذات . اللهم فاسخطهم كلابا ، وأذقهم ما اذاقونا عذابا ، فلعلهم من بعد ذلك يستحون ، ومن مطاردتنا والفتك بنا يخجلون ويومئذ يعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

ودعت نملة مسكينة فقالت :

ــ اللهم ان عبادك قدصاروا أوعى من النمل وأمكر . يغلقون النمليات ويتربسونها على الســـكر ، مع ان النمليات باعترافهم منسوبة الينا ، وكان من العـــدل أن يوقف ما بها علينا . اللهم الهمهم ترك النمليـــات مفتوحة فى كل مكان . ووســـع علينـــا فى الرزق حتى لا تموت نملة من الحرمان .



يـــامن رزقت النـــــاس — كل الناس قطاعى وجملة
انت العـــليم بأننـــــا — منهم لقينـــا شر حملـــة
عملوا لنمليـــاتهم قفـــلا — وبئســـت تلك عملـــــة
اعطيتهم مـــا يشتهون — ويبخلون بقوت نملـــــة

وقالت قطة ضالة كانت من قبل مرفهة:

ـ اللهم انتقم من عبادك الصحفيين الهائفين ، الذين يحشرون أنوفهم فيما هم فيه غير عارفين ، ويزعمون أن القطط تعدى الأولاد الصغيرين ، فيطردنا أصحابنا من بيوتنا ولا يرق لنا قلب أو يلين ، اللهم صحح أخبارهم ، وطول اعمارهم ، واملأ بالاعلانات انهارهم ، وباعد أسفارهم ، وآتهم من العملة الصعبة والسهلة ما يملأ ديارهم ، ويحسن أفكارهم ، فلا يتعرضون للقطط ، وأن ذلك لأكبر غلط .

وقال الموظف الذى عنده دستة عيال :

ـ اللهم ان العلاوة الجديدة تأخرت ، وماهية الشهر القادم كما تعلم تبعثرت ، والعيال ثائرون والزوجة بهم تأثرت ، فكشرت وزمجرت ، وفكرت وقدرت ، ثم قدرت وفكرت ، وسرعان ما غجرت وزمجرت ، وطاوعتها دموعها فتفجرت ، مع انها عمرها ما وفرت ، اللهم ارزقنا العلاوة والرياسة ، واجعلنا مع الرؤساء فى غاية السياسة .

صمنا بغير كنافة وقطايف
وحرمت من سهرى مع الاصحاب
وشكا من الشك الذى شككته
كل من البقال والقصاب
ولقد صبرت على كذا .. لكننى
فى العيد صبرى مؤذن بذهاب
ان العيال لدى منهم دستة
أنجبتهم ـ طبعا ـ بغير حساب
من أين لى بالكحك فيه وأين لى
فيه بأحذية وحمل ثياب

ودعـــا التلميذ الذى يحب ويذاكر :

ــ اللهم نجحنا فى الامتحان ، وحبب فينا كوثر بنت الافندى سليمان ، وآت أبى العلاوة التى كان يحلم بها من زمان ، وزوج أختى الكبيرة احسان ، من رجل غنى ومنكسر وغلبان ، كما تقول امى فى دعائهـــا ساعـــة الأذان .

ودعا الشيخ ذو الجبة والعمـــة :

ــ اللهم اقسم السعود والحظ للعمة ، واجعلهم فى الكويت وابى ظبى يطلبون ائمة . اللهم اجعلهم يختاروننى للسفر ، لأدع الريف واسكن الحضر ، وآتنى ما يسعدنى من العلم الغـــزير ، والملابس الشـــاهى والحـــرير ، والشيلان الثمينة الكشمير ، اللهم يسر لى قطع تذكرة فى أول باخرة أو طائرة ، حتى أعود بمرسيدس جاز ، تبعد عنا الفقر والنزناز ، واجعلنا نصنع من الوظيفة ، عمارة شاهقة منيفة ، حتى اذا قيل لمن هذا القصر ، قيل لشـــيخ من مصر ، كان يلقى فى المســـجد درس العصـــر .

يـــا ليلـــة القـــــدر	اللـــــه بى يـــــدرى
تســـع وعشـــــرون	مضين مـــن عمـــرى
والفقــــــر راكبنـــى	بـــه انـــا اجـــرى
قــــد داب مـــركوبى	مـــن كثـــرة السـير
وعمـــــامتى ايضـــــا	صـــارت بــــــلازر
والجبـــــــة انقلبـــت	قـــرابة العشـــــر
والجســــم انحــــله	نـــومى على الحصر
يـــا رب قـــــدرنى	فى ليلـــة القـــــدر

... ...

قال الملاك الاول للملاك الثانى : أى شىء نرسـلـه ن هذه الادعية ؟

قال : دعاء الحيوانات .

قال : والبـاقى ؟

قال : القه فى سلة المهملات ..

قال الملاك الاول للملاك الثانى : لم نسـمع دعاء العاشـق ؟

قال : نقرؤه بعد أيام ..

نريد أن نفرغ مما وراءنا من مهام .

دعاء العاشق



يبدأ دعاء العاشق هكذا

كان حذاؤها البنى مغلقـا من الامام مفتوحـا من الخلف ، وكان يخفى أصابع قدميها ويظهر كعبيها .

تأمل كعب قدمها الذى يقع فى اتجاه بصره فترة .. كان الضوء يسقط عليه فيضىء الكعب الضوء الساقط عليه . ينبغى ان يدق الزنك طويلا ليحصل منه على اللون الابيض . وينبغى أن يبحث عن غزال ويصطاده ليكون دمه هو اللون الاحمر ، سوف يرسم كعب قدمها بهذين اللونين . لم يكن رساما ، ولكنه راح يتأمل كعب قدمها كرسام قرر رسمها أخيرا . سيحتاج الى لون أزرق ليرسم به العروق التى تشف تحت جلدها النضر . سـيحتاج الى اللون الازرق الذى استخدمه قـدماء المصريين . لم يزل هذا اللون سرا لا يعرف تركيبه أو تحضيره أحد . هو لون غريب يشبه ثوبا ترتديه السماء خمس دقائق فى اليوم . الثوب الذى ترتديه بعد النور وقبل الظلمة مباشرة . لا يعرف سر تركيب هذا اللون غير الحاج أحمد يوسف الذى أعاد القطع المكتشفة من مركب خوفو الجنازى الى أصلها الذى كانت عليه . كان لقاؤهما أمام مركب خوفو سرا مهموسا أشهدا به الموت على قصة حبهما التى كان عمرها ثلاث لقاءات .

قالت له يوما : **كان يوما جميلا وهادئا .. لقــد احببتك فى هذا اليوم .**

كان هذا هو اللقاء الثالث لهما .. وعاد يتأمل كعبها ويفكر .. كيف يحصل على اللون الأزرق . يذهب الى الحاج أحمد يوسف .. الرجل الطيب النقى الذى عرف أسرار قدماء المصريين وعرف أسرار الصوفيين فى نفس الوقت ..

وعاد يتأمل كعبها ويفكر فى ألوانه .. سوف يقوم بتحضير الوانه مثل ميكائيل انجلو وليوناردو دافنشى ورافاييل وفان جوخ وبيكاسو . لن يرسم بالالوان الجاهزة كعب قدمها ابدا . سيقوم بتحضير الالوان عاما كاملا قبل ان يبدأ الرسم .

نظرت هى فى وجهه وتعقبت اتجاه نظراته ، أحست بالحرج فأخفت كعبها .. قال لها : استدارة قدمك من الخلف .. وملمس القدم من الناحية التشكيلية يشبهان كعب طفل ولد منذ ساعات .

ـ حدثت نفسها : لهذا الحد يرانى رقيقة .

قالت له بعد لحظة صمت مفعم : لم يقل لى أحد فى الدنيا ما تقوله لى .. أين أذهب بعدك . .

أكانت تنظر فى الافق المشئوم وتتنبأ بعكس ما سيحدث .. يا رب .. أنا لا ادرى حكمتك ، ولا أفهم السر الذى يختفى وراء تدبيرك ، ولا أعلم لاى غاية عليا تمضى الأقدار بمشيئتك ، ولهذا تجدنى حائرا يا رب .. ولهذا لا أعرف لماذا ولأى سبب ذهبت هى .. أنا غاضب قليلا يا رب . أو قل اننى عاتب ، أو ان شئت الدقة فقل اننى انسان ضعيف من خلقك ، وانت يا رب تعرف الضعف البشرى أفضل منى لانك تراه من موقع القوة الالهية .. ولا أراه الامن موقع الضعف البشرى . لقد غابت كثيرا يا رب ، ولست أعرف أحدا أتوجه اليه غيرك ... كيف تستجيب يا رب للناس ..

أيجب ان يكون المرء نقيا من الداخل كى تستجيب له ، أم يجب أن يكون مظلما لكى تستجيب له . لست أعرف يا رب . أحيانا لا تستجيب للدعاء كى يحزن

المرء فيزداد نقاء من الداخل ، وأحيانا تستجيب له كى يفرح المرء ويزداد ظلمة من الداخل .. ما أعجب تصاريف أقدارك يا رب .. سبحانك

رغم قيام الحيرة داخلى لا أستطيع الا أن أشهد انك الخالق الوحيد ، وأنك المدبر الوحيد ، وأنك المبدع الوحيد ، وأنك خالق الحب وحدك ، وأنك العظيم وحدك ، وأنك اللطيف بعبادك وحدك . لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين ...

ادعوك بهذا الدعاء ، هذا دعاء ذى النون وهو فى جوف الحوت .

ليكن ما يكون من غضبه على قومه وخطئه حين غضب . مهما يكن من أمر غضبه الخاطىء فقد كان الرجل نبيا .. أليست رحمة أن تسمح لمخلوق مثلى ، أن يتمتم بشفاهه نفس الدعاء الذى تمتمت به شفاه نبى ، ولو كان هذا النبى مخطئا .

اعترف برحمتك يارب .. وأسألك النجاة من جوف الحوت .

... ٦ ...

لم يكن قد وصل الى جوف الحوت بعد ..

قال لها فى المرة الثالثة التى التقيا فيها : لماذا ترتدين الصندل دائما .

قالت : لا يعجبك .

قال : ليس ظريفا .

قالت : لن البسه بعد اليوم .

قال : هل شاهدت طوال عمرك ملكة تلبس الصندل .

قالت وهى تضحك : تفسدنى بتدليلك .

قال : أحد أحلامى أن أفسدك بالتدليل ..

قالت : لم لا تسمينى نوشـــكا .. لمـــاذا تصر على نـــور .

قال : يمتنع علينـــا تدليل الاسماء . ذلك جزء من احترامنا للشخصية .. نور نور نوشـــكا ناديه نازك نرمين نرجس نهى نيفين .. ليس المهم هو الاسم .. المهم هو الحرف .. حرف النون .

... ...

... ...

« ن .. والقلم وما يسطرون »

يقسم الله بحرف وقلم وسطر من الكلمات ..

ان حرفا واحدا يمكن ان يقود الانسان الى الله ..

حرف واحد .. لو فكر الانسان فى قدرة الله الممثلة فى خلق الحروف ، وخلق الـــكلمات وجعلهـــا رمـــوزا واشارات ، وجعلها خطوطا تحتوى داخلها على الكون الاكبر ، وتملك القدرة وهى تمشى على الاوراق ان تعبر عن ملايين الصور والاحلام والدهشة والاكتشاف . لو فكر الانسان فى ذلك لعرف قدرة الله وآمـــن ... ان الفارق الاول بين الانسان والسلم الحيوانى كله هـــو الحروف .. وظيفتها فى عالم الانسان وانعدامها فى عالم الحيـــوان . تتفـــاهم الحيـــوانات فيما بينهما بلغـــة خاصة ، غير أنها لغة غـــير مكتوبة .. عنـــدما تكتب اللغة .. عندما تولد الحروف تولد أضواء الحضـــارة .. ويولد الحب .. وتولد الفنون والآداب .. ويكتب **هذا** كله ..

ولقد كانت لهما لغتهما المكتوبة .

دخل الاثنان معا فى حرف النون .. هذا الهلال الذى تتعلق فوقه نقطة هى البداية الاولى فى خلق العالم . أول ذرة خلقت .. أول ذرة انشئت من العدم منذ بلايين السنين الضوئية . ما أعظم سعادة هذه الذرة .. هى التى شاهدت الله سبحانه وتعالى ، ومن هذه اللحظة الخاطفة التى تجلى فيها الله عليها خلقت بلايين الانقسامات وخلقت بلايين العمليات الكيميائية والرياضية والطبيعية ، وخلق العالم . وخلقت هى أيضا .. .

خلقها معجزة لا تقل عن معجزة الذرة الاولى ..

نحن هنا أمام ارقى المخلوقات . أمام انسان يملك دفء الشمس ، وملح البحار ، وعذوبة الانهار ، وتوهج النجوم ، ويملك القدرة على المطر وسقى حقول الروح وعودة اوزيريس الذبيح وقيامة الزرع واستمرار دورة الحياة ..

أى روعة. ..

أحيانا كانت تبدو منطفئة من الحزن . وكان يحس بالحب نحوها يزداد ، فاذا رآها تتفجر بالفرح أحس بالحب نحوها يزداد . شيء ما فى مشيتها وطريقتها فى نطق الكلمات والسحر الذى يطل من عينيها . وهذه الكبرياء الهشة .. كان هذا كله هو عالمه الجديد الخاص ..

كان فيها شيء خاص .. عذب .. محير ..

. . . . . .

روحها الغامضة كانت أكثر ما يشده اليها ... كانت تملك القدرة على النظر فى الايام التى لم تأت بعد ..

وكانت تملك القدرة على ان تلون عينيها بلون هــذه الايــام ..

كانت تقف أمام رسام اصطحبه هو اليها .. وحين انتهى الرسام من نقلوجهها على الورق أطلت من عينى الصورة نظرة انسان يطل من ظهر مركب على شاطىء يحترق عشبه الأصفر ..

ثمة انقباض العتمة ، والشمس حمراء تماما ، وباردة تماما ، ونصفها فى الأفق ، ونصفها الثانى فى مياهالبحر التى بدأت تتحول الى الدفء ..

وأنت على ظهر مركب يبتعد عن الشاطىء . وعلى الشاطىء كل أحلامك ونكرياتك وأمانيك وســاعات صفوك واسمك وكراريسك فى المدرسة وخطاباتابنائك وصورة زوجتك ومصحف فضى صغير أهدته أمك اليك ، ومع هذا كله حلم بنجاح كنت تحلم به فوق أرضك . تصور هذا كله يحترق ، وأنت تشهد احتراقه من ظهر مركب يبتعد .

كان هذا هو التعبير الذى نقله الرسام يومهـــا .. ويومها قال له :

ــ لم تستطع ان تلتقط تعبير العينين .

قال الرســـام : أعتقــد أننى فعــلت .. ان وهج الحريق الذى يمتد على الشاطىء يلقى بظلاله الحمراء على الوجه ..

قال العاشق : لـــاذا تفسر فى وجهى نبــوءتك . المشئومة . لماذاتصورت ان هناك حريقاعلى الشاطىء.

قال العاشق وهو يملأ صدره من هواء البحر فيزيد احتراقه :

ــ معك حق .. انا الذى يحترق على الشاطىء ..

... ...

. احترق على الشاطىء كل شيء باستثنــاء المصحف الفضي الصغير ..

لم تبق الا كلمات القرآن .. ومن بينها حرف النون..

... ...

نــور ..

انتظري قليلا قبل ذهابك ..

انتظري خمس دقائق .. ساعتبر ان لقائى بك لم يبدأ فى العشرين من ســبتمبر وينتهى متراجعــا الى الخامس من سبتمبر . سأعتبر اننى لم ارك غير ثانية واحدة .. انتهى الامر والتقط عقلي صورتك وهي الآن جزء منه . ساحدثك عن شيء رأيته فى نظرتك الى . لقد رأيت داخلي يا نور شيئا لست أنا هو .. رأيت شيئا كان بامكانى أن أكونه ، وقد أصبح لزاما على أن أكونه. لست عرف اسمه وحقيقته ، ولا أستطيع رؤيتــه أو اكتشافه . غير اننى اثق انه كان موجودا . كان موجودا وأنت تنظرين الى . كان هنا منذ لحظة . طــار عبر المرآة واختفي داخلها . بعدها شــعرت به داخلى فى الرغبة التي قامت لاكون هذا الشيء الجليل النبيل الذى رأيته فى ..

ان عينيك أكثر صفاء من عينى . ولقد رأيته أنت ولم أره أنا .. ولكننى أقسم انه كان موجودا فى عينيك منذ لحظات ، ولم يكن فى الغرفة غيرنا .. وأنا أريد أن أكون هذا الرجل يا نور .. ان أحدا غيرك لم يكتشف داخلى هذا الفنان النائم الذى خلقه الله داخل نفس كل انسان .

هل تعرفين يا نور كيف أفكر الآن .. اننى أحلم أن

ارحل الى القطب الشمالى او اغوار الاردن .. أحلم ان اموت لاصلاح بؤس لم تصنعه يداى .. لقد صرت أفكر كانسان .. هذه احلامى يا نور .. اما حياتى فهى قلقة وغير مستقرة ومحزنة بدونك . غير اننى أحاول بشكل يائس ورهيب ان أكون هذا الذى رأيته يوما فى .. كل شىء فيما عدا ذلك . كل أحزاننا وأسانا وبعدنا سوف نعتبره شيئا لم يخلق بعد يا نور .

... ...

ينتهى دعاء العاشق هكذا .

اللهم اننى أسألك أن تقذف فى قلبى منك نورا يطفىء نــور .

... ...

... ...

قال الملاك الاول للملاك الثانى : ماهذا .. ليس هذا دعـــاء .

قال الملاك الثانى : شىء محير جدا . لم أفهم كل ما قرأته ..

قال الملاك الاول : لن نأخذ الدعاء معنا ..

قال الملاك الثانى : انظر فيه لعل هناك حاشية أو بقيـــة .

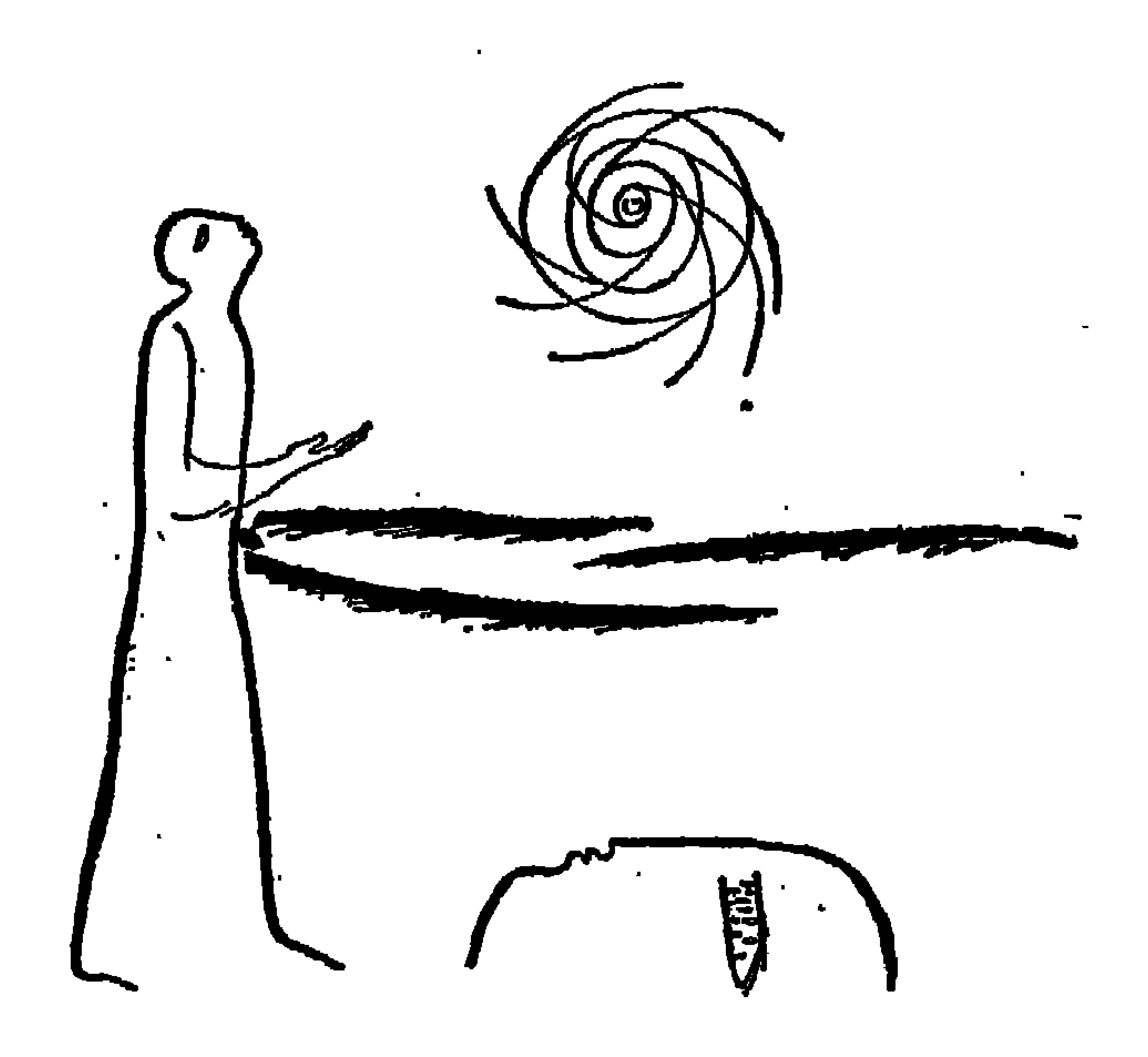
قال الملاك الاول : انظر انت بنفسك .

قال الملاك الثانى : أميل لاخذ الدعاء .. يبدو أن صاحبه يتعذب ..

قال الملاك الاول وهو يكرمش ورقة الدعاء : هـــذا هذيان رجل مريض .

قال الملاك الثانى : لا تكرمش الورقة .. حرام . انه يقول انه يريد أن يصير مثلنا ملاكا .

قميص يوسف



قال الصوفى الكبير ابو الحسن الشاذلى فى احد احزابه وهو يدعو ربه .

((ربنا .. البسنى التقوى منك))

ما الذى يقصده الصوفى بكلمته ؟ أتراه يعبر بلسان

الرمز الديني عن تبديل الثياب الذى يعنى تبديل السلوك والشخصية .. أغلب الظن أنه يقصد ذلك . فالله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الحكيم : « ولباس التقوى ذلك خير » .

أعتقد القدماء أن ثوب المرء هو المرء نفسه .. وعلى اقل تقدير ، هو جزء منه ، اعتقدوا أن تبديل الثياب تعبير عن تبديل الشخصية ، فكأن من ارتدى ملابس جديدة قد ارتدى شخصية جديدة . وما زالت أساطير شعوب كثيرة تحكى ايمانها بأن ثياب المرء جزء من نفسه وشخصيته .. ولا يجوز حسب العادة الجرمانية القديمة أن يهب المرء بعضا من ثيابه لأحد لا يعرفه ، واذا ماتبادل صديقان أو حبيبان ثيابهما كان ذلك دلالة على أنهما قد تبادلا نفسيهما .

قبل ان تختفى نور .. سألتنى يوما : أريد منك قميصا ..

قلت : لست أفهم .. لماذا ؟

قالت : أريد أحد قمصانك التى ارتديتها كهدية .

قلت : أليست هدية غريبة .

قالت : أضع رأسى فيه عندما تغيب عنى فكأننى أبكى على صدرك .

ضحكت .. لم أفهم ماذا كنت تقصد . لم أفهم أنها سترحل .. لم أتصور ظل النبوءة المشئومة الذى استلقى من كلماتها على ما بيننا من حب ..

قلت : ساعطيك القميص الذى رأيتك أول مرة وأنا ارتديه .

قالت : لا تغسله اذا سمحت .. أريد رائحتك فيه .

قلت : هل ترتدينه فى بيتك .
قالت : ربمـــا أفعـــل .
قلت : اياك أن تخونينى فيه .

نظرت الى بعتاب ، كانت تصدق كل ما أقولـــه .. أتظاهر بأننى غاضب منها فتصدق أننى غـــاضب .. أسخر منها بحب فتعتقد أننى قد كففت عن حبها ، كانت قلقة فى الايام الاخيرة ، وكانت تشحب يا ربى وتفقد وزنها وتشف حتى ليرى المرء هذا الحنين الصامت المعذب الذى تختلج به أعماق روحها .. ولم أكن .. بغبـــاء العاشق أدرك التحول الذى بدأ ..

لم أكن أصدق أو أحلم و أتصور أن هناك من يستطيع انتزاعها من يدى والالقـــاء بها بعيدا عنى ..

لماذا يبدل الناس ثيابهم فى الحداد .. لماذا يرتدون الثياب البيضاء أو السوداء .. لماذا القى الرســـول عليه الصلاة والسلام بردته على كتفى كعب بن زهير حين عفا عنه . لماذا شفيت امرأة مريضة حين مست طرف ثوب عيسى عليه السلام وهو يمشى .. لماذا يلبس شيخ الصوفية مريدية خرقته الصوفية ..

لماذا أعطى يوسف قميصه لأخوته كى يلقوه على وجه أبيهم فيرتد بصيرا .. ولماذا أخذت هى القميص وذهبت بعد ذلك ..

أفهم الآن كل شىء بعد أن صار هذا الفهم بلا قيمة . ساعتها لم أكن أفهم . لم أكن أدرى أنها سترحل . لم أكن أصدق أن قميص يوسف يمكن أن يعيد البصر إلى يعقوب الذى هده البكاء والحزن .

اى الم يا ربى .. كان يعقوب نبيا وكان الله يحبه ،

ورغم ذلك تعذب يعقوب عذابا أطفأ نور عينيه .. لماذا تركه الله يتعذب .. استغفر الله الرحيم .. الهذا الحد كنت تحبه يارب .. ولهذا تركت المقادير تصهر ذاته فى الحزن . لماذا يحزن الانسان .. وما هى العلاقة بين الحزن والثياب وتطهير الروح .

... ...

سأل يعقوب أبناءه وكان صائما : أين يوسف ؟

قالوا : أكله الذئب ونحن عنه غافلون .

وانحنى الرجل كالقوس وبكى ..

ومرت أيام .. وتساءل يعقوب :

— أين قميص يوسف الذى اكله الذئب وهو يرتديه ؟

والقوا اليه بقميص ملطخ بالدم .. واحتضن يعقوب قميص ابنه الذى رحل .. وأعادت دموعه للدماء الجافة بريقها الحى .. وخيل اليه أنه يقرأ براءة الذئب فى دم القميص . وقال له قلبه : ليس هذا دم ابنك فلا تحزن .. وازداد بكاؤه فهو لا يعرف أين ذهب ابنه .. ومرت عشر سنوات .. وبلى القميص من كثرة بكاء الشيخ عليه .. وتأذى أبناؤه من حبه للغائب فاخفوا عنه القميص .. سرقوه ذات يوم وأنكروا انهم يعرفون أين اختفى .. وبقى الشيخ وحده .. كان يحتفظ بنور عينيه كى يرى بهما قميص يوسف ، فلما ذهب القميص ذهب نظر الشيخ . لم يعد يريد أن يرى .. لم تعد لديه رغبة فى النظر الى شىء ..

... ...

قال الشاذلى وهو يدعو ربه : « البسنى التقوى منك » .

وسئل بولس الحوارى عن التوبة فقال : « على من يتوب من البشر ان يلبس انسانا جديدا .. بعد ان يخلع آدم القديم : وقال انجلوس سيلسيوس الصوفى المسيحى فى القرن السابع عشر :

« من أراد دخول الجنة فعليه ان يلبس حريرا ابيض فى روحه وبدنه .. على الطف صورة .. »

... ...

أذكر انها كانت بيضاء من الداخل ..

ربما كانت قاسية قليلا .. وربما كانت تتعكر أحيانا غير أن ما رأته من القسوة هو الذى علمها القسوة ، وما شهدته من التعكير هو الذى عكرها ، أما هى .. أما هى كما خلقها الله فلم تكن غير نور تناثر من قلب أعذب ما فى الكون وأنقى ما فيه من نور .

رايتها تلف القميص وتضعه فى حقيبتها .. أخذت القميص الذي رأيتها أول مرة وانا ارتديه ، ولم تعطنى من ثيابها شيئا .. انا الذى أعطى فقط .. تعتقد الأساطير أنه اذا تبادل حبيبان ثيابهما كان ذلك دلالة على انهما قد تبادلا نفسيهما .. لكننا لم نتبادل الثياب .. نفسى هى التى ذهبت اليها ولم تقدم الى نفسها فى المقابل .. لم نكن اثنين فى حقيقة الامر .. كنا واحدا هو « هى » . .لم يكن هناك غيرها .. وكان القميص قديما ، وقد تهيأ أحد أزراره للوقوع .. وقد حذرتها منه .. واشهد أنه لو كانت لى ساعتها أردية السماء بزينتها والوانها .. لفرشت هذه الأردية تحت قدميها .. لم أكن مثل بيتس أملك أن أقدم اليها ألوان السماء

كلها فى رداء واحد .. على مقرى المدقع لم أكن أملك سوى أحلامى .. وقد بسطت أحلامى تحت قدميها ، كى تسير عليها ، ولم اقل انها أحلامى كى تسير براحتها فوقها ..

... ...

المساء يبدل ثيابه ببطء .

ثوب الغروب الاحمر يفسح مكانه لثوب رمادى معتم.

الثوب الرمادى يتحول الى زرقة سوداء مع الوقت .

ومع الوقت يضيع الثوب الازرق تماما ويبقى الأسود .

تبقى ملابس الحـــداد .

قميصها كان أسود . اكان ازرق ام اسود ..

يجب أن أتذكر ..

لو كان ممكنا أن يرى المرء خالقه لانتهى الامر وذهب الحزن .. لكن الله تعالى يقول لموسى والانسان : لن ترانى ..

يعرف الحكماء من البشر أن الله لايتجلى لعيون البشر .. انما هو يحجب نفسه سبحانه برداء الكبرياء كمـــا يقول الحديث .. وبرداء اللطف الذى يستتر تحته كما يقول الصـــوفية ..

لماذا يقول علماء الأساطير ان تبديل الثياب يحدث فى حالات اليأس والموت . ما الذى يقصدونه بحـــالات اليأس . قطعا يختلف ذلك عـــن الموت .. ما الـــذى يقصدونه باليأس . هل كانت يائسة قبل أن ترحل ..

لم أشعر بذلك .

كانت خطيئتى أننى معتم من الداخل ..

لو كنت مضيئا ونقيا داخلى لاستطعت أن اتحدث

مع القطط وأكلم النمل وأدردش مع هذا الحمار التعيس الذى يربطه صاحبه أمام بيتنا بالساعات ويحمله من أمره عسرا . أعرف أن هناك لغة من نوع ما تتفاهم بها الحيوانات فيما بينها .. وعندما يضرب الصياد أحـد الظباء بطلق نارى ويسقط الظبى .. فانه يصرخ صراخا طويلا يفتت القلب .. ورغم أن الطلقة النارية لا تدعو لهذا الصراخ ، وانما تدعو الى نوع من الالـم الذى يشبه الاغماء .. ورغم ان الظبى يعرف أنه لا يصرخ طلبا للنجدة ، على العكس ، ان صراخه يوجه الصياد الى مكانه ، انما يصرخ الظبى لانه يريد أن يصرخ .. لانه يريد أن يبكى ..

هل يبكى أيام الحرية التى صرعتها الطلقة النارية ، أم يبكى لانه يتألم ألما من نوع خاص .. نوع يحدثه فراق من نحب .

وكل حب يقترن فى ذهن صاحبه بأنه اقتحام يزعزع الكيان كله ، وانه من نوعية خاصة ، وان أحـدا من العالم لم يحب أحدا بهذه الكيفية .. لماذا يصرخ الظبى حين يقع فى الاسر ، وما معنى زئير الاسد أياما متوالية حين يأسره الصياد ، حتى ليمتنع النوم على الغابـة لماذا نطأ النمل ونحن نمشى بقسوة بالغة وعفويةفنحمل اليتم الى زوج أو حبيب أو أطفال من النمل .. لـماذا يرافقنا الالم والهوى وينفجر فى حياتنا اليومية المعتادة بغير نبوءة .

... ...

وينفجر احساس يعقوب فجأة ..

نهض الشيخ المحزون الاعمى من عزلته وبدل ثيابه

يخرج على زوجات أبنائه . وقف فى فناء الدار ورفع راسه الى السماء وتشمم الهواء بقوة .. ثم استدار عائدا الى غرفته .

قالت زوجة الابن الأكبر لزوجات الأبناء الآخرين :

— خرج أبو يوسف اليوم على غير عادته .. قلبى يحدثنى بشىء .. هجر عزلته ووقف فى الفناء . نظر الى السماء وهو أعمى فكيف نظر الى السماء ...

لا أعرف ولكننى أقسم اننى لمحت ظل ابتسامة فى وجهه .

وتساءلت نساء الابناء بالدهشة : تقولين ارتدى ثيابا جديدة .. وتقولين انه ابتسم ..

وتهرع النساء اليه . لا ظل لابتسامة فى وجهه . أكان وهما ما رأته المراة .

سألته النسوة : بم تحس اليوم أيها الشيخ الجليل ؟

قال الشيخ : انى لأجد ريح يوسف ..

وزامت النسوة .. فأضاف : لولا أن تفندون

وتنفض عنه زوجات الابناء ويدور بينهن الهمس :

— لا أمل فى الشيخ . سيهلكه البكاء على يوسف .

— هل تحدث عن قميصه ؟

— لا أعرف .... قال انه يجد ريحه .

— تتآكل ذاكرة الشيوخ مع الوقت وهذا على العكس .

— ستزداد ذاكرته مضاء وحدة .

— لم يزل الحادث طريا فى ذهنه .

— تقولين أنه بدل ثيابه .

— لعله جن .

ـ الجنون وحده هو الذى يبعث صــور من نحب ورائحتهم .

يومها طلب الشيخ كوبا من اللبن ، كان صائما فأفطر عليه .. لأول مرة يطلب الطعام ولا يفرض عليه .

... ...

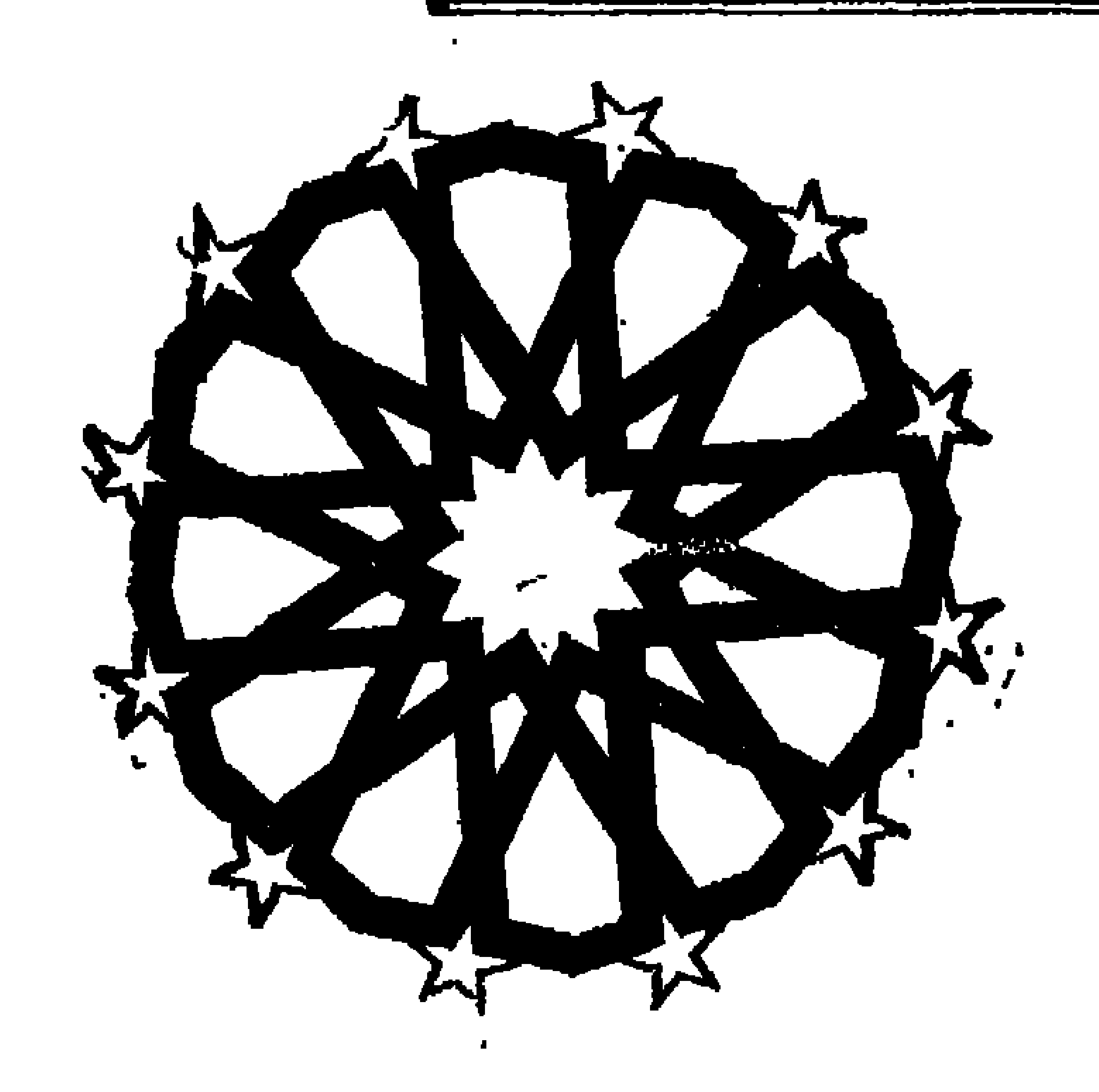
المساء يبدل ثيابه ببطء .

والقافلة تسير بقميص يوسف . كان القميص مخبأ فى القمح . كان مختلطا بندى الحقول ورائحة الأرض الطيبة وعطر يوسف ودفء الشــمس التى أنضــجت القمح .

وتقترب القافلة من قرية الشيخ .. والشيخ يدور فى غرفته .. يصلى طويلا ويرفع يديه للسماء ويعــاود البكاء بينما القميص المندى بالشمس ورائحة يوسف فى طريقه اليه .

متى يكون ذلك يا ربى ؟
متى يعود قميص يوسف .

معنى الحب



يذكرني الصوم بالحب . ويقودني الحب الى التفكير في الله . ويذكرني رفق الله بنا وحبه لنا بالرفق الذي كان ينبغي أن نعامل به الحيوان ، والحب الذي كان ينبغي أن نعامل به رفاقنا من أفراد الجنس البشري ..

غير ان الجنس البشري هو الجنس الوحيد الغريب الذي يملك القدرة على الكراهية والحب والغباء والذكاء معا .

أهو جنس هذا الذي ننتمي اليه . كل واحد منا قارة

مجهولة تماما ، وداخله أعماق لا تدرى ابدا متى تنتهى .. كل انسان منا بلا نهاية كالكون .. وكما قيل انه ليس هناك فراغ فى الكون ، فكذلك الانسان .. ليس فيه فراغ واحــد .

وعندما يحس الانسان بالفراغ فهذا معناه ان هناك خطأ ما فى الحياة حوله .. خطأ فى تركيب الحياة او المجتمع او النظام .

الانسان هو المخلوق الوحيد الذى صنع من الصلصال .. والصلصال هو الطين ، والطين يلتوى تحت ضغط الظروف ، وعندما يلتوى الطين يصبح منظره مضحكا ومحزنا فى نفس الوقت .

يتشابه اطفال الدنيا كلهم عند الولادة .. تكون لهم نفس الوجوه البريئة والعيون الحلــوة .. ثم يبــدأ اختلافهم بعد شهور وسنوات من التغــذية والتربيــة والصحة والرعاية والبؤس وظروف الحياة وشــجار الوالدين وعراك الجيران والسموم التى تنفثها الحارة والعبط الذى يقوله الكبار والهراء الذى يصــدر من البيئة فى مجموعها .

هذا كله يجعل طفلا يختلف عن طفل آخر فى مكان آخــر ..

وكذلك الامر بالنسبة للرجل والمراة .. حتى الفراخ والحمير .. هل تتصور ان حمارا فى اليمن يكدح فى حمل التراب ، يحمل نفسية حمار امريكى مرفه يشتغل فى سيرك . قطعا تختلف نفسية الحمــار الامريكى عن نفســية الحمار اليمنى .

والناس كالحمير فى كونهم صنعوا من الصلصال ..

وأحيانا يقدم لنا التاريخ صورا مأساوية مضحكة لناس ظلت الظروف تضغط عليهم حتى تحولوا الى تحف ولم يعودوا ينتمون الى الجنس البشرى .

فى قصة موسى وفرعون يحكى الله سبحانه وتعالى عن فرعون وعن موسى وهو يصف فرعون بالطغيان وغباء الكبرياء وجنون العظمة .. وهو يصف رعايا فرعون بأنهم بلا عقل .. « واستخف فرعون قومه .. فأطاعوه » .

ان الذل الذى وقع عليهم منه أفسد الصلصال الذى صنعوا منه .. وكان ما حدث امرا طبيعيا بعد ذلك .

فى البداية استخف فرعون بقومه .. وفى النهاية اطاعة قومه .. تتساءل كيف حدث ذلك ولماذا حدث ؟ فيقدم اليك علماء التاريخ وعلماء النفس تفسيرا لما حدث .. ان كثرة الضغط على الانسان تحوله الى مسخ بلا عقل .. يفسد العقل الانسانى من الهراء الدائم الذى ينسكب فيه من الحياة حوله ، وليس كالعقل الانسانى ورقة تصوير حساسة .. وما أسهل افساد العقل الانسانى .. ساعتها تنظر فى وجه الانسان فيضج باطنك بضحك كالبكاء .. ترى الرجل طويلا وعريضا كفه كالرحى ورقبته كجذع الشجرة وفيه قوة الف حصان ، غير انه لا يعرف ما يضره مما ينفعه ، ولا يريد الا ان يأكل ويمارس وجوده على مستوى الحس وحده ، ولسوف تستطيع أن تمسك هذا الرجل بحبل من رقبته وتجره مثل اى دابة لا تعى ، لو استمررت فى افساد عقله .

وليس هناك غير حل واحد يقف امام فساد الحياة وذلك حب الله .. ان فى الحب عنصرا خاصا للمقاومة

.. الذين يحبون يقاومون عادة ، وعلى قدر درجة حبهم تجيء صلابة المقاومة .. هذا قانون من قوانين الكون.

يقول الله تعالى ((يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه)) .

ان الله لا يخــــوف الذى يرتدون عن دينهم ، بان يلقيهم فى النــار ، أو يصب عليهم النحاس المصهور ، وانما يخوفهم بالحب ، بان يستبدل بهم قوما يحبهم ويحبونه .. ان الارتداد عن الدين هو الشرك .. وليس فى الوجود اقسى من فساد العقل ، والله يحارب الشرك بالحب .. بارق ما فى الوجود وهو الحب .

لم يقل الله لهم أنه سيستبدل بهم قوما مؤمنين .. أو صالحين .. أو اتقياء .. ثمة مسافة بعد هذا كله .. هى مسافة المحبين .

وليس أمام الناس سبيل لو أرادوا طريق الله غير طريق الحب .

والطريق الى الحب الالهى يختلف من انسان الى آخر .. وهو يولد فى آلاف الصور ، ويأخــذ ملايين الاشكال حين يكبر .

قد يقودك الى الله ان ترى قطة تلــد ، أو كتكوتا يخرج من بيضته ، أو طفلا صغيرا يرسم صــورة من خياله ، أو عاشقا يحب ، أو رجلا يموت فى ثلوج أرض لم يطأها قبله أحد لا لسبب الا لان هــذه الارض لم تكتشف بعد . قد يقودك الى الله ان تشهد عالما يجرب فى جسده مصلا جديدا بعد ان جربه فى فيران المعمل .. أو ترى شاعرا يعكف على قصيدته شهورا متصلة ، أو ترى كاتبا يمضى وراء ظاهرة فى مجتمعه .. ايضا

يقودك الى الله هذا التوق الى تجميل الارض وتركها أفضل مما وجدناها واقتحام الفضـــاء وغزوه لمجـــرد المعرفة العلمية البحت .

وانت تعرف انك على الطريق الى الله اذا كان البؤس الانسانى يحزنك . اذا كنت تشعر بالعار عنـــدما ترى أمامك بؤسا يبدو أنه ليس من صنعك ، واذا كنت على استعداد للتضحية ببعض راحتك وصحتك ونقـــودك ودمك من أجل تقليل كمية البؤس فى العالم .

عندما نصل الى فهم دورنا كابنـــاء ننتمى للنـــوع الانسانى .. عندها يمكن أن نقطع الطريق الى الله .. وهو طريق ذاتى وشـــخصي ويختلف من انســـان الى اخـــر ..

وقد يقودك الى الله شىء يقود غيرك الى الجحيم .. قد ينظر أحد الناس للامراض والكوارث وآلام الاطفال وتعاسة الرجال وركود النساء وانتشار الشر وغبـــاء العواطف وضيق الناس بالضيق .. قد ينظر أحد من الخلق لهذا كله فيراه ظلما ، وربما نظر اليه غيره فرآه حبـــا ..

يرى الصوفية ان الانسان يفر من الله الى الله .. يهرب المخلوق من حكم خالقه . يتجه عـــكس دوران الكون . لكن الله يراه اينما اختفى ويجده اينما يذهب فى بطن الحوت كان أو فى قلب الصحراء ، فى بيته أم فى مدينته . يجده الله دائما ويتعقبه بوعده ووعيده وبلائه حتى يطيع ويسلم ويحب ثم يشتاق ..

يقول الصوفى العاشق ابن الفارض :

ومارد وجهي عن سبيلك هول ما
لقيت ولا ضراء في ذاك مست
وما هو الا ان ظهرت لناظري
باكمل أوصاف على الحسن أربت
فحليت لي البلوى فخليت بينها
وبيني ، فكانت منك أجمل حلية

تتحول البلوى الى حلية . وتصبح الكارثة سلاما .. ويصير الالم نوعا من أنواع الفرح .

لا يترك الله الانسان كما اكتشف الصوفية ، انما يتعبقه ويبغي صلاحه . ومهما يبلغ من عصيان الانسان فمن العسير عليه ان يقاوم آيات الحب التي وضعها الله في الارض .. وكانت اشارة الى الحب الاعظم الخالق ..

يقول النفرى احد المتصوفين القدامى في العراق.. انه في احد « المواقف » يسمع الله ببصيرته يخاطبه قائلا :

« استمع الى لسان من السنة سطوتي ، اذا تعرفت الى عبد فدفعني عدت كاني ذو حاجة اليه ، يفعل ذلك مني كرم سبقي فيما انعمت ، ويفعل ذلك بخل نفسه بنفسه التي املكها عليه ولا يملكها على ، فان دفعني عدت اليه ولا ازال أعود ، ولا يزال يدفعني عنه ، فيدفعني وهو يراني أكرم الاكرمين واعود اليه وانا اراه ابخل الابخلين » .

سبحانك يارب ..

هذا هو حال الانسان الذي يريد الفرار من قدر الله أو قدرته .

اى لطف يا ربى وأى حب .

هذه مستويات حب لا يبلغها من البشر أحد .. غير ان هناك طريقا اليها رغم ذلك هو طريق الحب البشرى، وهو طريق يعرفه الصوفية كما يعرفه آحاد الناس ..

يقول ابن عربى : أن المحبوب واحد ، وان تعددت صوره . وان الله هو المحبوب الواحد على الاطلاق ، وأساس العبادة وجوهرها هو الحب واذن فالله هو المعبود الوحيد ، وكل الصور الجميلة فى الوجود صفحات تشير الى جماله ، واذن فالله هو الجميل على الاطلاق

غير ان الجمال البشرى انعكاس للجمال الالهى وكذلك كانت « النظام » . **هذا اسم حبيبة الصوفى الاكبر ابن عربى .. كان اسمها « النظام »** وهى ابنة الشيخ مكين الدين بن رستم المقيم بمكة .

عشقها الشيخ الاكبر وهام بها ، وكتب من أجلها ترجمان الاشواق ، وهو أثر من أعظم الاثار الادبية والصوفية فى العالم .

ويعترف الشيخ الاكبر بحبه للنظام .. ويكتب فيها الشعر .. ويتغنى بمحاسنها وينفذ من خلال شفافيتها الى نور أنوار الحق سبحانه .

يقول المؤرخون انه لم يرها غير مرة أو مرتين ، وكانت تصحبها عمتها العجوز التى كان يستمع الى ادبها وحديثها ، أو يراها بصحبة ابيها الشيخ مكين الدين الذى كان يحضر مجالسه .. وهذا كله طبعا ظن يقوم فى أذهان المؤرخين .. أيمكن لعقلية جبارة مثل عقلية ابن عربى ، أن تعشق امرأة لم يرها غير مرتين عابرتين .. اغلب الظن انه رآها بصحبة عمتها المسنة ، وتكلم معها ، ثم عرفها أكثر فاحبها ، ولم يكن له زاد غير ان

يراها ويجلس اليها ويحدثها .. احسبه قد عرفها أكثر مما عرف اى عاشق معشوقته ، وأحسبه قد نفذ الى أعماق روحها ، واحسبه تزوجها سرا زواجا يعود بهما الى عالم الذر الذى اخرج الله تعالى فيه أرواح بنى آدم من ظهر آدم وأشهدهم على نفسهم : الست بربكم قالوا بلى .

أظن ان ابن عربى قد عرفها من هذا اليوم .. من يوم أخذ العهد الى أن التقيا لقاء عابرا مع عمتها أو والدها وهى تحضر درسا من دروسه فى مكة .

واتصور ان الشيخ الاكبر لم يكد يراها حتى تذكر يوم العهد .. وجرى ذهنه لهذه الرائحة النقية العطرة التى تشبه رائحة الايام الأولى فى الخلق .

أحب الشيخ الاكبر ابن عربى .. وعبر عن رعشة الحب فى نفسه ، وصورما يحسه من وجد على من يحب ، وهو لا ينكر انه يحب .. ولا ينكر أنه يحب النظام ، بل انه ليدخل اسمها فى شعره بايراده على شكل صفة من الصفات كمن يحب امرأة تسمى نور فيقول للشمس أو لصاحبه ان الدنيا نور كى يذكرها مجرد ذكر .

احب ابن عربى اذن ، وأحرق الحب قلبه ، وكانت معشوقته امرأة مكتملة ولكنه رآها طفلة . هذه الطفلة ذات الاجفان الخجلة الثقيلة التى تشبه الاجفان المريضة .. هى نفسها المسئولة عن مرضه هو ..

مرضى من مريضة الاجفان
عللانى بذكرها عللانى
هفت الورق بالرياض وناحت
شجو هذا الحمام مما شجانى

وهو يفرد اشرعته فى بحار الحب فيسقط منه عمره

حبيبته فى البحر . ويراها مجرد طفلة تحتاج لاب ..
يراها طفلة ذات نثر .. طفلة تعرف كيف تتحدث ..
طفلة ذات نظام ، اى طفلة اسمها النظام :

طـال شـوقى لطفلـة ذات نثـر
ونظـام ومنبـر وبيـان
لـو ترانـا بـرامة نتعـاطى
اكؤسـا للهـوى بغيـر بنـان
والهـوى بيننـا يسـوق حديثـا
طيبـا مطربـا بغيـر لسـان

وهو يتقدم أكثر فى بحار الحب فيصل الى منطقـة غريقة فيها .. لقد مات لها أحد . .وهاهو يصور لها ما يجتاحه من أسف وحزن وما يخطر اليه من بكاء .. لقد مات وحيدها .. من هو وحيدها . هل كان لهـا ابن ومات ، هل كانت متزوجة ومات زوجها . هل كانت مطلقة وابنها عند زوجها الذى أهمله فمات .. لا احد يعـرف .

ويستمر ابن عربى فيصف لنا ما يتعاقب على نفسه من أحوال الحب ، وأهوال الشوق ، ويشير الى أن العواذل لم يلوموه ولكنهم قد يفعلون . ويشير الى أن الناس لا تتحدث ، ولكنها يمكن أن تتحدث ..

ويقول لنا ، انه لا ينـوى أن يرد على كلام النـاس والعواذل بغير الشهيق والبكاء .. :

ولو لا منى فى هـواها عـذولى
لـكان جـوابى اليـه شـهيقى
فشـوقى ركابى وحـزنى لباسى
ووجدى صـبوحى ودمعى غبوقى

... ...

وصل الشيخ الاكبر الى نفس الحالة التى وصلت اليها بعد أن رحلت نور . انه يستيقظ على الوجد والالم، وينام وغصة الدمع فى قلبه لم تنم . ان ابن عربى يمر هنا بمرحلة من أخطر مراحله كعاشق .. انه يصل فى حبه البشرى الى طريق مسدود .. عرف الناس جميعا أنه يحب ، دل عليه حاله من الشحوب والنحول ، وبدأوا يراقبونه ..

وقال يوما فى رموزه الغامضة « اذا حضر الرقيب ، فخاطب الرقيب بلسان الحبيب ، يسمعك الحبيب ، ويفهم لسانك » .

... ...

أكانت عمتها تجلس معها يا سيدى ساعتها ..
لا أحد يعرف ..

... ...

كانت هذه درجة من درجات الحب ، ثم راح ابن عربى يقتحم روح حبيبته ويمشى فى الكون العريض العميق الذى تملكه روحها حتى اكتشف انه قد تاه . كيف يمكن لامرأة أن تقود رجلا عظيما الى الله . أهو حسنها فقط .. أم عقلها وحده ، أم قدرتها على الامومة ، أم قدرتها على ايقاظ الانسان الذى يجهل الحب وجوده فى نفسه . الانسان الذى يقدم شيئا الى الحياة .

ربما تكون « النظام » هذا كله .. قطعا كانت ولولا ذلك ما أحبها ابن عربى ، وربما تكون فتاة عادية وانطبقت عليهما قوانين التوافق .

لم يزل السؤال معلقا .. كيف يمكن أن تقود امرأة

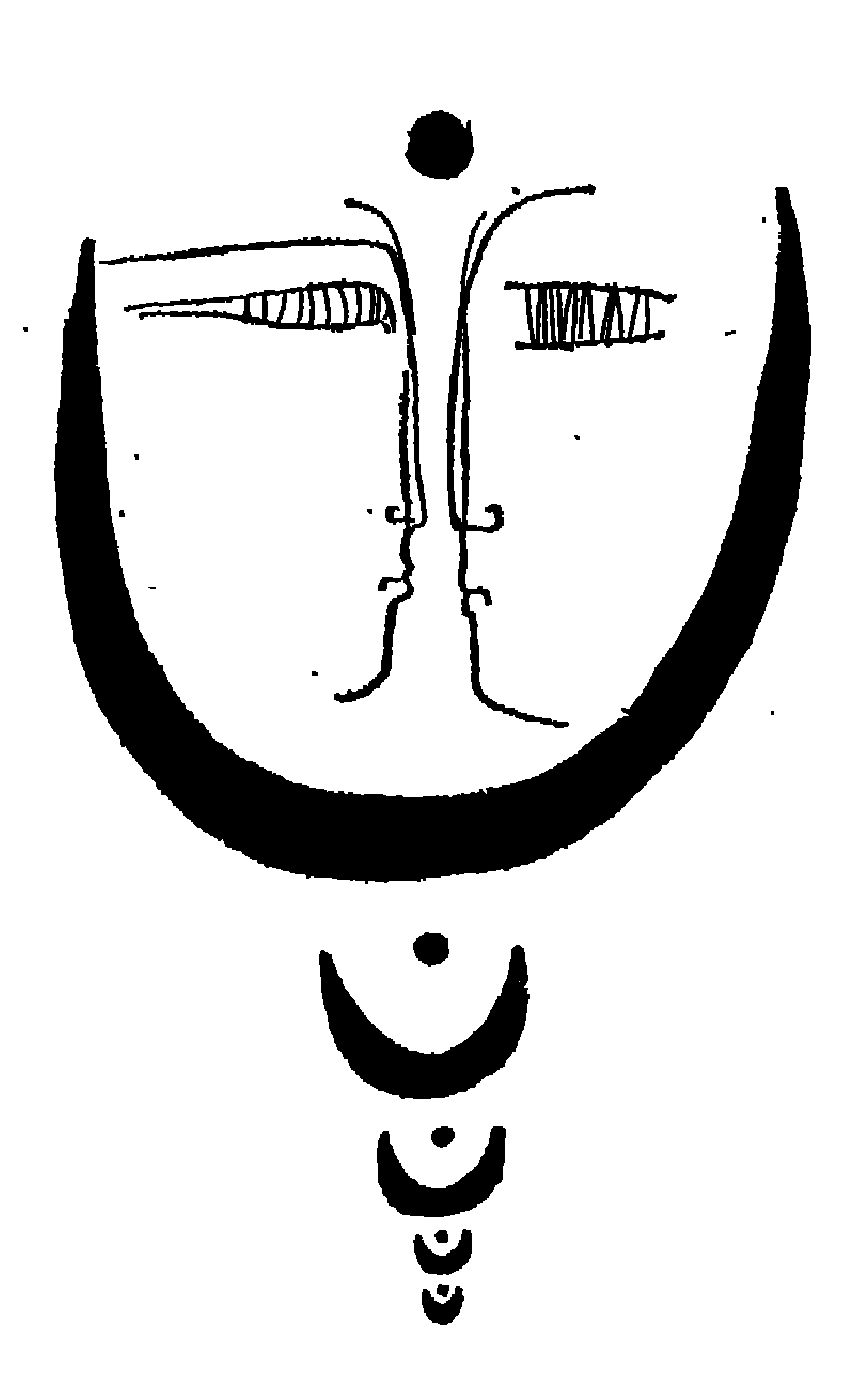
رجلا الى الله .. اى بساطة تنطوى عليها الاجابة ..

هناك منحنى بالنسبة للعواطف الانسانية .. تظل العواطف تغوص فى الالم ، وتصعد الى الفرح ، ثم يصهرها الالم والفرح ، ثم ترتد فجأة الى الحياد .

من رحمة الله ان خلق شيئا يشبه القانون حتى بالنسبة الى الروح ، ثمة أنواع من الالم التى تسلمك الى الذهول ، وهناك نوع عذب من الالم يسلمك الى التوتر .. آلام الموت تسلم الى الذهول .. يفرغ ذهنك فجأة وتقف فاغر الروح أمام الموت ، ويستيقظ قلقك فى الحب وتقف مندهشا أمام آلامه وتزيد الاسئلة عليك ، ويحاصرك اليأس ممن تحب ، وتزيد الاسئلة عليك . لن يجيبك على هذه الاسئلة غير الله . ويذهب الى الله يسأله عنها باعتباره الوحيد الذى يعرف حقيقتها .. أليس خالقها .. ويسأله عما يلح على ذهنه من أسئلة باعتباره خالق الاسئلة والاجوبة .

وخلال بحثه عن الصورة يهديه الله الى الاصل . ويعشق ابن عربى عشقه الكبير . ينسى الصورة أمام الاصل . يذهب عقله أمام الاصل .

أوراق نون



ـــ الم تصل رسالة ..

هذه أول كلماتك حين تصل الى عملك .

لم تصل رسالة يا سيدى .. هل تنتظر خطابا من أحـــد .

سوف تستدير وتمضى ، سيضحك الناس مـــن وراء ظهرك ... انت محاصر من الداخل بآلاف الاسئلة .. تنضم المخاوف الى الحصار . تنتظر رسالة ممن تعرف انها ذهبت . لعلك مجنون . من يدرى . لـــكنك صلب وعاقل والناس لا تعرف ماذا يحدث لك ، خبىء مشاعرك تماما وراء صفحة وجهك .. تكتشف فجأة .. تستيقظ ذات صباح من نومك فتكتشف فجـــأة انك خـــائف . لا تعرف لماذا أنت خائف . بل تعرف ولا داعى للانكار .. رأيت كل شىء فى الحلم ليلة أمس ..

لم تمت حبيبتك وانما هى موجودة وتخونك .

نحن الآن فى اوقيانوس الخيانة .. والظـــلام كثيف ومعتم ، وحولك آلاف من الامواج والقواقع . فمك ملىء بملح الصدق القديم الميت . اليس الاوقيـــانوس بحـــر الظلمات .. كل شىء مظلم فاستمع . لم تمت حبيبتك وانما هى موجودة وتخونك .. لماذا تصر انها ماتت .. تدافع عنها لهذا الحد وتحبها لهذا الحد .. ياللمخلوق المخدوع .. بل دخل حياتها رجل آخر .. احبت أحـــدا أكثر مما تحبك . ابنتها أو نفسها أو ابنها أو قطتها أو اى مخلوق آخر أكثر منك .

كان لها ابن ومات . لا تقاطعنى ودعنى اكتب . مات حبها لك فى طوفان الحزن الذى اكتسحها بعدموته . تقول ان هذه هى قصة حب ابن عربى .. تريد نهاية

حديثة .. لم تزل تقاطعنى وهذا سيء .. انا المؤلف .. انا خالقك ، واستطيع أن أكتب سطرين فتموت ، أو أكتب كلمة واحدة فتنتهى .. اقول مات فتموت .. لست رحيما مثل الله لاعطيك كل ما تطلبه .. انا بشر ولدى مشاكلى الخاصة وديونى . اصمت تماما ودعنى اكتب .. هذا آخر تحذير أوجهه اليك .. لم تعد هى تحبك .. أى ظلم فى الحب . الحب ظالم ولا منطق لديه غير منطق الجنون . نزولا على دموعك الصامتة التى تحاذر ان تصل الى سمعى سأبحث لك عن نهاية ثانية .. سنتصور شيئا آخر .. نتصور شفتيها وشعرها وقابيل يمضى بيديه فوقهما .. قابيل الجد الاكبر .. حمدا لله . تذكرنا اسمك الآن . اسمك هابيل . أليس اسمك هابيل .. قتلك قابيل .. الم يقتلك . ما اغرب صور القتل التى يمكن أن ترد فى حياة البشر .. لقد قتلك قابيل بفك حمار أو بسلاح ذرى أو بتصرف ردىء أو بكلمة وشاية .. المهم ان قابيل بعد ان قتلك راح يحتضن الانثى التى كنت تحبها .. أنت ميت تنظر بعيون الموت الزجاجية فترى كل ما يحدث ..

استيقظ من موتك . عادت نور .

عليك ان تسير على أطراف قدميك . انت الان شهريار . انت فى الطريق الى المرأة التى تحبها . ينفذ شهريار فى الباب كحفنة من الهواء فيرى حبيبته تلهو مع عبد اسود . ويقبض شهريار على قلبه بيده .

انت شهريار الذى اتخذ محل اقامته القرن العشرين .

شهريار القديم مد يده الى السيف وأطاح برأسها ورأسه . لكنك شهريار حديث .

شهريار متمدن . وليس معك سيف ، ولا تستطيع قتلها وهي بعيدة عنك ولا تطولها يداك . ولو طالتها يداك فلن تقتلها لانك تحبها .

ارأيت كم أنت خائب .

ويصرخ الحاجب الك .

● سيدى شهريار المودرن . اعدت مائدة الجنون فتفضل الي الغذاء . هل نتركك تجن يا سيدى . هل تستطيع احتمال آلام الجنون . لاحظ أن جنونك من نوع خاص ولا شفاء منه . فى الجنون المطلق يذهب العقل فلا تعرف من أنت ولا من تكون ، وفى حالتك ينحصر ذهنك فى شيء واحد . انت شهريار الذى يستل ابتسامته بدلا من سيفه . وانت هابيل القتيل الذى وقف القاتل يقبل امرأته وهو لا يعرف كيف يوارى جثة أخيه .

ولأن الله لم يزل يحبك . ولأن الله لا يريد لك الجنون . ولانك تبكي دون ان تعرف السبب فى بكائك ، وتخفى عن الناس انك تبكى ، ثم تخفى عن نفسك انك تبكى ، حتى لتبكى بعد ذلك دون ان تدرى انك تبكى . لانك رجل متكبر يا سيدى فانت تحاول ان تبدأ فى انتاج الفن . تنحت تمثالا أو تؤلف كتابا أو تكتشف زهرة أو تنضم لجماعة تحارب لقضية نبيلة ومحفوفة بالمخاطر ، مثل فتح ، ما رأيك فى فتح .. هيه .. تسألنى لماذا ذهبنا الى الله .. نحن مضطرون ان نذهب الى الله .. صحيح أنني خلقتك على الورق ، ولكن مشكلاتك السوداء التي أوقعتنا فيها هى التى اضطرتنا الى الذهاب الي الله . صنعتك ولا أعرف كيف أحل مشكلاتك . هل رأيت المأزق . كان يجب ان تخجل من نفسك ..

ما رأيك فى فتح . لا تريـــد ان تموت معهم . ضــاعت فرصتك فى ميتة نبيلة أيها الاحمـــق .. ســتموت على فراشك كما يموت البعير .

اصمت ولا تعد لمقاطعتى . انت تسـير فى طـريق الفن .. تقول أن جنونك يزداد بدل أن يهدأ .

بلاش أكتب أنا .. تفضل انت .. تفضل خذ مكانى .

... ...

قال لى : انتت تخلق مخلوقاتك وتتحكم فيهاوتسيرها . تمنحها النقاء حين تقرر لها النقاء ، وتضعها فى ظروف الاثم حين تريد لها الاثم . انت لا تتــرك لمخلوقــاتك الحرية . وهذه البنت الروائية التى صنعتها تحب هذا البطل لانك أردتها أن تحبه . وضعتها فى ظروف دفعتها لحبه .. ولن تعرف ابدا كمؤلف هل كانت تحبه ام لا .. انها ليست مخلوقة حقيقية .. لم يخلقها الله .. اننى أكفر بك ايها المؤلف .

اما أنا ، فصحيح انك صنعتنى .. لكننى أحببت نور .. وأنا أكفر بك الآن .. سأذهب وحدى الى الله ..

نظرت اليه فصمت .. عدت الى الكتابة .

... ...

ـــ سأفترض انك تعرف انهـــا كانت تحبك .. كان فعل ماض ذهب لحال سبيله .. لقد خانتك مع أول عبد مظلم . هل أرسلت اليك الرسالة التى تنتظرها قط . هيه .. يا صديقى انها لم تبعث اليك لانها لا تعرف ماذا تقول ، وهى تدرك ذكاءك .. الســت ذكيا .. وهـــى تعرف أنك ستكتشف كل شىء .. واذن ليس امامك غير تجارب الفن أو تجارب الحياة .. ارجوك .. لا تتحدث ابدا ، هذا أمر نهائى .. تريدك تجارب الفن جنونـــا

وتزيدك تجارب الحياة يأسا ... لا بأس .. يجب أن تحتمل .

الا تريد ابدا أن تكبر أيها الطفل عديم الارادة .

لا تبك بهذه الحرقة . جفف دموعك وأصلب قامتك وادهن وجهك بلون الاحلام وادهن قلبك باللون الاسود وتحول الى عبد مظلم وحطم احلام شـــهريار ونقاءه وتصوره الساذج عن الحياة .. تستطيع ان تفعل ذلك ببساطة . أمامك ألف امرأة وأمرأة ، والف ليلة وليلة . تقول انك لا تريد ..

لا تريد أى امرأة . سئمت من النساء مثل شهريار . ولم تعد تريد أن تلعب دور العبد القمىء . ماذا تريد اذن ..

اياك ان تقول لى نور ..

لا تعرف ماذا تريد ...

أيها الآدمى الاحمق .. الا تعرف ان الله يحبك أكثر مما تحب نفسك ولهذا يوجهك اليه .

قلت لى انك تكفر بى وانا الذى صنعتك . يظهر ان الجحود هو شيمة المخلوقات . تفضل يا سيدى واتركنى واذهب الى الله ..

أمامك الف معجزة ..

تسالنى أى معجزة .. عصفور يلتقط حبة أرز ويطير مسافة ليطعم أحد أبنائه .. قطة تلحس ابنتها وتحميها وتنظفها .. طفل يولد .. نسر ينقض من الجـــو على فريسته .. نبات ينمو من طين الحقول الغليظ ويشق

سطح التربة الثقيل ..... كتكوت يخرج من بيضته مغمض العينين لا يرى ولكنه يتجه مباشرة الى الارض باحثا بمنقاره عن .. عن ماذا ؟ عن شيء ياكله .. حبة أرز مثلا .. الله .. من الذى قـال له ان فى الارض شيئا يؤكل .. انه لم ير الارض بعد . لـم يفتح عينيه بعد .. لابد ان الله هو الذى الهمه كما الهم حوت يونس ان يبتلع ذا النون .

واذن .. لماذا لا تذهب الى الله .. لو ذهبت الى الله تطلب منه ((نور)) فربما اجابك لما تطلبه .. ماذا ستقول لله .. فكر قبل أن تدعو .

■ ستقول له : يا رب .. أريد ان أعيش معها واريد أن أغسلها بالمطر وأجففها بالنور ، وأريد أن أدللها وافسدها واطعمها وأحميها وأكرر صورتها فى الاف الاطفال . اريد ان استلقى جوارها فوق كل مدينة فى الارض . اريد ان احتويها فوق كل البحار ، وداخل كل المغارات . وعلى كل الشواطىء .. ونهب لكل بقعة من الارض طفلا .. وأريد أن اموت وهى جوارى . عظيم جـدا ..

أليست هذه كل طلباتك .. انت تريدها باختصار .. عظيم .. استمع اذن لما يقوله الله ..

ماذا قـال الله .. الم تسـمع .. الا تعرف ان لله كلمات كثيرة .. وانه لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثلـه مددا)) ..

كيف لم تسمع ما قاله الله ردا على دعوتك .

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى اليك . كان يحدثك انت وحدك ورغم ذلك لم تسمعه .. هذا ذنبك وليس ذنبنا . انت معتم من الداخل ولهذا لم تسمع . لم تصلك الرسالة . لم تلتقط الرسالة ..

هل تحاول مرة أخرى ان تسمع ماقاله الله .. تريد ان تعرف جواب الخالق على دعوتك . الطريق الى ان تسمع الخالق ان ترتدى قميص يونس الذى كان يرتديه فى جوف الحوت . القميص يباع فى حدائق الندم . لا .. ليست حدائق الندم التى دخلتها قبل ذلك . حدائق أخرى غيرها . لكى تسمع الله يجب أن ترتدى هذا القميص .. لقد كنت تتعطر من أجلها وترتدى أفضل ثيابك وتحلق ذقنك وتمشط شعرك وتملؤه بالعطور والدهون . وكنت تتأمل نفسك فى المرآة آلاف المرات كان هذا كله من أجلها .. هل تستكثر على الله كى تسمعه ان ترتدى له رداء يونس أو رداء التوبة ، أو رداء التقوى .. هل ارتديت قميص يونس .. تعال من مقام التوبة الى مقام الخوف . كيف لم تسمع الله . دع مقام الخوف الى مقام الرجاء .. توسل الى الله أن يرق قلبك فتسمع الله . تحرك من مقام الرجاء الى مقام الصالحين . لا .. لم تصبح صالحا بعد . انما انت تحب الصالحين .. والمرء يحشر مع من أحب . انتقل من مقام الصالحين الى مقام المريدين . تريد كلمات الله.. امشى من مقام المريدين الى مقام المطيعين .. هيه .. اين انت الآن ، انتهى الامر وصرت طائعا لله .. اسبح من مقام المطيعين الى مقام المحبين . تقول انك فى مقام المحبين . سيجيئك جواب الله على دعوتك هنا .

فى اللحظة التى تكتشف فيها انك تحب الله حقا .

يدين لك كل شيء بالخضوع . تنكشف لك حقائق الاشياء. لم تعد هابيل الذى قتل . انت المسيح الذى رفع الى السماء بغير ان يمسه احد . لم تعد شهريار الذى يجرى وراء رائحة الدم لان امرأة خانتــه مع عبــد أســود . أبدا يا صديقى .. ينفتح لك الباب فترى مثل شهريار ما رآه فتبتسم اشفاقا وتقول : لو احسن الناس معاملة هذه الفتاة ما فعلت ما تفعله .. الناس قساة وهى مخلوقة من الصلصال ، وفى الصلصـال كل الضعف البشرى . ونحن لا نرحم أحدا ولهذا لا يرحمنا الله .

ـــ نور .. اننى اغفر لك كل شىء . وأريدك رغم كل شىء .

وتحس داخلك بالرحمة تجاه كل الصلصال البشرى البائس . ويحدثك الله فتسمع . ويقول لك:سلنى ماتريده . وتقول فى صوت هامس .

ـــ يا رب .. انت وحدك تعرف يا رب اننى تزوجتها مرتين .. (هذه حقيقة يجهلها المؤلف) . تزوجتها مرة أمامك قبل أن تخلقها حين كنا فى عالم الذر فى ظهر آدم .. ولم ألمسها هذه المرة .

وتزوجتها مرة ثانية بعد ان ذهبت ولم ألمسها هذه المرة أيضا لأنها ذهبت ...

تعرف القصة كاملة ياربى ، ولو شئت أن احكيها لك فسوف أفعل .. أحب أن أحكيها ..

يتدخل صوت فى الحوار .

صوت جديد لا نعرف من أين جاء .. يقول الصـوت الغريب :

ـــ نور امامك الآن

وتترك الله وتستدير سائلا .

— أين هي ..

وتراها أمامك فجأة .. بعثت من المـوت فجـاة . وتسرع نحوها وانت تفتح ذراعيك تريد أن تطقطق ثها ظهرها كما كنت تفعل في كل مرة تقبلها فيها .. لـكنك لا تصل اليها .. يعترض طريقك نفس الصوت الغريب.

* الى اين تذهب

— الى نـور

* قلت انك ذاهب الى الله .

— اهناك تعارض ..

* قلت انك ذاهب الى الله . هل تأخذها معك .

— نعم ..

* الطريق وعر وشاق ويمتلىء بقطـع الزجـاج المكسور .. وانت تحب قدميها .. هل تريد ان تتمزق أصابع قدميها التى تحبها .

— لا أريد .

* كيف تأخذها اذن

— ساحولها الى انسان عين واضعها بدل انسـان عيني واغلق عليها جفني وأمضي في رحلتى سـعيا الى الله .

ويضحك الصوت الغريب .. يضحك طـويلا حتى يدهمك الخوف .. وتتلفت جوارك فاذا بمخلوقات عديدة تملا الفراغ فجأة .

ويقول الصوت الغريب : الم أقل لكم انك جاء في طلبها ولم يأت في طلب الله . ونسمع صوتا مهيبا وهـادئا يتساءل .

ـــ من الذى يتحدث عن الحب البشرى فى مقام الحب الالهى ..

ويشيرون اليك .. ويصدر الحكم ..

لم تكن جادا فى طلب الله ايها الفانى . انزلوه كما كان . اعيدوه الى الارض .. الى حجمه الطبيعى .. الى مقام الخطيئة والهوى البشرى .. حيث ذهب هواه ولم يرتكب خطيئته .. دعوه يحترق بالثلج والنار وحده.

وتهوى يا صديقى من مقام المحبين الى مقام الطائعين الى مقام المريدين الى مقام الصالحين الى مقام الرجاء الى مقام الخوف الى مقام التوبة الى مقام الخطيئة ..

عدت كما بدأت . اثبت أن الارض كروية والخطيئة كروية وعليك أن تدور عكس دوران الارض فتصور بؤسك .

هل تريد ان تبدأ من جديد . آه ...

تعود الى مؤلفك بعد أن كفرت به آه .. وتذهب الى الله فلا تصل اليه آه .. كيف أحل مشكلتك اذا كنت لم تحلها مع الله .. هيه ..

هل تريد ان تبدأ من جديد . ليست لى علاقة بك . لا تحدثنى فى ذلك . لقد تمردت على وكفرت بى وذهبت الى الله وعدت الى حين لم تنجح .. اصمت تماما وانصرف . افعل ما تريده بعيدا عنى ..

اذهب ..

... ...

ذهب يجرى الى شيخه الصوفى . قطع بحارا وجبالا ووديانا وطرقا برية وسككا حديدية وعبر على قرى نائمة واجتاز سهولا ولم يتوقف .. وصل الى صومعة الشيخ فى جبال اسوان .. باب الصومعة مفتوح على

غير عادته . انقبض قلبــه وأحس بذلك .. دخل الى الصومعة .. سجادة صلاة الشيخ لم تزل دافئة مثل رمال الصحراء . حمدا لله . خرج الشيخ وعما قليل يعود . فوجىء برجل يخرج من غرفــة نوم الشــيخ . ترك الرجل الباب مفتوحا . لم يكن الشيخ هنــاك . سأله الرجل .

ــ أى شىء تريده

قال : أريد شيخى .. من أنت

قال الرجل الغريب : أنا سمى الشيخ وصــفيه . ذهب شيخك ..

تساءل والخوف يعصر قلبه : اين ذهب الشيخ . لا تقل لى أنه مات ..

قال سمى الشيخ وصفيه : أغلب الظن أنــه مات . توضأ قبل أن يمشى وحمل كفنــه معه وخــرج يخلص الناس من ذئاب الجبل ..

سقط على ركبته وتساءل : لم يعد شيخى اذن .. اين كفنه .. اقصد اين قبره ...

قال سمى الشيخ : لا نعرف شيئا عن مكانــه .. حملت الريح جزءا من قميصه الملطخ بالدم،تحب أن أزيك القميص ..

... ...

انكفأ على التراب وانشب اسنانه فيه ...

عوى وهو ينشج .. ودخل التراب فى عينه وفمــة وانفه وهو يقبله ..

وخيل اليه وهو يقبض على التراب بعينيه ويقبله أنه

يقبل حفنة من تراب جاء من المدينة ، حفنة تراب سـار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

غسلت امرأة اقدام المسيح بدمعها ويغسل هو ترابا سار عليه نبيه ثم حملته الريح الى اسوان .. رأت المجدلية الخاطئة المسيح وحدثته ولم نر نحن النبى ولا زرنـا قبره .. اى بؤس ...

وعاد ينشب أسنانه فى التراب .

الحوار الأخير

تركنى سمير الشيخ وصفية أبكى وخرج ..

غادر الصومعة وتركنى منكبا على الارض ، لا أدرى كم من الوقت لبثت راقدا هــكذا ، ظللت أبكى وأنشج حتى هدنى البكاء فنمت ، رأيت فيما يرى النائم شيخى الصوفى ونور وهما يسيران وسط خلاء عظيم .. كانا يتحدثان معا . هو يسير قبلها ، وهى تمشى متأخرة عنه احتراما ، وحاولت أن أعرف فيم يتحدثان فلم أعرف ، اقتربت منهما وحاولت أن أتصنت .. كانا يحــركان شفاههما بغير أن يصدر عنهما أى صوت .

قلت لنفسى الاحظ حركات الشفاه لعلى أفهم ، خيل الى أنها تسأله : لماذا أعادوه الى التراب .. ألم يكن فى مقام المحبين ؟

استدار الشيخ وقطب وجهه ورفع أصبعه فى وجهها مهددا وخيل الى أنه قال : أنت السبب فى عدم ذهابه أصلا .. أنظرى اليه وهو نائم على الارض . لم يصل بسببك أبدا الى مقام المحبين .

تساءلت نور : أكان يحبنى حقا .

قال الشيخ : كان يحبك وحدك وتلك خطيئته .

قالت نور : لماذا أعادوه اذن .

أجابها الشيخ : قلت لك أنه لم يذهب ، هتف الشيطان باسمك وهو يتوهم أنه يتجه الى الله ، فاستدار يسأل عنك وترك خالقه .

قالت نور وهي ترتعش : فعل هذا من أجلي .

قال الشيخ ووجهه يظلم : انت سعيدة لما حدث .. أنظري الى بؤسه .

قالت نور وهي تبكي : ظننت انه لا يحبني .. تصورت أنه يلعب بعواطفي .

قال الشيخ وهو يقطب وجهه : هل أنت واثقة أنه لم يكن يعبدك .

قالت نور : لم يقلها لي بوضوح .. كان يقول لي قبلها دائما استغفر الله .. يخيل الى انني أعبدك ..

قال الشيخ : فهمت الان سر تعاسته ، كان يعبدك حقا ، ولهذا كان يستغفر الله ، كان جادا في عبادتك، لم يكن هناك فارق بينه وبين من يعبدون الشمس ولهذا السبب لم تحبيه أنت ..

قالت نور وهي تزداد ارتعاشا ودهشة : كيف تقول كان يعبدني ولهذا لم أحبه .

قال الشيخ : أخفى الله هذا الناموس عن العشاق في الارض ، في اللحظة التي يحب فيها العاشق غير الله ، في اللحظة التي يهب العاشق قلبه لغير الله ، يضيع منه ما صرف جهده اليه ، وينقلب عليه من ترك الله بسببه ، أخفى الله هذا القانون لحكمة ، لو كان هذا الآدمي التعس يعبد الله وحده لصرت يا نور اطوع له من قميصه .

قالت نور شيئا لم أسمعه للشيخ ، ورد الشيخ بشيء لم أتبينه ، ثم ثار غبار هائل واختفت نور واختفى الشيخ . وظللت أحدق في الخلاء الغامض الصامت .

ا . . . .

استيقظت من النوم ساعة الغروب ..

تأملت الشمس وهى تذهب ، مسحت التراب عن وجهى وجلست على الارض ، كان سمير الشيخ وصفيه قد عاد من الخارج ، مد الشاب العابد يده الى بكوب من الشاى وكسرة من الخبز .

قال لى : كل واشرب .

قلت : انا صائم .. اليوم هو اليوم الثلاثين من شهر رمضـــان .

قال : غربت الشمس وتستطيع أن تأكل .

قلت : صائم بسبب غروب الشمس .

قال : يجب أن تكف عن عبادة الشمس ، الم تفهم مما رأيت فى الحلم شيئا .

صعقتنى كلمته فقلت : كيف عرفت حلمـــا رأيتـــه وحـــدى ؟

قال وهو يبتسم : ألم يكن شيخى هو الذى زارك .

قلت له : أكنت معه ؟

قال : لا .. بل حـــدثنى انه زارك .. كيف حـــالك الآن ؟

قلت : أريد أن أموت .

قال : لكنك استيقظت من النوم منذ دقائق . تريد أن تنام مرة ثانية .

قلت : بل أريد ان أموت .

قال : أمامك عمل شاق وأنت لم تبدا بعد .. هل تحبها لهذا الحـــد .

أدهشنى سؤاله المفاجىء .. سألته بحدة : لـــاذا تحاول اقناعى أنك تعرف كل شىء .. هل يبدو وجهى صفحة مقروءة ؟

قال وهو يبتسم : قلبك هو المقروء لا وجهك .. والمؤمن ينظر بنور الله .

قلت له يائسا : ذهبت هي ، وذهب الشيخ ، وذهب شهر رمضان ، ما الذى بقى لى فى الدنيا ! ؟

قال بهدوء : بقى لك الله .

تذكرت الحلم الذى زارنى فيه شيخى وألقى الى بكتاب منها .

قال سمير الشيخ وصفيه : لماذا لا تعود الى الله كما حدثتك هى فى الحلم .

قلت : من الذى أخبرك .

قال : دعك من أسلوب الاسئلة .. قل لى .. الا زلت لا تفهم مغزى ما حدث .

قلت .. وقد بدأت أحس بانجذاب اليه : لا لست أفهم مغزى ما حدث .. أهناك معنى لما حدث .. اسمع قبل أن أنسى .. أين قبر شيخى الصوفى لأدفن معه . كان المفروض أن نزور القبر معا فى أسوان .. لو حدث هذا لعرفت ين أدفن نفسى ..

قال : لم تزل محموما ومريضا .. ماذا ستفعل .

قلت : أريد أن أعود الى الله .

قال : ماذا يمنعك أن تعود الى الله .

قلت : الخجل والحزن .

قال : حزين لانك تعود الى الله .

قلت : أقصد بهذه الكيفية .. لم أكن أريد أن أعود الى الله هكذا .. كنت أريد أن تقف معى نور .. ثم أقول لها أذهبى فأنا لا أريدك لاننى أريد الله .. بعدها اتجه الى الله .

انفجر الشاب العابد يضحك فجأة .. راح يضحك

حتى وقع على الارض .. ضاع وقاره كله .. **قال وهو يقاوم ضحكه** : أنت سيء الادب حقا كما حدثنى شيخى الصوفى عنك .. تريد أن ترسم بنفسك الطريقة التى تعود بها الى الله .. تريد أن تحدد بنفسك أسلوب عودتك الى الله .. ما أعظم جرأتك .. ماذا قال آدم لله حين أخرجه من الجنة ؟

قلت : قال « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

قال : طبقا لاسلوبك .. لو أنك أنت آدم .. لو كان آدم بنفسيتك هذه الرديئة الجاهلة لقال : « يارب لماذا أنزلتنى من الجنة الى الارض رغم انك قدرت فى علمك القديم ان ما وقع كان لابد أن يقع ..

يارب .. أريد أن أنزل الى الارض بكرامتى .. لا أريد أن أخطىء وآكل من الشجرة . أريد وسيلة أخرى للنزول الى الارض .. عن طريق رحلة سياحية مثلا .. أو دعوة على حساب الارض فيها بدل السفر .

قلت له : لا أفهمك .. انت تسخر منى ولم يكن شيخى يسخر .

قال : لا تقل أريد مع ارادة الله ..

قلت له : تريد أن تقنعنى ان ما حدث كان مقدرا معروفا ومقصودا من قبل .

قال : اتشك فى ذلك . من الذى خلقها .

قلت : الله .

قال : من الذى وضعها فى طريقك .

قلت : الله .

قال : من الذى الهمك أن تقول كلمة أثارت اهتمامها بك ؟

قلت : الله .
قال : من الذى خلق أصابعها بهذه الرقة ؟
قلت : الله .
قال : من الذى خلق رائحتها ولون عينيها ومذاق روحهـــا .
قلت : الله
قال : من الذى خلق قانون التـــوافق الذى انطبق عليكما فوقعتما فى الهوى .
قلت : الله .
قال : من الذى أخذها منك بعد أن أعطاها لك ؟
قلت : الله .
قال : ماذا وجدت بعد أن فقدتها ؟
قلت : وجدت الله .
قال : لم تفقد شيئا اذن أيها المخلوق ..
قلت : أتألم ألما لا حد له .
قال : ألم تفهم بعد ، من الخذلان أن تظن أن تدبيرك لنفسك أصلح من تدبيره لك .
قلت : أبدا . ازداد حيره .. لمـــاذا فعل الله بى ذلك .
قال : لانه يريدك .
قلت : ذهبت الى الله فلم أجد أنه يريدنى .
قال : وهو يبتسم بحزن — تقول انك ذهبت الى الله .. ماذا سألته حين ذهبت اليه .
قلت : سألته أن يعيد الى نور .
قال : لم تذهب الى الله .. انما ذهبت الى نور .. أخطأت الطريق .. الذين يذهبون الى الله لا يطلبون غير الله .. هل أجابك الله لطلبك ؟

قلت : لا .

قال : سألتك نور شيئا قبل أن تذهب .. هل أجبتها لما تطلبه ؟

قلت : لا .. لكنها بعد أن ذهبت فعلت كل ما طلبته.

قاطعنى قائلا : لا يهمنى ما حدث بعد أن ذهبت .. أكنت تحبها أم تكرهها حين لم تجبها لما تطلبه .

قلت : كنت أحبها حبا لم أعرف اننى قادر عليه .

قال : كأن الاستجابة ليست دليلا على القبول .

قلت : نعم .

قال : وكان الرفض ليس دليلا على الرفض .

قلت : نعم .

قال : الحمد لله .. لا تحزن لان الله لم يعطك ما سألته .. انما حاول أن تفهم .. لم تكن فى الطريق الى الله .. كنت فى الطريق اليها .. الذين يسيرون الى الله لا يسألون الله شيئا .. يقول لك الرحمن الرحيم « سلنى أجيبك يا عبدى المحب » .

لكنك لا تسأله شيئا .. انك تتأمل بالهيبة والدهشة. والحب هذه المشاعر التى تولد داخلك .. **لقد وصلت الى مرحلة لا تريد فيها أن تسأل الله شيئا .. تخجل أن تسأله .. أنت سعيد بوجودك بين يديه .. بغيابك عن نفسك بين يديه . لقد تساوت الاضداد وتداعت المسافات وقارب طرف المجرة البعيد طرفها القريب ، وسجدت النجوم فرأيتها تسجد ، وسجدت الاشجار فسجدت قبلها وسمعت من الارض أى دعاء قالته وهى تسجد ..**

انتهى الامر .. انت الان تحب حبا من نوع آخر .. حب تشاهد فيه مصدر النور لا نور وحدها .. كانت

حبيبتك بكل ما أثارته من متاعب وآلام .. مجــرد جدار يستلقى عليه بعض نور ينعكس من أنوار تجىء من أنوار تنبعث من أنوار معك الان مصدرها .

ويقال لك : اليك « نور » التى أوجعت قلبك بسببها .

وتقول أنت : رب لا أريد غير حبك .

ويقال لك : انت فى مقام المحبين ، اصعد الى مقام المشتاقين .. وتصعد من مقام الحب الى الشوق .. ومن مقام الشوق الى الولاية ، ومن الولاية الى القرب ومع كل درجة تصعدها تذهب انت ..

قال شيخنا الاكبر الجنيـــد : يذهب هو .. يذهب العبد . يصير شبحا تجرى عليه تصاريف القــدرة .. يضيع المحب فى محبوبه .. اذهب الآن .

سألنى سمير الشيخ قبل أن أذهب .

● ما هو الحب ..

قلت : اقامة العتاب على الدوام .

قال : على أى شىء تقيم العتاب .

قلت : على النفس .

قال : خطأ . حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شىء تقيم عليه العتاب .

أخرج الآن ..

أشار سمير الشيخ وصفيه الى الصحراء الموحشة المقبضة فخرجت ..

رسوم الكتاب للفنان :

محمـود رحمـى

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب
٥٨٠٧ / ١٩٧٠
مطابع الأهـــرام التجارية



أحمد بهجت

مذكرات صائم

من مقدمة الدكتور حسين فوزى

أشهد أن الكاتب فى هذا الكتاب هو الفولكلور المصرى الحى ، المنحدر من أصلاب الفلاح الفصيح وأبو نضارة وحسن الالاتى وشفيق المصرى وبيرم التونسى .

كتاب يقرأ من آخره ، أو من أوله ، أو من وسطه ، فهو فصول تجمعها وحدة الفكر والاحساس والتأويز .. يتلون بأسلوب الكاليدو سكوب . وسواء قرأت فصوله بالنظام الذى اختاره لها أحمد بهجت أو حسب مزاجك أنت ، فثق بأن الكتاب يأخذك ((جر كسوة)) ، فلا تعرف ان كنت تستلقى على قفاك ضحكا أو هائما فى الملكوت الاعلى .

فى أسلوبه وميض المستقبليه ، وفيه ركيزة الماضى يشده اليها العشق الصوفى . راقبوا هذا الكاتب الشاب ، فهو منبئكم ذات يوم بالخبر اليقين .

د . حسين فوزى

١٠ قروش
ف ج.ع.م